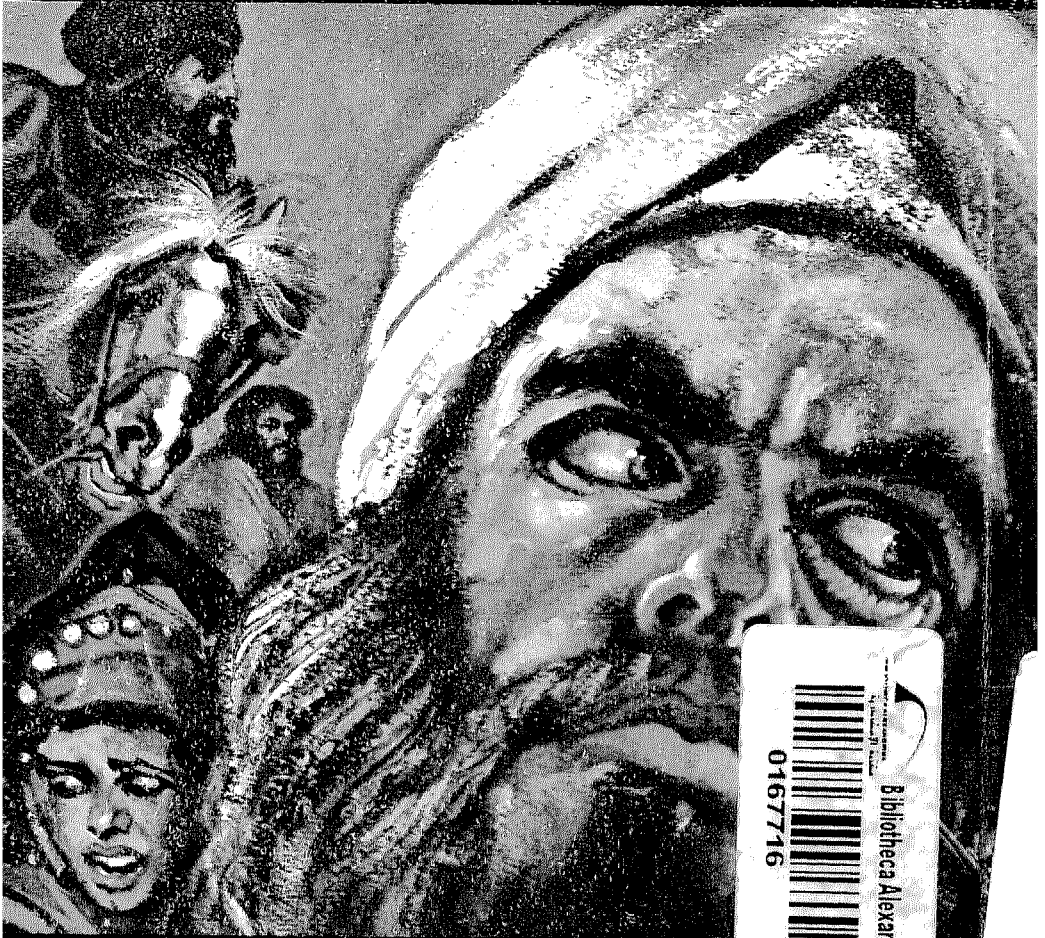
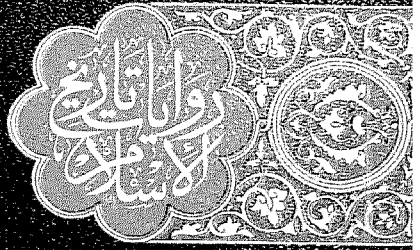


الحجاج بن يوسف



دار الحديث
بيروت - لبنان

عرجي زيدان

رَوَايَاتُ
تَلَايُحُ الْإِسْلَامِ

الْحَجَّاجُ بْنُ يُونُسَ

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى
فتحها ومقتله وخلص الخلافة لعبد الملك بن مروان .
مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة

دار الحجية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الجيل
الطبعة الثانية

ابطال الرواية

- | | |
|-----------------------------|-------------------------|
| : ابن الزبير بن العوام | ✖ عبد الله بن الزبير |
| : احد ملوك بني امية | ✖ عبد الملك بن مروان |
| : عامل عبد الملك على العراق | ✖ الحجاج بن يوسف الثقفي |
| : بنت الحسين بن علي | ✖ سكينه بنت الحسين |
| : الشاعرة المشهورة | ✖ ليلى الاخيلية |
| : زعيمة الغناء بالمدينة | ✖ غرة الميلاء |
| : من فتيات المدينة | ✖ سمعة بنت عرفة الثقفي |
| : من اهل العراق | ✖ حسن خطيب سمية |
| : اخو الحسين بن علي | ✖ محمد بن الحنفية |
| : من اتباع ابن الزبير | ✖ عبد الله بن صفوان |

مراجع رواية الحجاج بن يوسف

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووجعها التاريخية :

- ★ مسعود الاعنبار
- ★ المستطرف
- ★ مرشد الاطلاع
- ★ الدر المنثور
- ★ الاغانى لابى الفرج الاصفهاني
- ★ مشكاة المصابيح
- ★ التقيوم العام
- ★ البخاري
- ★ البيان والتبيين
- ★ مقدمة ابن خلدون
- ★ تاريخ : ابن هشام - ابن الاثير - ★ أسد الغابة
- ★ الديميري - ابن خلكان - الفخري ★ العقد الفريد

- ١ -

فذلكة تاريخية

اتتهينا في رواية «غادة كربلاء» الى مقتل الحسين بن عابي وأهله في كربلاء بجوار الكوفة ، وما تلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . وكان عبد الله بن الزبير ما زال في مكة يدعو الى بيعته وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا بقيادة الحصين بن نسير ، فحاصروه بمكة ، ثم جاء الخبر بوفاة يزيد وهم في الحصار . ولم يكن من أبناء يزيد من يصلح الخلافة ، فرأى الحصين ان الامر لا يستتب الا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه ان يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير .

اما اهل الشام فبايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثاني) . ولكن هذا لم يعش الا اياما ، فاخلفوا فيمن يبايعون بعده . وكان من أمراء بني أمية وقتئذ مروان بن الحكم ، وقد تولى امارة المدينة في عهد يزيد ، فلما علم بموته عاد الى الشام ، فبايعوه . وكان شيخا طاعنا في السن ،

فتزوج أم خالد بن يزيد ليصغر نفس خالد عن طلب الخلافة ، ويكتسب حظه . ولكنه لم يحكم الا تسعة اشهر وبضعة عشر يوما ، اذ خنقته امرأته هذه سنة ٦٥ هـ فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان . وفي ايام هذا الخليفة زهت دولة بني أمية وتأيد سلطانها .

وأما اهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه وقاموا يطالبون ابن زياد وأصحابه بدمه وسموا انفسهم التوايين .

وفي سنة ٦٦ هـ ظهر في الكوفة رجل اسمه المختار بن ابي عبيد ، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير ، فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيد الله بن زياد وشمس بن ذي الجوشن وخولي الاصبحي وعمر بن سعد وغيرهم . على انه ما لبث ان غير دعوته ، فأخذ يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية اخي الحسين لايه ، وزعم ان جبريل يظهر له ، واتخذ كرسيا قال ان فيه سرا مثل سر تابوت العهد عند اليهود .

فلما استفحل امر المختار في الكوفة ودان له العراق ، اصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك في الشام ومصر ، والمختار في العراق والكوفة ، وعبد الله بن الزبير في الحجاز . وغضب عبد الله على المختار لنقضه بيعته فبعث لقتاله جندا بقيادة اخيه مصعب بن الزبير ، فقتلوه ودانت العراق لعبد الله ، ولم يبق لبني أمية غير الشام ومصر . ولكن عبد الملك بن مروان ما لبث ان حمل على مصعب في العراق بجند كثيف فقتله سنة ٧١ هـ واسترجع العراق . وبعث جندا الى الحجاز ففتح المدينة ، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي في جند لفتح مكة وفيها عبد الله بن الزبير ، فحاصرها وطلب الى عبد الله ان يسلم فأبى . فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور في مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله . ومن هنا تبدأ حوادث هذه الرواية .

- ٢ -

غزة الميلاء ولىلى الأخيلىة

المدينة او «يثرب» هي مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده • وكان يحيط بها سور وخندق ، وهي واقعة في منبسط من الارض تكتنفها الآبام والغياض ، وتخلل ابنتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخل • وقد عمرت في صدر الاسلام ، حتى كانت ايام يزيد بن معاوية فهاجر منها كثير من اهلها لكثرة الفتن والحروب في ايامه ، ولكنها ما زالت آهلة بالناس ، وفيها اهل البيت •

وكان من اهل المدينة في اواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها «غزة الميلاء» • وكانت مولاة للانصار ، وهي اقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز • وقد سميت «الميلاء» لتمايلها في مشيتها لفرط سمنها • وكان العود حديث العهد عند العرب فأجادت العزف عليه ، عدا ما كانت تحسنه من العزف بالمزاهر وبقية آلات الطرب ، وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لا يقدم قادم الى المدينة الا التمس ان يراها ويسمع غناءها •

وكان العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف ، على ان غزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار ، اذا جلست للغناء في حفل عام ، أنصت لها الحاضرون وكان الطير على رؤوسهم • وكانت دارها في اقصى شمال المدينة مما يلي طريق الشام ، يحيط بها بستان من النخيل تتخلله اشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح ، وعليه سور قليل الارتفاع له باب بمصرع واحد في وسطه خوخة • وفسي بعض جوانب البستان حظيرة مبنية من سعف النخل توضع فيها الدواب •

واللدار باحة كبيرة في كل جانبيها غرفان ، وفي الصدر قاعة واسعة
تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار ، وفي باحة الدار نخلات متقاربة تظلل الباحة
في اثناء النهار .

ففي يوم من ايام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر
أغسطس سنة ١٩٩٣ م) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها . وكان يوما
شديد الحر ، والحر ثقيل هناك للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من أبخرة
المستنقعات والاشجار . فلما دنت الشمس من الغروب دخلت الى مخدعها
فأخرجت فارورة من الطيب فتطبت ، وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة
معصرة لونها اصفر زاه ، وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو
المكان من الرجال . وأرادت ان تتناول عشاءها على سطح البيت نحت
قبة السماء .

وكانت يؤمئذ في نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمها وذهبت
استدارة وجهها وارتخى خداهما واستظالا الى أسفل الذقن ، وثقل يدها
حتى لم يكن في المدينة دابة تحملها . وكانت قلما تنتقل من بيتها والناس
يفدون عليها لسماع غنائها او ضرب عودها ويحملون بها الاموال
والهدايا من الحلي والجواهر ، حتى ملأت معصيتها بالاساور والدمالج
وطوقت عنقها بالعقود ، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير ،
وعلقت في أذنيها قرطين كبيرين يتناسبان مع حجم أذنيها لانها كانت
كبيرةهما مع تناسب التكاسير . وكذلك آذان اهل الغناء والموسيقى في
الغالب .

وكان الرجل من اهل الوجاهة اذا اراد التزوج بفتاة لا يعرفها استشار
عزة ووسطها في خطبتها او استطلاع مدى جمالها وصحتها .
وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر ، وعندها
فتاة من نزالة المدينة اسمها «سمية» كانت تحبها وتأنس بها . وكانت

الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها في امرها ، وقد جاءت
يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة صحيحة
الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها أفرادا لا ترى جمالا باهرا . ولكن
في عينها ما يدل على الذكاء والحب ، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ
بالعقول ، حتى كانت وهي في أشد اضطرابها قلما تبدو الكتابة في وجهها ،
وربما زاد ذلك في هيبتها . وفي ذقنها اندفاع قليل الى الامام مع بروز ،
وهو دليل الانعطاف ، وفي أنفها ذلف قليل يزيد بها مهابة . وكانت في
نحو الثالثة والعشرين من عمرها .

فلما ارادت عزة الصعود الى السطح امرت جارية لها ان تفرشه
بالأبسة وتعد عليه المائدة ، وأمسكت ضيقتها بيدها وقالت لها مداعبة :
«هلم بنا الى السطح يا سمية واتركي الهموم جانبا ، وتعال لي لأريك يثرب
وضواحيها من سطح بيتي فانها من اجمل ما يكون ، ولا تعجلي فسي
العودة الى بينكم فما اظن أباك قد عاد اليه بعد» .

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وأرادت نسيان ما يحول في
خاطرها من دواعي الهموم ، وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز تحت
قدمي عزة ، حتى وصلت الى السطح وقد انتهت الجارية من اعداد المائدة .
فجلست عزة وأجلست سمية الى جانبها ، ولاحظت انها ما زالت مضطربة
البال فأرادت ان تصرف ذهنها الى شيء اخر فلم تر خيرا من ان توجه
التفاتا الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء
والمستنقعات فقالت لها : «تألمي يا بنية في هذه البساتين الواسعة وراء
سور المدينة فان نظرك لا يقف في اخرها الا على التلال البعيدة ، ولا سيما
هذا الجبل ، وهو جبل احد الذي جرت فيه الواقعة الشهيرة بين النبي
(صلعم) وقريش . وذكر هذه الواقعة يؤلمني لان الغلبة فيها كانت
للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا وأصيب النبي بجراح وقتل

• عمة حمزة •

قالت سمية : «و هل شهدت تلك الواقعة ؟»

قالت : «كلا ، فقد حدثت منذ سبعين سنة فكيف أشهدها ؟» • ثم عادت الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت : «واني ليعجبني مناظر المياه حوالي غروب الشمس ، انظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة الالامعة ، وظلال النخيل تترأى على شواطئها مقلوبة كأنها مرده من الجان غائصون في الماء» •

وكانت الشمس لما دنت من المغرب قد ارسلت أشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت ظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت بالظلام •

وأما سمية فكانت تسير عزة فيما تقول وبصرها شائع في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا أطلق سراحه يطلب النور • وكان سطح البحيرة بعد ان غابت الشمس ما زال يلعب بفعل انعكاس الشفق عليه ، وظلال النخيل فيه واضحة عليه وضوح الخطوط السود على الصفحة البيضاء • وبعد قليل لم يعد يظهر للرأى غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار •

★ ★ ★

اشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع ثم همت عزة بالطعام ودعت سمية الى مشاركتها فيه ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها فتاكل وعيناها شاخصتان الى تلك المناظر ، ثم عادت عزة الى محادثتها فقالت لها : «مالي اراك صامته يا سمية ، هل تفكرين في تأخر عودتك وتخافين ان ينقم عليك ابوك لهذا ؟» انه اذا علم انك عند عزة قلن يلومك» •

وتوقعت عزة ان تسمع من سمية جوابا ، ولكنها رأتها تحدد النظر في تلك البحيرة ، وأنست في وجهها بغتة وقد نوقت عن المضغ واللقة لا نزال في فمها ، وقطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة سؤالها ، فأجابتها سمية وهي تشير يدها الى البحيرة : «كأنني ارى النخيل تنتقل في الماء .. ما هذا ؟ ماذا ارى ؟»

فالتفت عزة الى جهة البحيرة فرأت ظلالا تتحرك في الماء بين ظلال النخيل ، ولكنها لم تر الاشباح على الجرف لان الظلام حجبها بينهما انعكاس الشفق على سطح الماء ابداهها فقالت : «انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة» . وتفرست عزة قليلا ثم قالت : «ان الذي نراه ظل شبحين أظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف ، لا بل هما جملان وعليهما رجلان . أليس كذلك ؟»

قالت سمية : «بلى ، هما جملان . وبخيل الي انها ماتيان علسي سطح الماء !»

فضحكت عزة وقالت : «انك ترين ظليهما يا بنية . وأرى الان شبحا ثالثا أظنه جملا ثالثا» . ولم يمض قليل حتى توارت الاشباح فقالت عزة : «لا تقلقي ، ليس ما ترين الا أناسا أظنهم قادمين الى المدينة من دمشق ، وما هذه اول مرة رأيت مثل هذا المنظر ، فعودي الى طعامك فقد برد الهواء وانقضت حياة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام أسمعك صوتا تلقنته عن أستاذتي رائقة» .

فعادتا الى الاكل وهما لا تتكلمان ، ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفت عزة فجاء رجل في نحو الستين من عمره ما زالت آثار الجمال باقية فيه ، وهو نظيف النوب حسن الهدام . فلما رأته سمية غطت وجهها ، فضحكت عزة وقالت : «أتحجبين من مخنت ؟» . ولم تكن سمية قد عرفت في الظلام .

وكان في المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، يخالطون النساء ، وأكثرهم يحبون الغناء ويحسنونه • وكان من اراد خطبة امرأة سأل عنها احد المخنثين فيصفها له ، ثم بتوسط بينه وبينها حتى يتزوجها • وكان اكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها ليسفيدوا منها تعلم الاصوات •

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت : «ما جاء بك يا طويس ؟»
فلما سمعت سمية اسم طويس قالت : «أطويس هذا ؟»
قالت : «هو بعينه . ولا تعجبي من انه جاء على غير موعد فان ذلك دأبه معنا» • ثم التفتت اليه وقالت : «يا طويس قل للجارية تضيء لنا الشموع فاننا سننزل بعد قليل» •
قال : «أفعل ذلك بشرط» •
قالت : «وما هو ؟»

قال : «تغنين لي شعرا على الهزج» •
قالت : «أطلب ان أغني لك الهزج وأنت أهرج الناس ؟ ألا سألتني ان أغني من الثقيل او الرمل ؟»
قال : «لا أبالي اي صوت وانما أقترح عليك شعرا تغنيه» •
قالت : «أفعل ان شاء الله . ولكنني اخاف من وجهك فانه متشوم» •
قال : «وأكثر من مشوم ، فان أُمِّي ولدتني ليلة قبض النبي (صلعم) • وفطمت ليلة مات ابو بكر ، وبلغت الحلم ليلة قتل عمر ، وزفت الى اهلي ليلة قتل عثمان ، وولد لي يوم قتل علي !»
فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له : «ارجو ألا يكمل شؤمك علينا الليلة ، فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك» •

نزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة المعدة لاستقبال الاضياف • وجلست عزة على مقعد ، والارض مفروشة

بالطنافس وحولها الوسائد وقد اوقدت فيها التسموع • وجلست سبية بجانبها وعادت الى هواجسها • وأما طويس فانه تناول دفا مربعا كان معلقا على الحائط بين طائفة من الاعواد والمزاهر والدفوف • ورماء في حجر عزة •

فقلت : «ويلك ! ماذا تريد؟»

قال : «بأبي انت وأمي • أريد ان اسمع غناءك» •

ذلت : «سهل يا طويس ريشا أستريح» •

وفيسا هي تكلمه سمعت هدير الجبال بقرب باب البستان فقالت :
«انظر يا طويس من جاءنا الليلة •• اني اخشى ان يكون شؤمك قد وصل الينا» •

قالت سبية : «وأي شؤم تخافين ونحن في أمان؟!»

قالت وقد خففت صوتها: «ما أظنتنا في أمان وأميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله (صلعم) • اذهب يا طويس وانظر من القادم» •

فهرول طويس الى نعليه ولبسهما • ومشى وهو يتظاهر بالمجون في مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب وأطل منها • فرأى جملين بجانبها رجلان : احدهما قد تلمم بالكوفية والتف بالعباءة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه ان يكون خادما • فقال لهما : «من اتما وماذا تريدان؟»

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال : «أليس هذا بيت عزة الميلاء؟»

قال : «بلى وماذا تريد منها؟»

قال : «أريد الدخول اليها» •

قال : «ومن انت ؟ ألا اتسبت؟»

قال : « لا أتسب » •

قال : « أتريد الدخول وأنت ملثم كما أرى ؟! »

قال : « نعم » •

قال : « دعني أستاذك لك » • وعاد طويس الى عزة وأخبرها بما رآه •
فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة : « دعيني أنصرف الى
ابي فقد طال مكثي عندك اليوم ، ولا سيما اني ارى رجلا قادمين اليك
ولا يليق بي البقاء معهم » •

قالت : « لك الخيار يا بنية ، ولكن اذا انصرفت فلا تطيلي الغياب ،
وليكن خروجك من الباب الخلفي للدار ، وذهابك من الطريق القريب
الذي تعرفينه » • فودعتها وانصرفت ، وجعل طويس يشيعها ببصره حتى
توارت عنه ، ثم التفت الى عزة وأشار بضم انامله وزم تسفيته الى انها
جميلة • فأومأت اليه ان يصمت ثم قالت : « اخرج الى الطارق واطلب اليه
ان يريك وجهه او يذكر لك اسمه » •

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : « ان صاحبنا
من اهل البادية ويهوى الغناء ، وقد جاء لسماع عزة الميلاء • وقد سألته
عن اسمه فأبى ان يخبرني به ، ولما ألصحت عليه قال انه لا يقول اسمه
ولكنه أنشدني هذين البيتين :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

« وطلب ان أخبرك انه قائلهما » •

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت ، ولولا ثقل بدنهما
نوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف • فقال لها طويس : « ما بغتك

يا عزة ؟ »

قالت : « ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟ »

قال : « كلا ... ومن هو ؟ »

قالت : « لو اني سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان في غير هذا الشعر . ألم تر انه يلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل اهل بهرا ؟ »

قال : « أظنني لحظت ذلك فيه ، ولكن ماذا في هذا ؟ »

قالت : « ويملك ! هذه ليلي الاخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهي تكسر حرف المضارعة في لفظها ايضا » .

قال طويس : « اذا كانت هذه هي ليلي فقد تم حظنا ، لاني أسمع بشعرها وحديثها مع توبة الذي كان يهواها ، فهل ادعوها ؟ »

قالت : « كيف لا وهي صديقتي ويندر ان تنزل الى المدن الا لحاجة ماسة لانها تقطن البادية » .

فأسرع طويس مهرولا حتى اتى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهي ملتفة بالعباءة وطولها يندر في النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لانها كانت ما زالت ملثمة فدخلت البستان وأشارت الى خادمها ان يدخل الجميلين الى الحظيرة ومشيت تخطر في مشيتها وطويس يمشي وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعا .

فلما اقبلت على القاعة نهضت عزة وسارت لاستقبالها عند الباب وهي تقول : « مرحبا بليلى ، اهلا بك يا حبيبة . لقد بالغت في الاختفاء حتى اسأنا معاملتك وأخرناك » . قالت ذلك وتناولت وسادة فوق البساط وثبتها وأجلستها عليها .

فقال ليلي بصوتها الجهوري الذي لا يكاد يشبه اصوات النساء : « لا بأس عليك ، وان لم يكن ذلك ذنبي لاني كنت أحسبك تعرفيني من

صوتي ولهجة كلامي» •

كان طويس واقفاً بالباب يتشوق لرؤية وجه ليلي ولكنها بقيت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجه لتخلو الى عزة ، فأدركت هذه ما في نفسها فقالت : «لا تحتجبي يا ليلي منه ، انه طويس المغني» •

فضحكت ليلي ونظرت الى طويس وأزاحت اللثام وهي تقول : «أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟ لقد تم سرورنا ببقياه !»

فلما أزاحت النقاب بان تحته وجه يتدفق مهابة وعينان دعجاوان ، وثغر حسن ، وآثار الصحة بادية في وجهها من سكنى البر • فدهش طويس من جمالها ، ولما رأى استئناسها به فرح وقال وهو يمشي نحو البساط الذي كانت هي جالسة عليه : «ان سروري تم ببقياك اينها الشاعرة الباردة • وقد كنت أعجب لما اسمعه من سُفْغ توبة بك واشادته في الاشعار بذكرك وأنت زوجة لسواه • فلما رأيت هذا الوجه علمت السر الذي دعاه الى ذلك» •

فلما سمعت ليلي اسم توبة علا وجهها الاحمرار وكأنها خجلت وطأطأت رأسها حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «وهل سمعت شيئاً من قوله ؟»

قال : «سمعت كثيراً ، ولكنني أذكر هذه الايات فقط :

ولو ان ليلي الاخيلية سلمت علي ودوني جنبدل وصفائح
لسلت تسليم البشاشة ، او رفا اليها صدى من جانب القبر صائح
وأعبط من ليلي بما لا اتاله الا كل ما قرن به العين صالح
ولم يتم كلامه حتى اصفر وجه ليلي • وأدركت عزة ذلك فيها فأجبت
الترفيه عنها فدعتها الى الطعام والفصل ، فشكرتها وذكرت انها لا تحتاج
الى شيء من ذلك ، وانما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب
بغنائها ثم تنصرف •

فقال عزرة : «لعلك قادمة من الشام ؟»
قالت : «نعم وقد وصلت الى المدينة الساعة ، وكان معي رفيق خلتيه
في مكان وجئت اليك على ان اعود اليه عاجلاً» .
فتذكرت عزرة الاشباح التي رأتها وسمية على شاطئ تلك البحيرة
فقالت : «أظنني رأيت أشباحكم عند الغروب بين النخيل» .
قالت : «كنا ثلاثة وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جمالنا» .

- ٣ -

حكاية ليلي مع توبة

فأيقنت عزرة انها هي التي كانت مع الركب ، وقالت تداعبها :
«أتحيين توبة ؟»
فقالت ليلي : «ماذا تعنين ؟»
قالت : «أعرف انك تحيين توبة ، وأسمع انه شاب جميل شجاع ،
وانه يجبك . فكيف تزوج غيرك وتزوجت انت غيره ؟»
فقالت ليلي وقد زاد احمرار وجهها : «دعينا يا عزرة من هذا
الحديث ، وأسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق» .
فلم تشأ عزرة ان تلج عليها ، ولكنها عمدت الى الحيلة فقالت :
«صدقت ان الذكرى تؤلم» . ثم التفتت الى طويس وقالت : «هات
الدف» .
فناولها طويس دفا فنقرت عليه وغنت :

وكت اذا ما جئت ليلي تبرقت فقد رابني منها الغداة سفورها
على دماء البدن ان كان بعلمها يرى لي ذنبا غير اني أزورها

ولم تتم هذين البيتين حتى تلملت ليلي وامتنع لونها وقالت : «ما
هذا يا عزة ؟ اراك تلحين لتعلمي سبب فراقني توبة» •
فضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول : «وما لهذا الشعر ولك ؟ هل
توبة قاله فيك ؟»

قالت : «أتجاهلين ؟ ما دمت مصرة على سماع حديثي مع توبة
فسأفصه عليك وان كان ذكره يؤلني • اعلمي يا اخية ان عاداتنا نحن
معاشر البدو غير عادات الحضرة اهل المدن أمثالكم • فان الرجل منكم اذا
احب فتاة تزوجها • وأحسن الزواج ما يكون على حب • وأما نحن فاذا
عرف اهل الفتاة ان شابا يحبها وتحبه منعوه منها ، وهذا ما وقع لي مع
توبة فانه كان يحبني ويقول في الشعر : فلما خطبني الى ابي ، رفض ان
يزوجني به ، وزوجني برجل من بني الادلع هو زوجي الى الان ، ولم
يكتفوا بذلك ولكنهم اهدروا دم توبة ومكثوا له في الموضع الذي يلقيني
فيه حتى اذا جاءني هموا بقتله • وكنت اذا جاءني قبل ذلك تبرقت
واحتجبت منه على عاداتنا • ففكرت في حيلة أحذره بها غدرهم بحيث
لا بشعرون ، فلم أر خيرا من ان أغير عادتي معه فلما جاءني في ذلك
اليوم خرجت اليه سافرة وجلست في طريقه • فلما رأني على تلك الحال
فطن لما اردت وركض فرسه فنجا ثم نظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريها

«ومنها البيتان اللذان غنيتهما • وهي طويلة» •



وكانت عزة قد سمعت القصة من قبل ، ولكنها ارادت ان يسمعها طويس . فلما فرغت ليلى من حديثها قالت عزة : «اني لم اكن أجهل حديثك هذا ولا غيره ، ولولا ذلك ما عرفتكم من البيتين اللذين بعثت بهما تعرفيني بنفسك . فبالله ألا ذكرت لي سبب قولك ذنك البيتين فانها يدلان على انفة تندران في المدن» .

قالت : «صدقت ، ان العفة والحب النقي انما يكونان في اهل البادية . وبنو عذرة اهل وادي القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مفصور عليهم وان كان غالبا فيهم . وقد قلت ان نوبة كان يحبني وأحبه ولم أسمع منه ما يدعو الى رية . ولكنني اجنعت به مرة بعد ان تزوجت وتزوج ، فقال لي كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الامر فقلت له :

ودي حاجة فلنا له لا نبج بها فليس اليها ما حييت سيبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه وأنت لأخرى صاحب وخلييل

«ذلّم أعد أسع منه رية فط» .

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقي ثم قال : «ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثي المدينة ، والله ان البداوة حلوة ولكنني لا احبها !» فقالت ليلى : «اذا شافك ذلك فعليك بوادي القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الامثال . وفيهم جميل بثينة ، وكثير عزة ، وغيرهما» .

فضحكت عزة ، ورأت الرجوع الى الغناء ، فأخذت فيه وهي تنقر الدف . فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت بالدف عودا عزفت عليه وغنت الحانا شجية ، وكانت ليلى في اثناء الغناء تطرق وتستغرق في التأمل ، كأنها تفكر في امر ذي بال ، فلما رأت عزة فرغت من غنائها

قالت لها : «لقد اطرقتنا يا عزة بفنائك وعندي امر احب ان أسره اليك
فهل تسحين بخلوة ؟»

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا وأغلق الباب وراءه .
واقتربت ليلى من عزة حتى جلست بجانبها وقالت بصوت يقرب ان
يكون همسا : «أتعرفين رملة بنت الزبير ؟»
قالت عزة : «كيف لا أعرفها وهي اخت عبد الله بن الزبير اللائد
بالحرمين وهو محصور في الكعبة الان» .
قالت : «محصور ؟ ومن حصره ؟»

قالت عزة : «انه اقام بالحرمين يدعو الناس الى البيعة له منذ توفي
معاوية ونولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو أمره الا بعد مقتل
الحسين وموت يزيد ، وهو الان ينكر الخلافة على عبد الملك بن مروان
خليفة بني أمية بدمشق» .

قالت ليلى : «أعلم ذلك ، وأعلم ايضا ان اهل الحجاز بايعوه ، وان
الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم» .
قالت : «ألم تسمعي بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي من الحجاز
بأمر عبد الملك لقتال عبد الله في مكة ؟»

قالت : «أظنني سمعت شيئا من ذلك قبل خروجي من الشام» .
قالت عزة : «وقد جاء الحجاج ، ولملك سمعت بشدة بطشه
واستبداده ، وفد حاصر عبد الله بن الزبير في مكة وضيق عليه . حتى
خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الان من قبل عبد الملك بن مروان» .
فاطرت ليلى وصست وكان خاطرا طراً عليها فأرجعها عما كانت تهم
به ، فأدركت عزة ذلك ففالت لها : «مالي اراك صامته ..؟ قولي ما في
نفسك» .

قالت : «جئت المدينة في مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن حال

أخيها يحول دون بلوغ الغرض من السؤال . هل هي معه في مكة ؟
 قالت : «نعم هي معه هناك ، وأظنهم في أشد الضيق من الحصار ،
 وقد قل زادهم ولا ندري ما يؤول اليه امرهم» .
 فتأقفت ليلي وتذمرت ثم جعلت تحك ما وراء أذنها وتنظر الى البساط
 بين يديها كأنها تنفرس في نقوشه وهي لا تتكلم .
 فقالت عزة : «قولي يا أخية ما في نفسك فقد اقلقت خاطري بسكوتك،
 ما الذي تريدينه من رملة وأخيها ؟»
 قالت : «لا اخفي عليك ان اميرا كبيرا من اكبر أمراء بني أمية ،
 اتدبني للبحث عن رملة واستطلاع احوالها ، لانه يريد خطبتها ، فلم
 اجد من يصف لي جمالها سواك لانك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟»
 قالت : «على الخير وقعت . اما رملة فانها من احسن النساء خلقا
 وعقلا ودراية . ولكنني أعجب لاقدام امير من بني أمية على خطبتها
 والحرب قائمة بين الامويين وأخيها» .
 فأمسكت ليلي عن الكلام قليلا ثم قالت : «اخشى ان أصرح
 بالامساء فأكون قد بحت بسر أوتمنت عليه» .
 قالت : «لا تخافي فاني مسنودع اسرار اهل المدينة . واني أعاهدك
 على كتمان ما تقولينه» .
 قالت : «ان الامير الذي يبغي خطبتها احسن امراء بني أمية علما
 وأدبا وشعرا وفصاحة وعارضة ، وله ولع خاص بعلم الكيمياء وهو ابن
 خليفة وحفيد خليفة» .
 فقطعت عزة كلامها قائلة : «قد عرفته، انه خالد بن يزيد . أليس هو ؟»
 قالت : «هو بعينه فما قولك ؟»
 فأطرقت عزة هنيئة ثم قالت : «قد ادركت سر الامر ، وعلمت السبب
 الذي سوغ لخالد خطبة رملة وهي من اعداء بني أمية وان كان

هو أموياً» •

فالت : «اما وقد فهمت سر الامر فاكتبه عن كل احد • وهذه هدية من خالد بعث بها اليك» • قالت ذلك ومدت يدها الى كمها وأخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعتة اليها • فتناولته عزة وأثنت على فضلها وقالت : «هل عزمت على خطبة رملة لخالد ، ومن يخطبها له ؟»

قالت : «ليس لي ان اصرح بأكثر مما قلت» • فقالت عزة : «ما السر عندي الا في بئر عسيقة ، فطيبي نفسا وقرى عينا» •

ثم تحفرت ليلي للقيام فأمسكتها عزة ودعنها الى البقاء عندها • فاعتذرت بأن هناك من ينتظرها في الخارج ، ولا بد لها من موافاته لامر لا يحسن تأجيله • ثم خرجت ، فمرت على طويس في البستان فودعته قبل انصرافها •

* * *

كانت ليلي الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تفد على الملوك والامراء تسدحهم وتنال منهم الرعاية والجوائز • وكانت قد وفدت على عبد الملك بن مروان في ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت الى خالد فمهد اليها في البحث عن رملة واستضافها من عزة • وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن كان في جملة من جاء الشام مع عبد الملك بن مروان عند عودته من العراق بعد مقتل صعب بن الزبير واخراج العراق من سلطة اخيه •

وكان حسن من رجال مصعب الداعين الى بيعه اخيه في العراق وحارب معه في قتاله المختار بن عبيد الثقفي فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب • فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع

حسن عنه جهده حتى قُتل ووقع هو في أسر عبد الملك ورافقه الى الشام .
فلقي هناك خالدًا فأحبه هذا وجعله من بطائه . وكان يثق به ويوح له
بما في نفسه على عبد الملك لانه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لانه
ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين أمه وأم عبد الملك حكاية سيّاسي
ذكرها .

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير ، وأراد خطبتها . فلما جاءته
ليلي سأها عنها فذكرت له انها لم ترها ، فكلّفها ان تستفهم عنها عزة
الملاء في المدينة ، وكتب الى اخيها عبد الله الزبير يخطبها منه ، وسلم
الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلي وأوشاه اذا أمرته ليلي بالذهاب الى
مكة ان يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبدل جهده في
اقتناعه ، وكان حسن يحب خالدًا حبًا شديدًا فعزم على ان يبذل ما في
وسعه لتنفيذ مرامه ، وكان له في المدينة وطريقين الى فضائه فأسرع مع
ليلي حتى وصلا الى المدينة مساء ذلك اليوم ، فخرج هو الى منزل يمكث
فيه ريثما تعود ليلي .

اما ليلي فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم ان يذهب بالجمال الى
منزل سكيّنة بنت الحسين ، على ان توافيه الى هناك . وسارت لمقابلة
حسن في الملتقى . فلقيته في انتظارها على مثل الجمر فأخبرته بما دار
بينها وبين عزة وأوعزت اليه ان يسافر الى مكة في المهمة التي جاء من
اجلها ودعت له بالتوفيق .

- ٤ -

حسن وسمية

ولما خلا حسن الى نفسه ، عاوده ما كان يتقد في قلبه من الوجد .

وكان يجب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها وأباها من الموت في العراق في اثناء القتال ضد المختار بن عبيد ، وقد تعاهدا على الزواج ، وهو يعلم انها تقيم بالمدينة ولكنه لم يكن يعرف منزلها ، فرأى ان يسأل عزة في امرها بوصفها أخبر اهل المدينة بنسائها • فسار توا الى عزة وكانت لا تزال جالسة وقد خرج طويس من عندها •

وكان حسن طويل القامة ، حسن الخلقة ، في وجهه دلائل المروءة وصدق المودة ، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة • فلما أفبل على عزة استقبلته باثة • وكانت قد تعودت كثرة الوافدين عليها من سائر البلاد • على انها استغربت قدومه اليها في اخر الليل •

واعترض حسن عن ذلك فقال : «اني قادم اليك في امر أقلقني وحرمني المنام وليس لي من يفرج كربى سواك» •
قالت : «قل ما بدا لك» •

قال : «اني احب فتاة من اهل المدينة ولكنني لا أعرف منزلها ولا ادري أمقيمة هي هنا ام سافرت الى بلد اخر ؟»
قالت : «ما اسمها ؟»

قال : «اسمها سمية بنت عرفجة الثقفي» •
فبهتت عزة عند سماعها الاسم ، وجعلت تنفرس في وجهه كأنها تستطلع حقيقته ، ثم قالت : «من اين عرفتها وكيف احبتها وأنت بعيد عن المدينة ؟»

قال : «قولي لي اولاً أهى في المدينة ؟ وهل تعرفينها جيداً ؟»
قالت : «أعرفها كما اعرف نفسي ، وهى مقيمة هنا وكانت عندي هذا المساء ، فقل لي اين وكيف عرفتها ؟»

قال : «كنت من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لقتال المختار بن عبيد الثقفي • وكان المختار بعد قتل الحسين قد قام

يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائد بالحرم الان . فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمعونة النوايين وهم اهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته فلما قتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه» •

قالت : «نعم أذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعه محمد بن الحنفية اخي الحسين من ابيه ، وليس لعبد الله بن الزبير» •

قال : «انه كان يدعو الى البيعة لعبد الله اول الامر ، فلما فاز في حروبه طمع في الخلافة لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية • ولا أشك في ان محمدا لم يكلفه بذلك لانه زعم اشياء لا يرضى بها محمد» • قالت : «أظنك تعني الكرسي الذي زعم انه كرسي علي ، وصار يحمله معه في حربه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه» •

قال : «نعم ، ولكنه لم يفلح لان عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله ارسل اخاه مصعبا في جند كبير فقتلوه وسمروا يده في مسجد الكوفة ، وكنت انا في جملة رجال مصعب • ففي يوم المعركة بعد ان تم لنا النصر وأمعنا في رجال المختار قتلا ونهبا • لقيت عرفة أبا سية طريقا على الارض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها ، فتحرك فلبى نحوها تحركا غريبا ، وسمعتها تستنجدني لانقاذ ابيها من القتل ، فصحت في الرجال فأبعدتهم عنه وأوصلته الى مأمنه فقبل يدي وشكرني ذاكرا انه لا يقدر على مكافأتي • فقلت له : (لا ألتبس منك الا ان تزوجني ابتك هذه) • فقال : (هي جاريتك بين يديك) • فتواعدنا على ان آتي المدينة وأنزوجها • وأتممت امر انقاذه فأخرجتهما من الكوفة وبعث معهما من أوصلهما الى هنا ، وبقيت انا هناك وشغلت بأمر كثيرة لا محل لذكرها فلم استطع

• المحيي الا اليوم •



كان حسن يتكلم وعزة تتناول بعنقها لسماع بقية الحديث • فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة : «لعلك حسن ؟»

فبهت وقال : «نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟»

قالت : «عرفته منها ، وانني أهنتك بسمية فانها زينة فتيات المدينة وليس احد يعرف مكنون قلبها غيري • وقد طالما ذكرت اسمك لي ، وأطلعني على خصالك وأنتت على مروءتك • فثقت بأنها ما زالت على ودك، ولو انك جئنا قبل ساعة لوجدتها هنا» •

قال : «وهل من سبيل الى رؤيتها ولك علي ما يرضيك ؟»

فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : «لم يكن أهون من ذلك علي لولا ان أباهما ضنين بها ، لا يآذن في خروجها من البيت ، الا نادرا ، وهي انسا تجيئني خلصة في اكثر الاحيان • ولا شك في انه اذا عرف انها جاءتني لمثل ما تريده انت فانه يغضب وربما اساءها وأساءني ، ولاسيما انه ذو نفوذ لدى امير هذه المدينة ، ففي استطاعته ان يتهمني عنده بما ينقص علي عيشي» •

فلبث حسن مدة يفكر في امره ، وقد اقتنع بالمشقة التي تحول دون مجيء سمية ، لكنه ما لبث لعظم شوقه ان استسهل كل عسير ، ورأى ان يصبر الى صباح الغد ثم يذهب لزيارة ابي سمية • فنهض مودعا عزة بعد ان استدل منها على بيت عرفة ، فدلته عليه وودعته معتذرة من عدم استطاعتها اجابة رغبته في رؤية سمية •

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر ، ثم أفاق قبل الفجر وأخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفة وقد اشتد هيامه وخفق قلبه وهو يفكر

في لقيائها ، وشق عليه انه لا يستطيع مخاطبتها امام ايها لكي يثما شوقه
وهيامه ، فملل نفسه بما قد يأتي به القدر من سوائج القرص ، وخرج
والشس قد أطلت من وراء المنازل ؛ والناس يذهبون ويجيئون فسي
الطرق وهو لاه عنهم بما قام في خاطره من امر اللقاء المنتظر بعد الغياب
الطويل •

وكان بيت عرفة بالقرب من بيت سكيئة بنت الحسين ، وهو أضيق
مساحة وأقل فخامة ، فلما وصل الى بابه رآه مفتوحا فدخل ولم يقرع
الباب ولم يتكلم ، فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف ، وفي بعض
جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء احمر زاه وليس على
رأسها نقاب ، وقد جلست امام النخلة وأسندت ظهرها اليها ووجهها الى
جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل • ومع انه لم ير من وجهها
الا صفحة خدها وجانبها من عينها فوجها فانه ادرك انها سية • فقدم على
دخوله بعتة واستنكف ان ينظر اليها او يدخل بلا استئذان • ولكن
الشوق اعمى بصيرته فوقف مبهوتا وقلبه يخفق ، والشوق يدفعه الى
رؤيتها ، والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب •

ثم غلب عليه الحياء وخاف ان يقع نظرها عليه فتعجل وربما اصابها
سوء من تأثير البعتة ، فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد
كانت معلقة في خوخته ولبث ينتظر من يدعوه الى الدخول او من يأتي
لاستقباله • ثم سمع وقع أقدام في الباحة فعلم ان سمية تمشي السى
احدى الغرف للاستتار • وظل واقفا مدة فلم يأت احد فأعاد القرع مثنى
وثلاث • وبعد هنيهة سمع وقع أقدام قادمة نحو الباب عرف من شدتها
وسرعتها انها أقدام رجل • ثم جاءه رجل في نحو الخمسين من عمره
قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه ، وهو أشمط شعر
اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وعلى كفيه مطرف التف

به ، وكان خديه حفرتان ، ووجتيه أكستان ، وأنه كتلة بارزة في منتصف وجهه ، وله عينان غائرتان . ولو نفرس فيه حسن لتبين من اخلاج أجفانه وعدم استقرار نظره انه من اهل الرياء والخبث .

فلما وقع نظر حسن على الرجل عرف انه عرفة ابو خطيبته . فحش له وهو يتوقع ان يعرفه ويرحب به اما عرفة فلب برهة بنظر الى وجه حسن وهو بتجاهله . فضحك حسن وتقدم وألقى التحية . فرد عرفة التحية دون ان يبدو على وجهه ما يدل على انه عرفه ، ثم سئل كأنه بنه اهل بيته الى قادم غريب ، فقال له حسن : «أظنك لم تعرفني يا عاه ؟» فلما سمع عرفة كلامه تكلف الابتسام وألقى نفسه عليه وجعل يفبله ويرحب به ويقول : «اهلا بك يا بني : انت حسن ؟ من اين اتيت ؟» . وأمسكه بيده ودخل به الى الدار وسار نوا الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين . فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد ان كاد يتسبب غنظا مخافة ان يعود من سفرته بخفي حنين . وابتدره عرفة بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه ، وسأله اذا كان في حاجة الى طعام . فاعتذر شاكرا . وأخبره بأنه قدم المدينة للقيام . فجعل عرفة يتملقه بالكلام اللطيف ليسطاع ما في قلبه . فاطمأن اليه حسن وأطلعه على تددة شوقه الى سبية . وكان يخاطبه ويراقب ما يبدو منه من استحسن او استهجان . فلم يجد الا انعطافا وترحابا . وعلم منه ان سبية في خير ، وانها ما زالت تذكر فضله عليها ، فازداد حسن استئناسا وتوقع منه ان يدعو سمية لتراه . فلما لم يدعها فطنه أجل ذلك الى ما بعد الاستراحة . واستغرقا في الحديث في شؤون مختلفة حتى ذكر حسن انه جاء المدينة في مهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير بسكة . ثم قال : «الم يئن لي ان ابلي امنيتي التي منيت بها منذ أعوام ؟»

فتجاهل عرفة وقال : «وما هي يا بني ؟»

قال : «الزواج من سبية .. خطيبتى» .

قال : «هى جاريتك وطوع ارادتك . ولكنك ذاهب الى مكة كما تقول . فيحسن ارجاء الامر حتى تعود ، ولايسا ان سبية ليست هنا الان . وسأخبرها بقدومك متى عادت» . ولا أشك انها سنسر بلقياك ؛ فاذهب الان في مهتك . ومتى عدت نعقد فرانكنا يادن الله» .

فعجب حسن لانكار عرفة وجود سبة في المنزل . ولكنه المس له عذرا وشكر الله على انه رآها خلصة . على انه كان يوقع وهو يخاطب عرفة ان يسع خطوات سبية او يلصح طرف ثوبها وهي مارة او يسع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجوارى يخطر في السدار لقضاء بعض حاجات المنزل .

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفة الى الكلام فقال : «متى تعتزم المسير الى مكة يا بني؟»

قال : «في القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة» .
قال : «وهذا ما اراه ، فان سرعه ذهابك يقرب يوم زواجك فنفرح بك وتشرف بصاهرتك» .

فسر حسن بما سمع ولم يفقه ما كان يبدو في عيني عرفة وفسي حركاته من دلائل الخبث والعدو - ولم يكن ذلك سداجة فيه ولكنه كان سليم القلب صادق النية كبير النفس ، يعتقد ان الناس كلهم منله - هذا الى ان عرفة كان مدينا له بانقاذه من القتل . وقد رحب بمصاهرته اولا وآخرا . وهكذا اقتنع بسا سمع منه فقال : «ارى ان اخرج مسن المدينة الليلة» .

قال : «وهل تعرف الطريق ؟ ومن اي باب تخرج ؟»

قال : «نعم يا مولاي اني خارج من الباب المطل على قباء» .
قال : «اجعل خروجك عند الغروب من الباب المؤدي الى مكة ، فانه

اسهل مسلكا ، ولكنني اخاف عليك من برد الليل فهل احتطت لذلك ؟

قال : «عندي عباءة ألتف بها اذا برد الليل» .

قال وهو يتسهم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه : «لا ارى ان تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة . ومن كان مثلك من ذوي الوجاهة لا يليق ان يمر في الاسواق ملتفا بعباءة ، فاسمح لي ان اقدم اليك قباء يليق ببقامك» . قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال : «هات القباء الاخضر المعلق في الحجرة» .

فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف ، فتناوله عرفجة ودفعه الى حسن وقال له : «اليك هذا القباء فالبسبه وأنت خارج على نافتك في هذا المساء فانه أوقى لك من البرد» .

فتناول حسن القباء شاكرا ، مع انه لا يرى حاجة اليه . اذ لم ير من اللياقة ان يردده . وازداد ثقة في عرفجة وحسن قصده . ولحظ في حركاته ميلا الى فض الاجتماع ، فنهض وقبل يده مودعا . وخرج وقلبه ما زال في تلك الدار . وقد شق عليه ان يخرج منها دون ان يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه باللقاء القريب بعد رجوعه من مكة ، وسار توا الى السوق ليتتاع بعض النبال استعدادا لعاديات الطريق ولكنه لم يكن يعرف اين يبيعون النبال فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلنقط نوى التمر ويضعه فيها . وهي أحقر مهن اهل المدينة . فناداه حسن وسأله : «ألا تعرف رجلا يبري النبال قريبا من هنا ؟»

قال : «أعرف كثيرين ، هل تريد النبال المريشة او النبي بلا ريش ؟»

قال : «انني أفضل المريش منها» .

قال : «تعال معي فأدلك على احسن من يبريها في هذه المدينة» .



سار حسن في أثر الغلام حتى انتهى به الى الطرف الاخر من المدينة، ووقف به عند حانوت امامه دكة ، وفي صدر الحانوت رجل من اهل يثرب بين يديه القسي والنبال ، وفيها المبري بعضها من الخشب والبعض الاخر من القنا ونحوه . فدفع الى الغلام درهما وصرفه ، ودخل الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه انه من اهل الشام فرحب به وأجلسه على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبه وأخذ يقلب السهام ، وفيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الايسن او الايسر . وجعل يتبقي ما يريده منها ثم قال للرجل : «هل اجد عندك جعبة للنبال ؟»

قال : «لا يا مولاي ، اني لا اصنع الا النبال ، ولكن جاري جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد او من الخشب على أشكال مختلفة ، فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها» .

فقال : «اذهب اليه بعد الفراغ من اتقاء النبال» . ثم اتقي ما احتاج اليه منها ودفع الثمن ، وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد سى القباء عند النبال ، وسار النبال يسير امامه حتى أوصله الى حانوت واسع فيه جلود وأخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت . فرأى الجعاب يخاطب شابا يظهر من لباسه انه من اهل الوجاهة وهو يساومه على جعبة اراد ابتياعها ، فوقف حسن ينتظر الانتهاء من تلك الصفقة ، وقد استأنس برؤية ذلك الشاب وتذكر انه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه ، وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره والشاب مشغل بالمساومة ، ثم التفت الشاب الى حسن فلما وقع بصره عليه بفت وتفرس في سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح : «حسن ؟» . قال : «نعم ، وأنت .. سليمان ؟»

وتعانقا ، ثم جلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيّا

الجباب وصاحبها ، فقال سليمان : «من اين انت قادم يا اخي ، ومنى قدمت ؟»

قال : «اني قادم من دمشق وقد وصلت الى المدينة مساء امس» .
قال : «وهل تنوي الاقامة هنا ؟»

قال : «كلا ، اني عازم على السفر الليلة» .

قال : «لا . لا . اني مشناق الى رؤيتك ، وقد مضى علي بضعة سنوات وأنا أفكر فيك وأتذكر اياما قضيناها في الكوفة معا ، وقد كانت اياما سعيدة رغم ما شهدناه فيها من القتال» .

قال حسن : «لا ريب انها كانت سعيدة لكم لانكم فرتم بالامر الذي قسم له وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة . أظنك لم تنس عبيد الله ابن زياد وهو مضرج بدمه في ساحة الحرب» .

قال : «وهل اقدر على نسيان ذلك . اني أتذكره كلما شممت رائحة المسك ، لاني حين تهدت جثة عبيد الله في الوقعة شممت رائحة المسك قوية ، اذ كان كثير التضمخ بالمسك . ولكنني لم افرح بمقتل ابن زياد فرحي بمقتل ذلك الابرص الذي قطع رأس الحسين بيده» .

قال حسن : «أظنك تعني شمر بن ذي الجوشن قبحه الله ؟»

قال : «اياه أعني . . فقد رأيت هذا الخبيث في معركة اخرى مننولاً وعليه بردة ، وقد عرفته من بياض برصه» .

فقال حسن : «انها لذكرى حسنة ، ولكننا لا نستطيع الخوض في هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق» .

قال سليمان : «هلم الى مكان لتقضي فيه بقية هذا اليوم ، فاني احسبه من أسعد ايامي ، لانه يذكرني بأيام النصر وان كنا الان في» . .
وقطع كلامه لئلا يسمعه احد .

ثم نهضا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل

بصديقه عن تذكر القباء وهو لم يتعود حملة •

* * *

كان سليمان هذا صديقا لحسن تعارفا منذ الصبا • وكان مقيما مع
ابيه بالكوفة مع دعاة الحسين • فلما قدم الحسين الكوفة في اهله كان
هو وأبوه من الذين تخلفوا عن نصرته • ولما قتل الحسين في مهمل
كربلاء وقتل اهله معه اصبح سليمان وأبوه من النوايين الذين ندموا على
تخلفهم عن نصره الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ، فلما جاء
المختار بن ابي عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعه عبد الله بن
الزبير ، انضم النوايون اليه فقتلوا قتلة الحسين • ثم طمع المختار في
الامر وأرسل عبد الله بن الزبير اخاه مصعبا لمحاربته ، وكان حسن مع
مصعب فلما غلب مصعب المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانهاز بعضهم الى
مصعب ومنهم سليمان وأبوه ، وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان • وكان
سليمان يعجب بأخلاق حسن • فلما جاء عبد الملك بن مروان وحارب
مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله ، سار حسن مع عبد الملك ، وجاء
سليمان وأبوه الى المدينة فأقاما بها •

فلما تلاقيا بالمدينة على هذه الصورة أنس به سليمان وأحب البقاء
معه • فدعاه الى منزله وقال له : «ان ابي يسر بلياك» • فتذكر حسن
ابا سليمان فقال : «فاتني ان اسأل عن ابيك كيف هو وما الذي يعمل
الآن ؟ »

قال : «انه في خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك
ابن مروان» •

قال : «وهل هو يخدمه عن رضى ؟»

قال : « اراه راضيا بخدمته ، وكثيرا ما اظهرت عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا الحسين . وكنا بالاس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين ، ولكنني رأيته راضيا فسكت عنه . ولعل له عذرا » .

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ، ولم يكن ابوه في البيت فمكثا هناك وتناولوا الغداء معا وقد سر كل منهما بقاء صديقه ، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهاب لوداع ليلي الاخيلية في بيت سكيته بنت الحسين ، وهو انما كان يرجو ان يستطيع مشاهدة سمية لان بيتها بجانب بيت سكيته .

فألح عليه سليمان ان يؤجل سفره الى الغد ، ولكنه اعذر شاكرا ، فقال سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فاني أرافقك في أوائل الطريق لانك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله . فاذا رضيت برفقتي فاني أصاحبك الى العقيق فنسكت هناك ساعة أتسلى من حديثك ثم نفرق » .

قال حسن : « كيف لا ارضى بذلك وفيه راحتي وحسن حظي » .

قال : « اين نلتقي ؟ »

قال حسن : « نلتقي بباب المدينة المؤدي الى مكة ونخرج من

هناك معا » .

قال : « وهل تعرف الطريق الى الباب ؟ »

قال : « نعم أعرفه فانه على مقربة من حانوت النبال الذي اشتريت هذه

النبال منه اليوم » .

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال : « لقد نسيت عنده القباء ،

وأخاف اذا اردت الذهاب اليه ان تفوت الفرصة لمشاهدة ليلي » .

فابتدره سليمان قائلا : « دع هذا لي ، فأنا أمر بالنبال وأخذ القباء

منه وأحفظه لك الى الملتقى» .

فشكره حسن وودعه ، وخرجا فصار كل في طريقه .

* * *

موكانت سمية جالسة في ساحة بيتها حين قرع حسن الباب ، فدخل قلبها وحدثتها نفسها بأن الطارق حبيبها ، تم استبعدت ذلك ، فعاودها الحزن ، ونهضت لكي يستجب عن الطارق ، فانزوت في اقرب غرفة الى الباب وفي نفسها ميل الى معرفة الطارق ، لان طريقة دقة الباب لم تكن تشبه دقات زوارهم المعروفين . وكثيرا ما تدل الدقة على صاحبها ويعلم اهل البيت من هو صديقهم من قرعه الباب . هذا الى ان عرفة كان من اكثر الآباء تضييقا على بناتهم في امر الحجاب . فكان ذلك يدعو سمية الى التطلع الى القادمين من سقوف النوافذ او ثقب الابواب .

واتفق في ذلك الصباح انه لم يكن في البيت احد من الرجال غير عرفة وكان مشغولا في حجرة خاصة لا يدخلها احد غيره ، وفيها مخفة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه . فاذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ولا يدري اهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضي فيها ساعة او بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه . وكثيرا ما احبت سمية استطلاع امر تلك المخفة ومشاهدة ما في داخلها فلم توفى الى ذلك ، لان المخفة من خشب متين لا منافذ البصر فيه . فلما قرع حسن الباب كان عرفة هناك فأبطأ في فتح الباب كما تقدم . ثم سمعته بعد ان فتحه وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، وكانت تنظر من ثقب في باب غرفتها يطل على حجرة ابيها فوقع بصرها على حسن وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة ، وهي اول مرة رآته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ، فلم تكذب تحققة حتى شعرت بهزة

قوية وخفق قلبها خفوقا شديدا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فنفرست فيه جيدا فإذا هو حسن بعينه ، ورأت أباهما يخاطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشاراته وملامحه لانها لم تكن تفهم الكلام بعد المسافة ، ثم دخلا وأقفلا الباب . فأرسلت جارية لها تتسمع حديثهما وتعود اليها بما سمعته . والجواري اكثر الناس رغبة في نقل الاحاديث وبخاصة اذا كانت من هذا القبيل . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان او الباحة فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها وتعود الى سمية به . فأطلعت سمية بذلك على ما دار بينهما حرفيا . وساءها رفض ايها ان يجمعها بحسن ولو من وراء حجاب ، ولكنها سرت برؤيته واطمأنت الى انه ما زال على حبه . ولما اخبرتها الجارية انه جاء يطلبها من ايها زاد اضطرابها وأصطكت ركبتيها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها على شق الباب . على انها ما لبثت ان علمت انه غير الحديث واعتزم الخروج من المدينة في تلك الليلة ، وان أباهما حب اليه الاسراع في ذلك وأعطاه القباء . فاستغربت اعطاءه اياه ، مع ما تعلم من بخله . على ان ذلك أكد لها رضاه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة .

فلما خرج حسن وتبعه عرفة لوداعه ، طارت عيناها شعاعا الى حسن ، ولكنه ما لبث ان غاب عن مدى بصرها من ذلك الثقب . فلما رأت أباهما راجعا خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاهما من عظم التأثر وبانت دلائل الحب في وجهها . فلما رآها عرفة في تلك الحال انقبضت نفسه وتظاهر بأنه في شغل عن الحديث معها .

ولكنها لم تصبر على استطلاع افكاره وأمسكت عن الكلام تهيبا لانها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه وقد قاست منه الامور الصعاب ، على

انها كانت تحسن الظن به فتحولت الى حجرتها وهي منقبضة النفس ودخل عرفة حجرة اخرى وقد لاحظ ما في نفس ابنته ولم يفته اطلاعا على ما دار بينه وبين حسن . فبعث اليها فجاءت وليس في المكمان سواهما فوقت وقلبا يخفق وهي لا تستطيع التطلع الى ايها ولا تدري ما يريد منها . فأشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منه وهي تشاغل بسدابة اطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شعرها عادة في طمرة اشتهرت في المدينة يومئذ بالطرة السكينة نسبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من ضفرها على تلك الصورة .

لبت سمية برهة هكذا ، وأبوها ينظر اليها ويتأمل في حركاتها فلم يردد الا وثوقا بنعلتها بذلك الشاب وهو لا يجب ان يتقرب منه ، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صراحة . على انه كثيرا ما حاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل . وكان قد ظن حسنا مات او قتل لغيابه عن المدينة ، او عدل عنها واشتغل بغيرها . فلما رآه في ذلك الصباح وتحقق انه ما زال حيا بنت واستعاذ بالله ، ولكنه عد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه وأظهر له ما أظهره من اللطف والانس على امل ان يفتك به غيلة . فلما رأى اضطراب سمية قال لها : «اراك مضطربة ، فما الذي دعاك الى هذا ؟»

قالت وهي لا تزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره :
«وأي اضطراب تعني ؟»

قال : «أعني ما يبدو في وجهك من الاحمرار على أثر الاصفرار وكأنني أسمع دقات قلبك . فما هذا ؟» قال ذلك بنعمة رقيقة رفقا بها واجتياالا في استطلاع سرها ، وقد كان يجب رضائها ولكنه لا يريد ان تعمل عملا تستقل به عنه . وكان اهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها ، وكان هو يريد ان يتجر بذلك الجمال فيزوجها بحاكم او امير

فيكتسب بزواجها منصبا او مالا . وكانت له مطالب اخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس اذ ليس في البشر من لا يحب ذاته ويؤثرها على غيره من الناس ، اما اذا صحبه خبث النية وسوء الخلق فانه يكون وبالا على الناس ، لان صاحبه لا يبالي ما قد يضحيه من الانقس او الاعراض في سبيل نيل أغراضه . وكان عرفجة ذا مطامع لا حد لها وكان ذلك شأن كثيرين في ذلك العهد على أثر تزعزع أركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك ، وذلك يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية ، وآخر الى بيعة عبد الله بن الزبير ، فضلا عن دعاة آخرين في البلاد الاخرى . فأصبح الامر فوضى وربسا خطر لعرفجة ان يدعو الى احد هؤلاء او غيرهم ، ولو أتيح له ان يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع في ذلك وهو من ثقيف وهم غير أكفاء للقرشيين . وكان الحجاج والمختار بن ابي عبيد ثقفين ايضا ، فلما اراد المختار ان يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا .

* * *

لما سمعت سمية سؤال اييها ولم تر فيه نعمة الجفاء اجابت وهي تكاد تذوب خجلا : «اتسألني يا سيدي عما انت أعلم الناس به ؟» فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : «أظنك تجبين هذا الشاب ؟» قالت : «لا اقول اني احبه ولكنني أعلم فضله علينا لانه انقذنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به أفلا نفى بالوعد ؟» وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهي تنظر في وجه اييها متوقعة ان

يكون جوابه الازعان الصريح . ولكنها رأته ابتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه ، وأخذ يلاعب طرف لحيته بأنامله وهو يقول : « ما شاء الله ! وأي فضل تعنين يا سمية ؟ »

قالت : « ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن في الكوفة . أئسم اخرج اليه محلولة الشعر وأطلب نجاتك فأسرع لانقاذك ؟ ولا اراك تنكر ذلك عليه الى الان » . قالت ذلك وهي تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحته وبان الشر في عينيه وكان يده مفتاح الحجرة فرمى به الى الارض من شدة الغيظ وقال : « لا اقدر على سماع هذا الكلام . ان الذي يدعي علينا مثل هذا الفضل يجب ان يسوت » .

فلما سمعت سمية كلامه اقشعر بدننها وامتقع لونها ، ونظرت الى ايهاا والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه ولا تصدق انه يعني ما يقول . ولكنها ما لبثت ان رأته نهض وجعل يتسنى في ارض الحجرة ولحيته ترقص امام عنقه وعيناه محمقتان وأنامله ترتجف . فتهيت وأطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وبقيت هادئة لا تحرك ساكنا ولسان حالها يقول : « ويلك يا ظالم » .

اما هو فبعد ان تمشى هنيهة عاد فوقف امامها وقال لها : « لو كنت تحبين اباك . ما رضيت ان يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام مئة علينا ؟ وتقولين ذلك جهارا ؟ لا شك انك تحبينه اكثر مما تحبينني ؟ »

فقالت والبكاء يخفق صوتها : « كيف تقول ذلك يا أبتاه ، وأنت تعلم قلبي وتعلم اني لا احب احدا سواك . وأما هذا الشاب فان له علينا فضلا لا ينكر . هل نسيت الخطر الذي كنا فيه وكيف انقذنا وعنسي بارسالنا الى هنا ؟ ثم انك انت الذي وعدته بي ، فاذا كنت احبه فانما

انت الذي دعوتني الى ذلك و ...»

فقطع عرقه كلامها وقال : «أبلغت بك القحة الى ان تقولي لي انك تحبني وتعيدي ذكر جميله . ان ذكر هذا الجميل وحده يدعو الى قتله ! »

فاضطربت سية ، وجثت عند قدمي ايها والدمع يساقط من خديها ويسترج بالعرق المتصب من جبينها وقالت : «رحمك يا سيدي ، بالله لا تذكر القتل . دعه لا تقتله ولا تزوجني به .. فأنا لا اخرج عن طاعتك في امر من الامور . لا تذكر القتل لانه يقطع قلبي . افعل بي ما تشاء فاني طوع لك . اشفق علي وارحمني» .

فلما سمع تذللها ظنهما ارعوت عن محبة حسن ، فامسكها وأنفضها ومسح دموعها وقال لها : «خففي عنك يا بنية وكوني حكيمة عاقلة ، وابذني امر هذا الغلام وارجمي الى اييك ، واعلمي اني لا أفعل الا ما فيه سعادتك» .

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فأتكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لأمره واستسلمت له ، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : «يظهر انك كنت في جهالة عمياء . والحمد لله على انك ادركت ما أنويه لك . كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على اييك ؟ . أليس ذلك منتهى الذل والضعف ؟ . كيف أقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفي الدنيا رجل يقول انه انقذني من الموت وله علي فضل ؟»

فظلت سمية صامته مخافة ان يعود ابوها الى ذكر القتل ، ولكنها استغربت استنكافه الاقرار بالفضل لاهله . وقد فاتها ان من الناس من يعتمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لان نصورهم فضلهم يهيج جسداهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وأمثال هؤلاء

قليلون والحمد لله - وكان عرفة واحدا منهم - وتلك غاية الدناءة
والخسة •

ولم تر سمية خيرا من السكوت ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من
عواطفها بل لعله زادها تعلقا بحسن ، وتعلق ذهنها بالسعي في تحذيره •
وكانت تفكر في ذلك وهي متكئة على صدر ايها وقد بللت قميصه
بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : «قومي يا سمية وارجعي الى رشذك
فاني سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الان لتعلمي اني انما
أسأتك بأقوالي لاحسن اليك بأفعالي» •

فنهضت ومشت وهي صامئة تسمح عينها بكمها حتى اتت حجرتها
فدخلت وأقفلت الباب ثم استلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك
المحيط بها والخطر الذي يهدد خطيئها فأظلمت الدنيا في عينها وأطلقت
لدمعها العنان ، ثم استرجعت رشدها وفكرت في امرها وأمر ايها وما
تمرضت له بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة : «كيف تعلق
بهذا الرجل الغريب وفي تعلقني به خطر على حياتي وحياته ؟ أليس هذا
ابي الذي رباني وكفلني ولا يريد لي الا الخير والسعادة ؟ كيف أعصاه
وأطيع هواي ؟ أليس من التعقل ان أنصاع لرأيه ؟ اما حسن فماذا
يربطني به ؟ الحب ؟ وما معنى الحب ؟ ان هذا الحب سبب عذابسي
وعذاب ابي وعذاب حبيبي • لا • ان عذابه عذب • آه ما احلى الحب
وما اشرف عواطف المحبين •• كيف يعيش الناس بدون الحب وما
الفائدة من الحياة بلا محبة ؟ اني لا ارى في العيش لذة الا حين أفكر
فسي حسن • آه ما ألطف هذا الاسم • ولكن
كثيرا ما كنت أسمع قبل ان اعرف الحب فلا ألتذ لفظه كما ألتذ الان •
فانا انما ألتذ بالحب • آه ما احلاه وما احلى لفظه بفمي وذكره بفكري
وما احلى صورته في عيني !»

ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهي تفكر في ايها وقالت :
«ولكن ابي رباني بعد وفاة امي وبقي وحده لم يتزوج من اجلي وهو
يحبني ويريد سعادتي فكيف أغضبه؟»

ثم قالت : «لا .. انه خرج في معاملته عن حقوق الابوة ، ان لحسن
فضلا كبيرا علينا . ولكن ابي تنكر له ، بل اراد قتله من اجل ذلك
الفضل . اراد قتل حسن؟! ان ابي ظالم ، والظالم لا يحبه الله فكيف
احبه انا؟ اما حسن فشهم تفاني في سبيل نجاتنا ويكفي انه يحبني واني
احبه حبا عذريا نقيا لا عيب فيه . يا الهي ما هذا الحب؟ اذا كنت ترى
اني أخطيء فيما اقول فانزع حب هذا الشاب مسن قلبي . لا .. لا
تنزعه .. او انزعه يا الهي .. او كما تشاء .. آه مالي أزداد تعلقا وهياما؟
الله هو الذي اراد ان يحب احدا الاخر ، والحب الذي يكون خاليا من
الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله» .

قضت سمية ساعة في مثل هذه التصورات ، ثم تذكرت ما سمعته
من تهديد ايها فخافت ان يتمكن من حسن وهو غافل فرأت ان عليها
ان تحذره حتى يقضي الله امره كان مفعولا .

وحدثتها نفسها ان تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن
ذلك . على انها اصبحت شديدة الشوق الى رؤيته لتشكو له ما في
قلبها ويتعاهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من
المدينة في تلك الليلة ، وانه خارج حوالي الغروب من الباب المؤدي الى
مكة فعزمت على اغتنام فرصة اشتغال ايها ، لكي تخرج وتقف له في
الطريق وتخطبه .

اما عرفة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو حاكم المدينة يومئذ
سدافة . وكان طارق يكرم عرفة لانه ثقفي من قبيلة الحجاج : وكان
الحجاج لذلك قد اوصاه به خيرا ، ولانه كان قد عرف سمية وطلب

الاقتران بها فوعده عرفة بذلك ولكنه استمهله ريثما يسترضيها • ولم يشأ الحجاج ان يحبلها ابوها على ذلك بالكره مخافة ان تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلي عنها كما اتفق له مع عبد الله ابن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم أمره عبد الملك مروان بطلاقها • وجليه الخبر ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على الفي الف في السر وخمسمائة الف في العلانية ، فأجابه الى ذلك وحملها اليه فأقامت عنده ثمانية اشهر ، ثم خرج عبد الله ابن جعفر الى عبد الملك بن مروان واقدا ونزل بدمشق ، فأثاه الوليد بن عبد الملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعه اللباس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد : «لكنك انت لا مرحبا بك ولا اهلا» • قال عبد الله : «مهلا يا ابن اخي فلست اهلا لهذه المقالة منك» • قال : «بلى والله وبشر منها» • قال : «وفيم ذلك ؟» • قال : «لانك عدت الى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف ، فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها» • قال : «وفي هذا عتبت علي يا ابن اخي ؟» • قال : «نعم» • فقال عبد الله : «والله ما أحق الناس ألا يلومني في هذا الا انت وأبوك ، لان من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحسي ويعرفون حقي ، اما اتما فمعتمانني رفدكما حتى ركبني الدين • اما والله لو ان عبدا حبشيا مجدعا اعطاني بها ما اعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه • انما فديت بها رقبتني» • فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنان بغلته ومضى فدخل على ابيه فقال له عبد الملك : «مالك يا ابا العباس ؟» • قال : «انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف !» • وقصر عليه الخبر • فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ، ففعل • وخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية ان تشكوه الى عبد الملك بواسطة سكيئة بنت الحسين ، لعلمه انها

تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك .

* * *

وكان حسن قد ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود جبله ورائه ، قاصدا الى بيت سكيئة ، ولما أشرف على بيت عرفة اختلج قلبه في صدره ، ووقف كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا ما يمكن حدوثه في غيابه ، وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تشلت له سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس . ولم يتب له نفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان في جملة خدم المختار ابن ابي عبيد في اثناء حربه في العراق ، فلما قتل المختار سار في جماعة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عندما سح بعزمه على المدينة رغبة منه في الاقتراب من اهله في الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفة لانه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله ، ولكنه لم يكن يعلم بسا بين حسن وسمية . فلما رأى سيده واقفا مبهورا استغرب ذلك منه فخطبه قائلا : «ما بال مولاي ؟ هل يفكر في امر نسيه فأقضيته ؟»

فأنتبه حسن لنفسه واستحي من خادمه ، ولكنه تذكر ما بين هذا الخادم وعرفة من رابطة القبيلة ، فلاح له ان يستخدمه في ذلك لعله يأتي بفائدة فقال : «أتعرف عرفة ؟»

فأجاب عبد الله ولم يصبر الى اتمام السؤال وقال : «كيف لا أعرفه وهو ابو سمية» .

فلما طرق اسمها سمع حسن خفق قلبه ، ولو لحظ عبد الله وجه سيده
 لرأى الاضطراب ظاهرا في محياه ، ولكنه لم يكن يتفرس في وجهه لفرط
 احترامه له . اما حسن فقال : « وهل تعرف سمية ؟ »
 فضحك عبد الله وقال : « كيف لا اعرفها وهي من قبيلتي ؟ »
 قال : « وهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ »
 قال : « كلا ، ولكن سمية مشهورة بجبالها وتعقلها ولطفها ، وقد
 انفق لي اني رأيتها غير مرة يوم كنا في العراق » .
 فسر حسن بهذه المصادفة وأراد ان يستخدم عبد الله في البحث عن
 سمية او مخابرتها فقال : « اذن اسمع يا عبد الله ، أريد ان أرسلك الى
 سمية في مهمة فهل تذهب ؟ » قال : « لك الامر وعلي الطاعة » .
 فأعجب بلطف تعبيره وقال له : « بورك فيك يا عبد الله فاعلم اني
 فدمت في هذا الصباح الى عرفة ، وقضيت معه ساعة ، ولم أتسكن من
 مناهدة سمية لانها كانت مشغولة ونحن الان سائرون الى مكة ولا ندرى
 متى نعود فهل اخرج من المدينة قبل ان اراها ؟ »
 قال : « كلا بل يجب ان تراها وتخطبها . هل اسألها موعدا للقاء ؟ »
 قال : « لا تستعجل يا عبد الله . فاني اخاف ان يغضب ابوها اذا اطلع
 على ذلك لاني سمعت بصرامته في تحجبها ، فلا يليق بي ان اراها خلصة
 بعد ان خطبتها منه » .
 فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفة وقال : « ما دامت خطيبتك فلا
 بأس من رؤيتها وان لم يعلم ابوها . . اتأذن لي في الدخول الى هذا
 البيت والاستفهام عن عرفة فأحتال لابلاغها موعداك ؟ »
 فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ، ولكن رغبته في رؤية سمية
 هونت عليه ذلك فقال : « اني ذاهب الى منزل سكيئة ، وأنا أعلم ان
 سمية كثيرة التردد اليه ، فقل لها ان توافيني الى هناك » .

قال : «سمعا وطاعة» • ومضى يسوق الجبل وهو يقول : «سأحمل اليك الجواب في منزل سكينه ان شاء الله» •

- ٥ -

مجلس سكينه بنت الحسين

اما حسن فسار حتى وصل الى منزل سكينه بنت الحسين : فرأى بجانب الباب حظيرة تربط فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود . لان منزلها كان مقصد الشعراء والادباء وأهل الوجهه من قریش وغيرهم . وكان حسن قد سمع جمعة الجبال وجلبه الخدم قبل وصوله الى الدار ، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب وأكثرها للاضياف . ورأى بينها جبل ليلي الاخيلية •

فلما انتهى الى باب بستان الدار دخل ولم يستاذن ، لان الناس كانوا يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان . ومشى في باحه كبيرة رأى في بعض جوانبها غرفا عديدة في صف واحد عرف انها دار الاضياف ، ثم رأى في صدر البستان بيتا متقن البناء على باب الخدم . فعرف انه مسكن سكينه ، فتحول الى دار الاضياف • لعله يرى ليلي هناك فيقيم معها ريثما تأتي سمية فتكون له وسيلة الى مقابلتها . فبلغ دار الاضياف والخدم يقومون باعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها . وقد سره اشتغالهم عنه لكي يتمكن من البحث عن ليلي ، فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد احدا يعرفه ، فظل ماشيا وهو يسبح ضجة من جهة مسكن

سكينة بعضها من الخدم في الخارج والبعض الآخر من الداخل . وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوافة مثل قوافة الدجاج ، فمشى الى مصدر الضحك فاذا هو في غرفة بجانب باب المسكن وبياها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم وألقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فأطل حسن من فوق أكتافهم فرأى هناك رجلا قصيرا دميما ، قليل اللحم ، أزرق اللون ، أحول البصر ، أقرع الرأس ، انط اللحية ، جلس القرفصاء على أكمة من التبن وهو يحضن بيضا ويقوف كما تقوى الدجاجة ، فاستغرب حسن ذلك ونظر الى احد الوقوف مستفسا فقال له الرجل : «ألا تعرف من هذا؟»

قال : «لا . . ومن هو؟»

قال : «أشعب الطماع الذي اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكا لها» . قال حسن : «أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة ، ولكن منظره أضحك من أخباره . ما الذي أقعده هذا المقعد وهو يقوىء كأنه يحضن بيضا؟»

قال الرجل : «بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدي سكينة مولاته ، فأمرته ان يقعد على هذا البيض حتى يفقس وقد مضى عليه ايام وهو على هذه الحال !»

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه لطول انتظاره خادمه ، وأراد ان يشغل نفسه هنية اخرى فقال : «يا أشعب ما الذي اجلسك هذا المجلس ؟»

قال : «أجلسني اياه مولاتي سكينة ، فهل فيكم من يخرجني من هذا الحبس؟»

فقال حسن : «ومن يتوسط لك في هذا الامر؟»

قال : «كأنى بليلى الاخيلية قد دخلت دار مولاتي اليوم ، فاذا كانت

هنا ، فلا ارى أقدر منها على اخراجي من هذا المكان» •
قال حسن : «هان الامر ، فلك علي ان أوسط ليلى في العفو عنك» •

* * *

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه
عبد الله واقفا على بضع خطوات منه فقال حسن : «ما وراءك ؟»
فدنا عبد الله منه وقال : «دخلت البيت وسألت عن عرفة فليل لي
انه خرج في الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف احد مقره» •

فابتدريه حسن قائلا : «وسمية ؟»

فقال : «وسألت عن سمية فعلمت انها ذهبت الى سكيانة من برهة
قصيرة فسررت بذلك وأتيت لاختبرك ، فهل رأيته هنا ؟»

قال : «لم أرها ولعلها في البيت مع النساء ، فكيف اصل اليها ؟»
بورك فيك يا عبد الله ، امكث انت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى
اخرج او أحتاج اليك في شيء» •

قال : «سمعا وطاعة» • وخرج •

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما
تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه • فلم ير وسيلة الى ذلك الا
ليلى ، فجاء باب القاعة التي تستقبل سكيانة فيها ضيوفها ، فرأى عليه
رجلا واقفا وقوف الحاجب فقال له حسن : «هل في مجلس بنت الحسين
احد ؟»

قال الرجل : «ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء
والشاعرات» •

قال : «وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟»

قال : «نعم» .

قال : «قل ليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه» .
فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رجبت به فمشى
بها الى خلوة وقال لها : «اني مسافر الليلة وقد جئت لوداعك» .
قالت : «رافقتك السلامة ووفقك الله في مهتك» .
قال : «ولكنني أعرض عليك امرا ارجو مساعدتك فيه الان وهو لا
يتعبك» .

قالت : «وما هو ؟»

قال : «أتعرفين سبية بنت عرفة ؟»

قالت : «نعم أعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكية
تخاطبها وسكية تلاطفها لانها تحبها كثيرا . وأنت ما شأنك معها ؟»
قال : «شأنني معها شأن الخطيب وخطيبه فهل هي لا تزال هناك ؟»
قالت : «لقد سرتني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . وأظنها باقية
لاني لم ارها خرجت . وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة فنسكت
انت مع الجلوس من الرجال وأدخل انا الى مجلس النساء وراء الستار
حيث تقيم سكية وصاحباتها فأبحث عن سمية» .
قال : «أرجو ان تجمعيني بها ساعة لا يرانا فيها احد سواك ، لاني
خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت المدينة بالامس ، وها أنذا خارج الان ولم
أشاهدها او أخاطبها» .

قالت : «لك علي ذلك» .

قال : «خير البر عاجله ، فاني مسافر عند الغروب» .

قالت : «ألا تؤجل سفرك الى غد ؟»

قال : «كنت أود ذلك ولكنني على موعد مع صديق لكي نسير معا ،
وسيوافيني عند الغروب الى باب المدينة» . ثم غيّر مجرى الحديث فقال:

«وأوصيك بأشعب الطماع فإنه يحضن أيضا عقابا له على ذنب ارتكبه وقد وعدته بأن تتوسطني له لدى مولاته سكيئة ، فلا تنسيه» .

فضحكت وقالت : «قبّحه الله ما أكثر مزاحه ، ولكنه وافق هوى في نفس سكيئة ، فهي كذلك تحب المزاح ، وقد تعودت معاقبته بمثل ذلك العقاب ، وحضن أيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار ، وهي تسميها (بنات أشعب) . اني ذاهبة وسأكلهما في شأنه . فتعال معي واجلس مع الجالسين فإذا لقيت سمية أو مأت اليك فتخرج» .



دخلت ليلى ودخل حسن في اثرها . ثم أطل على القاعة فإذا هي واسعة وقد فرشت بالطنافس الثمينة ، وحولها الوسائد المزركشة وفي صدرها ستارة عليها صور اشجار وطيور ملونة خلفها سكيئة ونساءها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها .

ورأى في القاعة جماعة قد تصدروهم خمسة عليهم لباس البدو ، فسألها : «من هؤلاء المتصدرون ؟»

قالت : «هم الشعراء . ألا تعرف احدا منهم ؟»

قال : «أظنني اعرف الجالس على الوسادة المثناة ، فهو الفرزدق ، وقد عرفته بضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه أليس هو الفرزدق ؟»

قالت : «نعم هو بعينه . ألا تعجب من اجتماعه هو وجريز فبي مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟»

قال : «وأين جريز ؟»

قالت : «هو ذاك الذي كف شعره وأدهن ، ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من انفه كأن فيه نونا» .

قال : «ومن هو الاخر القصير الدميم العظيم الهامة ؟» • قالت :
«هو كثير عزة العاشق المشهور» •
قال : «اعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح • ومن ذاك الشاب الجليل
العريض المنكبين الحسن البزة • وكأنه جالس القرفصاء ؟»
قالت : «هو جميل بشينة احد عشاق بني عذرة • ألا تراه حزينا لما
اشتهر من حبه لها وحرمانه لذلك منها ؟»
قال : «ومن ذلك الاسود ؟ اني لاستغرب منظره ، والشعراء
يندرون في السود ؟»
فضحكت وقالت : «هو نصيب الشاعر الفحل • وأما سواده فلان
امه أمة • وهو من قضاة» • ثم اشارت عليه بأن يجلس على إحدى
الوسائد وان ينتظر ما يكون من شأنها مع سمية •
فجلس وهو يخاف فوات ولم يكذب يستقر به المقام حتى سمع لغطا من
وراء الستار فاستبشر وظن ان ليلى تخاطب سكينه او سمية • ثم رأى
جارية وضيئة خرجت وقالت : «أيكم الفرزدق ؟»
وكان حسن يتوقع ان تناديه فلما سمعها تنادي الفرزدق التفت اليه
فرآه يقول : «ها أنذا» •
قالت : «انت القائل :

« هما دلياني من ثمانين قامة - كما انحط باز أقتم الريس كاسره
فلما استوت رجلاي بالارض قالتا : أحي فيرجي ؟ ام قتيل نحاذره ؟

فقلت : ارفعوا الامراس لا يشعروا بنا - وأفلت في اعجاز ليل أبادهه »
قال : «نعم» •

قالت : «فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذه الالف دينار والحق

بأهلك» . فأخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت : «أيكم جرير؟» . فلما عرفها جرير نفسه قالت : «انت القائل :

«طرقك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجمسي بسلام تجري السواك على أغسر كأنه برد تحدر من متون غمام لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذلك وكان غير ذمام اني أوصل من اردت وصاله بحبال لا صلف ولا لوام»

قال : «نعم» .

قال : «أفلا اخذت يديها وفلت لها ما يقال لثلها؟» انت غفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الالف والحق بأهلك» . فأخذها وانصرف . ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : «أيكم كثير؟» فلما عرفته قالت : «انت القائل :

«وأعجيني يا عز منك خلائق كرام اذا عد الخلائق اربعم دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك اسباب المنى حين يطمع وانك لا تدريين صبا مطلته وانك ان واصلت علمت بالذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع»

قال : «نعم» .

قالت : «قد ملحت وشكلت ، خذ هذه الالف واذهب لاهلك» . ودخلت وخرجت وقالت : «أيكم نصيب؟» . قال نصيب : «انا هو» . قالت : «انت القائل :

« ولولا ان يقال صبا نصيب لقلت بنفسني النشا الصغار

بنفسي كل مهضوم حشاها اذا ظلمت فليس لها انتصار»

قال : «نعم» ♦

قالت : «ريتنا صغارا ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الالف والحق بأهلك» ♦ فأخذها وانصرف ♦ ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل : «مولاتي تقرأك السلام وتقول لك : (ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك : «ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بوادي القرى اني اذن لسعيد لكل حديث ينهن بشائسة وكل قتل عندهن شهيد» فجعلت حديثنا بشائسة وقتلانا شهداء خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك» ♦ فأخذها وانصرف ♦

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس ، لان اهتمام النساء بالشعر والادب وجلسهن لثل تلك المطارحة كان شائعا في تلك الايام ونبع من النساء شاعرات ماهرات منهن ليلي الاخيلية وغيرها ♦ ولكنه استغرب اهتمام سكينه على رفعة مقامها بسباحة الشعراء فيا قالود ونظموه ♦ وكان يسع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلي عنه ولم يكن يدري كيف يدعوها او يستعجلها فرأى ان يسمعها صوته ، وكان قد لاحظ وجود صور للطير والاشجار على الستار الحاجز بين مجلسي الرجال والنساء ، كما لاحظ وجود أمثالها على الوسائد ، فرأى ان يخذ من ذلك موضوعا لاسماع ليلي صوته ♦ وما كادت الجارية تفرغ من مخاطبة الشعراء وتهم بالدخول بعد ان انصرفوا ، حتى استوقفها وقال : «تمهلي يا بنية» ♦

فوقفت والتفتت اليه فقال لها : «لقد باحت هؤلاء الشعراء وأفحتهم فانصرفوا فهل اسألك سؤالا ؟»
قالت : «قل ما تشاء» ♦

قال : «أرى على ستاركم صوراً وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
 (أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) ؟؟»
 فأشارت الجارية إليه أن يتمهل ودخلت إلى سيدتها ، ثم عادت إليه
 وقالت له : «وما يضرنا وما نحن من المصورين ؟»
 قال : «ولكنكم اتخذتم تلك الصور استاراً • ولو كانت تلك صور
 أشجار فقط لهان أمرها ، ولكنها صور لذوات أرواح ، وفي الحديث (أن
 الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة) ؟؟»
 وهنا سمع صوتاً جهورياً من وراء الستار يقول : «لا تنس تنمئة
 الحديث (الارقم في ثوب)» • فأدرك أن ليلي هي المتكلمة ، وسكت
 بينما عادت الجارية إلى مجلس النساء ولبت هو على مثل الجمر لا يدري
 ماذا يصنع ، والتفت نحو نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت إلى الغروب
 فازداد قلقه وخشي أن يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة •



وبينما هو يفكر في ذلك إذ سمع لغطاً وراء الستار أعقبه ضحك كثير
 وصوت يقول : «قد اطلقنا سراحه اذهبي يا بنانة واخرجي ، قبجه الله ما
 أخبته» • فأدرك أن سكينته هي المتكلمة ، ولكنه ظن أنها تريد إخراجها هو
 فاضطرب • ثم ما لبث أن رأى ليلي خارجة وهي تشير إليه أن يتبعها ،
 فسار في أثرها حتى خرجا من القاعة فدنّت منه وقالت : «لا تخف أنها لم
 تأمر بإخراجك ولكنها امرت بإخراج أشعب الطماع لأنني أوصيتها به عملاً
 بإشارتك» •

فقال : «بورك فيك ، ولكن أين سمية ؟»
 قالت : «ليست هنا ، كانت في المجلس وخرجت قبل أن أراك» •
 فاستعاذ بحسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال : «هل أنت على يقين مما

تقولين ؟»

قالت : «لقد تحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت ايها لانها لا تستطيع الغياب طويلا عنه» .

وفيما هما يتكلمان رأيا أشعب مهرولا نحوهما ، فلما بلغ مكانهما هم بتقيل يد حسن وقال : «جزاك الله عني خيرا فقد افقدتني من عذاب طويل لان البيض لم يكن ليفقس قبل بضعة ايام ، فأسأل الله تعالى ان يقدرني على مكافأتك . هل استطيع خدمتك في شيء ؟»

قال حسن : «اني لم أفعل ما يستحق هذا الثناء» . ثم التفت الى ليلي كأنه يريد الرجوع الى الموضوع ، فتنحى أشعب قليلا وقال حسن : «أستودعك الله يا ليلي ، وأرجو ان اراك في خير» . فقالت : «أسأل الله لك السلامة والنجاح» .

وعجل حسن بالخروج لعله يلقي سية في الطريق او في البيت او في مكان اخر . فلما خرج وجد خادمه عبد الله في انتظاره ومعه الجمل ، فركب والشمس قد أذنت بالمغيب وبان الشفق الاحمر ، وما زال يحث جملة حتى بلغ بيت عرفة فأحس بشيء استوقفه بغتة وما هو الا عامل الحب اوقفه بجانب منزل الحبيب . فلم يتمالك ان نادى عبد الله ، فجاء هذا ووقف بين يديه وهو يقول : «هل أسأل عن سمية فلعلها عادت ؟»

فأعجب حسن بنباهته ودقة شعوره ، وابتمس ولمس يجب ، فأسرع عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول : «انها لم تعد يا سيدي» .

فتنهده حسن ، وخيل اليه ان سمية باقية هناك في بيت سكينه ولكن ليلي لم ترها ، او انها رأتها وأخفت امرها . وتكاثرت عليه الهموم وتراكت الظنون - والمحب سيء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه وزاد سوء ظنه بحبيته وأكثره من قبل النغلة ، فاذا رأى حبيبه يخاطب احدا مهما يكن من شأنه او مقامه او قرابته تبادر الى ذهنه ان يغالظه او

يسر اليه امرا ، واذا ابطلأ عليه بالزيارة سبق الى فهمه انه في موعد مع اخر
او لا يجبه او يحب سواء . وقد يخيل له ان اهل الجيب كلهم ضده
وانهم ينعون منه فاذا تخاطبوا همسا او قصروا معه في شأن خيل له
انهم يريدون به سوءا او هم ينصبون له أحبولة فالمحب كثير الهواجس
سيء الظنون .

فلا تلم حسنا اذا اساء الظن بليلى وحسبها تأمرت على اخفاء سمية
عنه . وقضى برهة في مثل هذه الهواجس وهو على جملة ، ثم اتبه فاذا
بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن الموعد
مع ما ابداه الرجل من الرغبة في مرافقته وبالغ في اكرامه والتقرب منه؛
فاستحث جملة وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية . وان علل
نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة .

- ٦ -

المفاجأة السارة

سار حسن بضع دقائق صامتا حتى أشرف على باب المدينة ، ومن
ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل . وفيما هو ينظر الى ما وراء
الباب اذا بشبح وقف له في الطريق هاتفا باسمه فالتفت حسن وقلبه
يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه ، ثم أمسك زمام جملة ونظر الى
الشبح فاذا هو امرأة ، فحدثه قلبه بأنها سمية فوثب على الارض حتى
وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد اخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح

• الرجل

اما حسن فانه نادى : «سمية؟»

قالت : «نعم ، ومن الذي معك؟»

قال : «هو خادم امين لا تخافي منه • ما الذي جاء بك الى هنا في هذا الليل ؟ أأنت سمية حقيقة؟! • ما ألطف هذا اللقاء وما اسعد هذه الساعة !• سمية حبيتي فولي ما بدا لك» •

فتنهدت وأسندت كفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ،

وسكنت •

وقد سر حسن لسعيها الى ملاقاته ، ولكنه أوجس خيفة مما دعاها الى ذلك لما يعهده في ايها من الشدة والغلظة فقال لها : «اني لا ارى في هذه الدنيا احدا اسعد مني الان ، وقد بذلت الوسع في سبيل الحصول على هذه المتابعة فلم أفز ، وها قد اتني الساعة عفوا فالحمد لله ، ولكنني اخشى ان يكون لهذه المخاطرة سبب يسوء» • فتحيرت سمية ولم تدري بم توجيه فلبثت صامتة ، فازداد هو قلقا وقال لها : «ما بالك ؟ قولي • لعلك علمت بذهابي الى مكة فخفت خطرا يهددني هناك؟»

فلما سمعت ذكر الخطر أجابته والبكاء يخنق صوتها : «نعم اخاف عليك الخطر ، ولكن ليس في مكة فقط بل ••» • وشرقت بالدمع فانقطع صوتها •

فتقطع قلب حسن ومد يده فأمسك اناملها ، وهي اول مرة قبض فيها على تلك الانامل ، فأحس برعشة تملكته وقال لها : «ماذا ؟ قولي يا سمية • يا ملكة قلبي • هل تخافين علي احدا في هذه المدينة ايضا ؟ انك ما دمت لي لا تحبين سواي فلست أبالي بعد ذلك اذا كان اهل الارض كلهم اعدائي ! »

قالت : «واذا كنت انا عدوتك؟»

فحمل منها ذلك على قصد المزاح وقال لها : « اذا كنت انت عدوتي فلا
غرض لي في الحباة • بالله قولي ما في نفسك • ممن تخافين علي ؟
فأريك دمه مسفوكا ولو كان حوله جيش جرار • قولي » •
فتنهت ومسخت دموعها بطرف نقابها وهي تقول : « لا أريد ان ارى
دمه مسفوكا » •

فتعجب وقال : « وماذا اذن ؟ افصحى يا سمية • قولي • ممن
تخافين علي ؟ فقد نفذ صبري وطال تأخرى عن الخروج من المدينة ولي
صديق ينتظرنى في الخارج • قولي » •
قالت : « انى أعد قولي عقوقا منى • ولكننى اسيرة حبك لا ارى لي
حياة الا بك » •

فقطع حسن كلامها وقد ادرك ما تريده فقال : « قد فهمت ما
تريدن • انك تخافين علي من ابيك • أليس كذلك ؟ »
قالت : « نعم » • واستغرقت في البكاء حتى كاد يغشى عليها وكان
هو ما زال ممسكا بيسراها ، فأمسك بيدها الاخرى وقال لها : « ولا هذا
يهمنى ما دمت تحبيننى • هل تحبيننى يا سمية ؟ »
فصعدت الزفرات ولم تجب ، فقال : « فاذا كنا متحابين فمن ذا يحول
بيننا ؟ »

وسكت برهة وقد عظم عليه الامر ثم قال : « وما الذى دعا أباك الى
بغضى والحق الاذى بي وأنا لم أرتكب منكرا ولا اسأت اليه في شيء ؟ »
قالت : « ذنبك انك احسنت اليه • او لعل ذلك من سوء حظي •
ولكن ما لنا ولهذا ، ان الوقت لا يأذن بطول الشرح • فأخبرك ان ابي
لا يريدك ، وأخاف ان يسعى في أذاك ، وقد علمت ذلك على أثر خروجك
من منزلنا ، فأردت اطلاعك على جلية الخبر لتكون على بصيرة » •
قال : « اما الحق الاذى بي فاني لا اخافه ، ولكننى اخاف ان يلحق

الاذى بك انت» •

قالت : «لقد اظهرت له الطاعة والرضا ريثما اراك ثم أفعل ما تأمرني به» •

فأطرق حسن ثم قال : «اني مغلول اليدين بما اخذته على نفسي من امر السفر الى مكة عاجلا في مهمة لزجل احبه وله علي فضل كبير • وكنت احب ان ادعوك للذهاب معي ولكنني ذاهب الى مكان به الحرب قائمة فلا أريد تعريضك لهذا الخطر» •

فقطعت كلامه قائلة : «وكيف تعرض نفسك للخطر ؟ ان مكة اليوم في أضييق حصار وأهلها في ضنك شديد • بالله ألا عدت عن الذهاب ثم تفعل ما تريد ؟»

قال : «اما الذهاب فلا بد منه فامكني انت هنا وأظهري الطاعة حتى اعود ونرى ما يكون • ولست اخشى بأسا ولا خطرا ما دمت لا تحبين سواي» • ثم سمع جمعة الجمل فاتتبه للوقت وقال لها : «كنت اود ألا تفترق منذ الان ولكن للضرورة أحكاما • وسأرسل عبد الله معك الى منزلك لان الليل قد أظلم ولا آمن عليك المسير وحدك ، فهل تسيرين الى بيت ابيك ؟»

قالت : «لا ولكنني اعود الى بيت سكينه لان ابي يعلم اني سرت اليها فاذا استبطنني سأل عني هناك فأعتذر عن تأخري ، وذلك من غير ان يراني عائدة الى البيت وحدي في هذا الليل • ولكن كيف أفارقك ؟»

قال : «تشديدي يا سمية ان سفري هذا لا بد منه ، ولكنه سيكون اخر الاسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معا» •

فلما قال ذلك بكّت سمية حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه ، وكاد يشاركها البكاء لولا انه تجلد وقال لها : «لا تبكي يا سمية بل اتكلي على الله واعلمي اني عائد اليك على عجل» • قال ذلك ونادى عبد الله وقال

له : « اوصل سمية الى بيت سكيئة ، ثم الحق بي في الطريق المؤدي الى العقيق ، فاني سابقك الى هناك ، فقد ابطأت على سليمان وأخاف ان يكون قد سبقني او عاد الى منزله » .



سارت سمية وهي تقول لحسن : « سر في حراسة الله ، واسأله ان ينصرك على اعدائك » . وظل صوتها یرن في أذنيه حتى نوارت عنه ، فركب جملة وساقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلا فالتفت يمنة ويسرة فلم یر سليمان .

فخرج وهو يمشي الهوينى ويصيخ بسمعه لعله يسمع صونا ، وجعل يحدق بعينه لعله یرى احدا فسار والجمال دليله بين تلك المستنقعات . ولكنه لم یر طويلا حتى سمع جعجعة جمال عن بعد فاستوقف جلسه وأصاخ بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق الجمال سوفا بطيئا فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد فلم يكن يسمع غير وقع خفاف الجمال على العشب او الطين .

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين ، فوقف وأصغى ، فسمع صوتا عميقا ، وخشي ان يجمع جملة فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ، ثم مشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة ان يخوض في الاوحال حتى تحول عن الطريق الاصلي الى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب ، فرأى جملا معقولا وشبعا متوسدا الى جانبه وفوق رأس الشبح شبح اخر ييكي ويتحب . فاخترأ حسن في منعطف بحيث یرى ويسمع ولا يراه احد ، فسمع صوتا يقول : « يا لتعاستي وشقائي ! لقد فتكت بك يا ولدي وفلذة كبدي ، اني لأستحق هذا القصاص . ولكن ما

ذنبك انت ؟ تبأ لي ما أتعس حظي ! ولدي ! حبيبي ! كلمني يسا

سليمان • سليمان • سليمان •

فلما سمع حسن اسم سليمان علم انه صديقه ، فاقشعر بدنه وخشي ان يكون قد اصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى أقبل على الشبحين ولم ينتبه له احد .

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف : «لا نحزن يا ابي فقد ذهبت فداء صديق لي هو أحق بالحياة مني» •

فقال الآخر : «أظنك تعني هذا الشقي لانه وفي بهمه • اني عاهدت الله على نصر الحسين والقتال في سبيله وجعلت نفسي في عداد التوايين ، ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة • وكثيرا ما رأيتك غير راض بذلك ، فلم اكن اصغي اليك حتى ضربني الله هذه الضربة على قلبي !»

فتحقق حسن ان الراقد سليمان ، وانه في ضيق ، فلم يتمالك عن ان صاح قائلاً : «سليمان ؟»

فأجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه ، فوقف للحال وقال : «أنسي انت ام جني ؟» • وكان الرجل كهلا في نحو الستين من عمره والشيب قد جمل رأسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة • ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد آكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس فسي عينيه فاذا هو يفتحهما فتحا ضعيفا ويتألم فأمسكه حسن بيده وقال له : «سليمان ؟ اخي سليمان ! ماذا اصابك ؟»

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذني الجريح ، ففتح عينيه وصاح : «حسن ؟ اشكر الله على ان جعلني فداءك» •

ولم يتم سليمان كلامه حتى تقدم الرجل الاخر وقال : «حسن ؟ انت حسن ؟ يا لله ما هذه المصيبة التي نزلت بي بسببك ولكن الذنب ليس

ذنبك وانما هو ذنبي انا الشقي التمس !»

فأدرك حسن ان الكهل والد سليمان . وانه كان يترصده فأصاب ابنه خطأ . فصرف عنايته الى انقاذ حياة سليمان ، وحاول ان ينهضه قائلاً لايه : «الي بالماء» . فجاءه بشيء منه من مستنقع قريب ، فرش به وجه سليمان وغسل موضع الجرح في اعلى الصدر ، وكان قد أصيب بنبلة اخرجها ابوه .

وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشره خالد بن يزيد الاموي في دمشق ، لان خالداً كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش ، وكان بصيراً بصناعة الكيمياء والطب متقناً لها . وألف في ذلك بعض الكتب والرسائل وقد اخذ العلم عن راهب اسمه «بانس» . ولم يكن مجلس خالد في دمشق يخلو من اهل العلم فكان حسن يجالسهم ويسمع اقوالهم .

فلما غسل الجرح ضغطه ، وأمر ابا سليمان بايقاد النار فأوقدها بالزناد ، ثم انتظر حسن حتى تكون بعض الرماد فأخذ قليلاً منه وذرره فوق الجرح وربطه .

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل : «ليس معي قرية» . فقال حسن : «اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قرأتي» . قال ذلك ونهض ، ثم تحول نحو النخلة التي عقل جملة عندها فلم يجد الجمل هناك فطار صوابه لانه كان قد ترك كتاب خالد بن يزيد في مخبأ بالرحل الذي فوق الجمل حرصاً عليه ، وهذا الى ان الجمل كان عزيزاً عنده وعليه عدته وثيابه والماء وكل شيء . على انه لم يشأ ان يضيع الوقت وسارع الى اقتفاء آثار الجمل ، وكان قد لاحظ ان حل عقال الجمل لا يدل على حدوث عنف ، فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلاً متيناً فانحل من تلقاء نفسه ، وانطلق الجمل هائماً على وجهه او يطلب المرعى

هنا وهناك •

وسار حسن في طلب الجمل مضطربا خائفا لانه غريب في تلك البلاد ، ثم وقف ونظر الى ما حوله من الفياض والبساتين والظلام حالك ، فلاح له ظل يتراءى بين النخيل امامه ، فتفرس جيدا وأصغى بسمعه فسمع هدير جمل هناك فأخذ طريقه اليه ، ولاحظ ان ذلك الشبح يتعد ، فسارع السير في أثره وهو يتعثر بالاعشاب والاحجار ونظره شاخص اليه ، وما زال يمشي والشبح يمتشي امامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة ، فما كاد حسن يتفرس في الشبح حتى ادرك انه هو جمل فواصل السير في أثره ، وكان الجمل اجفل من المطاردة فأسرع في سيره ، وظل سائرا مدفوعا برغبته في القبض عليه حرصا على ما يحمله •

- V -

جميل وبشينة

وفيما هو يركض ويلهث اذا به يرى شيخا عليه لباس الرعاة يسير عاري الرأس وقد غرس عصاه في قفا طوقه ، وعليه عباءة قصيرة وخشونة البداوة بادية في وجهه مع شدة الظلام • فناداه حسن : « يا اخا العرب ، ألم تر بعيرا راكضا هنا ؟ »

وما أتم حسن سؤاله حتى أسرع الرجل اليه وأمسك بذراعه وضغطها بشدة في حين اشار اليه ان يسكت وينتظر ، فالتفت حسن الى ما حوله فرأى شجرة كبيرة على أكمة ورأى هناك ظلا يتحرك ، فهمس في أذن

الشيخ قائلا : « ما شأنك ؟ » اخبرني .

قال : « لقد اتفق لي اليوم حادث غريب مع رجل لقيته على غير معرفة
فاذا أصغيت لي قصصت الخبر عليك ، ثم نذهب ونستطلع بقيته معا عند
تلك الشجرة » .

قال حسن : « ولكن هل رأيت جملا راكضا من هنا ؟ »

قال : « نعم رأيت وأظنه طلب هذا الوادي ، ولا تخف عليه فاني كفيلا
برده اليك ، لاني اعرف رجال الحي وهم يعرفونني ، والابسل سارحة
عندهم ولا خوف عليها » .

قال حسن : « وأي واد هذا ؟ »

قال : « هو وادي الفري » .

قال حسن : « أليس هو موطن بني عذرة المعروفين بشدة عشقهم

وعفتهم ؟ »

قال : « هو بعينه . والحادث الذي وقع لي اليوم يكشف لنا عن

حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء . فأعزني سمعك لأقص عليك الخبر » .

فقال حسن الى سماع الحديث ، وأهل الغرام يميلون الى احاديثه ،
فقال الرجل : « قضيت في هذه الاودية معظم فصل الربيع أرعى ابلي ،
فجاءني في أصيل اليوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان ،
فسلم علي ثم قال : (ممن انت يا عبد الله ؟) . فقلت : (احد بني حنظلة) .
قال : (فانتسب) . فانتسبت حتى بلغت فخذي الذي انا منه . ثم سألتني
عن بني عذرة اين نزلوا فقلت له : (هل ترى ذلك السفح انهم نزلوا من
ورائه) . قال : (يا اخا بني حنظلة ، هل لك في خير تصطنعه لي ، فوالله
لو اعطيتني ما ترعاه من هذه الابل ما كنت بأشكر عليها مني لك عليه) .

« فقلت : (نعم ومن انت ؟) . قال : (لا تسألني من انا ، ولن اخبرك
بأكثر من اني رجل بيني وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بني العم ، فان

رأيت ان تأتيهم فانك تجد القوم في مجلسهم فتشدهم بكرة ادماء تجر خفيها عقلاء من السنة . فان ذكروا لك عنها شيئاً فذاك ، والا فاستأذنتهم في دخول البيوت وقل : ان المرأة والصبي قد يريان ما لا يرى الرجال . فاذا أذنوا لك فادخل بين البيوت واسأل اهلهما حتى لا تدع احدا تصيبه عينك ولا ييتا من بيوتهم الا وقتت به وسألت) ٠٠٠ .

فدهش حسن واشتدت رغبته في سماع بقية القصة ، وعاد الشيخ الى الكلام فقال : «فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها ، فسلمت واتسبت لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لي شيئاً ، فاستأذنتهم في دخول البيوت وقلت : (ان الصبي والمرأة قد يريان ما لا يرى الرجال) . فأذنوا . فأتيت أقصاها بيتاً ثم مضيت اطوف بها بيتاً بيتاً أسألهم فلا يذكرون شيئاً . حتى اذا اتصف النهار وآذاني حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لانصرف ، حانت مني الثغاة فاذا بثلاثة ايات فقلت في نفسي : (ما عند هؤلاء الا ما عند غيرهم) . ولكنني عدت فقلت لنفسي : (أيثق بي رجل يؤكد ان حاجته تعدل كل مالي ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة ايات ؟) . فانصرفت عامدا الى اعظمها ، فاذا اهله قد ارخوا مؤخره ومقدمه ، فسلمت فردوا السلام . وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم : (يا عبد الله قد اصبت ضالتك ، وما أظنك الا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب) . قلت : (أجل) . قالت : (ادخل) . فدخلت فأتني بصفحة فيها تمر من هجر ، وقدح فيه لبن ، والصفحة مصرية مفضضة والقدرح لم أر اناه قط احسن منه . فقالت : (دونك) . فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت . فقلت : (يا أمة الله ، والله ما اتيت أكرم منك ولا أحق بالفضل ، فهل ذكرت عن ضالتي شيئاً) . فقالت : (هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف ؟) . قلت : (نعم) . قالت : (ان الشمس غربت امس وهي تطوف حولها ، ثم حال الليل بيني وبينها) . فظننتني فهمت

مرادها فقلت : (جزاك الله خيرا ، والله لقد تغديت ورويت) • ثم مضيت فأتيت تلك الشجرة وطلعت بها فما رأيت اثرا • فأتيت صاحبي فإذا هو متشح بكسائه وقد قبع بين الابل ورفع عفירתه يعني فقلت : (السلام عليكم) • قال : (وعليكم السلام ، ما وراءك؟) • قلت : (ما ورائسي شيء) • قال : (لا عليك ، فأخبرني بما فعلت) • فقصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المرأة وأخبرته بما صنعت فقال : (قد أصبت طلبتك) • فعجبت لانني لم اجد شيئا • ثم سألتني عن صفة الاناءين والصفحة والقدح ، فلما وصفتها له تنفس الصعداء وقال : (فد اصبت طلبتك والله) • ولما ذكرت له حديث الشجرة وغروب الشمس وهي تطوف حولها ، بدا البشر في وجهه وقال : (حسبك) • ففهمت انها ضربت له موعدا للقاءه عند هذه الشجرة بعد الغروب • ومكث حتى أوت ابلي الى مباركها ، فدعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس مني بمزجر الكلب • حتى اذا ظن اني ست • قام الى عيبة له فأخرج منها بردين ، ارندى احدهما وانزر بالآخر ثم انطلق نحو الشجرة • وهو الذي تراه جالسا هناك بقرب جذع الشجرة ، وسنرى ما يكون من اجتماع الحبيبين •



أمسك الشيخ حسنا بيده ، وجذبه الى الجلوس بجانبه على الارض بين شجيرات هناك ، ثم اشار بيده صامتا نحو شبح صاعد من الوادي وعليه لباس النساء ، ومعه شبح اخر وقال : «هذه هي الفتاة ومعها خادمتها ، اضطجع مكانك لئلا يرى ما يكون» • فانبطحا ، وبعد قليل زحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا في مكان بحيث يريان ويسمعان ما يدور بين الفتى والفتاة • ولو ان الليلة كانت مقمرة ، لتبين لهما ما ارتسم على وجه الفتى حين

وصلت الفتاة ، فوقف وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه في خلاء وظلمة . وكان قلب حسن في اثناء ذلك يضرب ضربات سريعة مخافة ان يرى من الحبيبين ما يخجله او يهيج غيرته ، فندم على اصغائه للشيخ الراعي لما في اختلاس اسرار الناس من امر منكرو . على انه أحس بميل شديد لاستطلاع ما يدور بين هذين العاشقين . واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس . والميل الى ذلك عام في الناس على اخلاف طبقاتهم وان تفاوتوا في احترام تلك الاسرار والاعضاء عن استطلاعها عملا بالآداب العامة .

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس الى رؤيته ولاسيما عند اهل الغرام فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واصطكت ركبته واقشعر بدنه . ولم يكن سبب ذلك التأثير الا توقعه امرا يخاف ان يراه ولا يريد ان يفوته . ولكنه ما كاد يرى العاشق واقفا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وحنة صوته انه جميل الذي رآه اصيل ذلك اليوم في مجلس سكرينة . فتحقق ان الفتاة هي بثينة ، لانه كثيرا ما كان يسمع احاديث غرامهما وكيف منعه اهلها منها ولكنه ما زال يحبها حبا مفرطا ، كما انها تحبه هي ايضا . وكان حسن يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقباء يكون مقصورا على القاء التحية .

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لا يمس ثوبه ثوبها ولا يده يدها . جلسا متقابلين ينظر احدهما الى الآخر ولا يفوه بكلمة الا ما كان عتابا او تشاكيا ، ولا يقولان فحشا ولا هجرا . فاستغرب حسن ما رآه من العفة الصادقة ، ثم سمع الفتاة تنسادي خادمتها وكانت الخادمة قد وقفت على مقربة منهما ، فجاءت تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحدثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة :

«بلغني انك قلت فيّ أشعارا فهل انت على حبك؟»
 قال : «لا أعرف في لغة البشر لفظا يعبر عا في قلبي . فانه اعظم من
 الحب ، وأشد من الغرام ، وأرقى من العبادة . ولا ادري ما هو يا بثينة
 فادا اكتفيت بتسميته حبا فاني لا اراه يؤدي ما في قلبي» .
 قالت : «وكيف ذلك؟»

قال : «لا أدري يا حبيبي . لا أدري كيف هو ولا ما هو !» . ثم
 صعد الزفرات وقال : «انما أعلم انك نصب عيني أيما سرت وحيثما
 جلست وكيفما نظرت . ان بثينة امام عيني ، اراها جسا واضحا ومن
 عداها من الناس اراهم أشباحا او ظلالا . ولم اسمع اسمها الا اضطربت
 جوارحي وخفق قلبي ، ولا ارى راحة الا بالبكاء ، حتى قلت :

(خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قلبي؟) .

فقلت بثينة : «اذا كنت انت كذلك فكيف انا ، ولكننا معشر النساء
 مقضي علينا بالتعب والشقاء ، فلا تقدر احدانا على بث شكواها الى احد
 لئلا ينثلم عرضها . وأما اتم معشر الرجال فلهم الحرية كلها . وأنت
 تزعم انك تحبني حبا لا تدري مقداره . فهل يهجر محب حبيبه وقد احبه
 الى هذا الحد ؟ فوالله ما أعلم ما تسمعه عني او تقوله في اثناء الغياب
 الطويل . ولا ادري موقع بثينة ممن يقع بصرك عليهن؟» . قالت ذلك
 بنغم الدلال فازداد جميل هياما وقال لها :

« اني لأحفظ غيبكم ويسرني اذ تذكرين بصالح ان تذكرني
 ويكون يوم لا ارى لك مرسلا او نلتقي فيه ، علي كأشهر
 يا ليتني ألقى المنية بفتة ان كان يوم لقاءكم لم يقدر

لا تحسبي اني هجرتك طائعا حدث لعمرك رائع ان تهجري
لهواك ما عشت الفؤاد وان أمت يتبع صداي صدائك بين الأقبـر »

فما تماكنت بشينة عند سماءها قوله ان غصت بريقها وقالت : « وهل
انت الذي قلت :

« ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي انقري اني اذن لسعيد
وهل ألقين فردا بشينة مرة تجود لنا من ودها ونجود »

قال : « نعم » *

قالت : « وما الذي ترجو ان نجود به ونحن بنو عذرة ؟ »

قال : « لا أطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب :

« لا ، والذي تسجد الجباه له مالي بما تحت نوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ما كان الا الحديث والنظر »

فألقرت بشينة خجلا ثم قالت : « ذلك عهدنا بجميل ، ولولا ذلك ما
رأيتني اسعى اليك وحدي » *

فلا تسل عن استغراب حسن والراعي ما رأياه حتى هانت علي حسن
نفسه لانه لم يكن يظن انه يستطيع ما استطاعه بجميل اذا التقى بسية .
قضى جميل وبشينة ساعة في مثل ذلك ثم نهضت فودعته احسن
وداع ، فودعها بمثله ، وانصرف كل منهما في سبيله وكل منهما يمشي
خطوة ثم يلتفت الى صاحبه .

فلما تواديا نهض حسن من بين الاعشاب مذهبولا وقال للرجل :
« لقد رأيت منظرا طالما تاقت نفسي لمشاهدته ، انه منظر يخجل منه كل

ضعيف النفس دنيء الطبع • ان العفة يا اخا العرب خير ما في الفضائل» •
فقال الشيخ وهو ينقر بعصاه على عباته لنفض التراب عنها : «كيف
لا وقد سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول قال رسول الله - صلعم -
(من عشق فعف فمات فهو شهيد) • وقال ايضا : (عفوا تعف نساءكم) •
فقال حسن : «صدق رسول الله ، وان بني عذرة كلهم لشهداء فقد
بلغني مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكنني لم أصدق حتى رأيت ذلك
رأي العين» •

ثم اتبه حسن لما هو فيه من امر جرح سليمان وضياح الجمل فقال
لراعي : «اين الجمل يا اخا العرب فقد وعدتني باحضاره» •
قال : «امكث هنا حتى آتيك به» • قال ذلك وانحدر في الوادي
حتى توارى عن النظر ، ولكن صوت الاحجار المتدحرجة تحت قدميه
ما زال مسموعا ، ثم ساد السكون فجلس حسن تحت الشجرة ولبث
ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان •

ولما خلا حسن الى نفسه تحت الشجرة جالت به هواجسه في عالم
الخيال فانتقل ذهنه مما شاهده في ذلك المساء الى سمية وحاله معها ،
ثم الى خادمه عبدالله وتأخره ، ثم الى سليمان وأبيه ، ثم عاد الى
الجمل الهارب بكتاب خالد فرأى انه اهل البحث عنه بتربصه هناك
لمشاهدة لقاء ذيك الحبيبين • ولكنه اعتذر بأنه انما فعل ذلك مرغما ،
فلو انه لم يطع الشيخ الراعي وظل في مسيره لما وجد الى جملة سبيلا
لانه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها •

وفيما هو كذلك وظلام المساء لا يريه على الاكام والادوية المحيطة به
الا ظلالا ضعيفة ، سمع خرشة بين الاعشاب فوقف بغتة ثم فطن الى انها
خرشة ضب سارح فلم يلتفت اليه ، ولكنه ظل واقفا وقد تزايد قلقه
لابطاء الراعي وهم باللاحاق به ولكنه خاف ان يخلقا في الطريق •

ولما طال انتظاره مل الوقوف فمشى على غير هدي ، واتخذ علامة علقها على الشجرة لتهديه الى المكان من بعيد . وجعل مسيره في جهة الوادي الذي سار اليه الراعي يطلب الجمل وهو بتوقع ان يلتقي بالشيخ وهو عائد او يسمع جعجعة الجمل عن بعد او يعود الى مكانه . ولذلك فانه كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة ان تتوارى عن بصره وراء بعض اللال ، فمشى مسافة طويلة لم يسمع في اثناءها صوتا ولا رأى شبحا ، ثم نسي امر الشجرة فانحدر في الوادي وهو يتلمس الارض ولا يرى الطريق فكانت رجله تزلق طورا ، وترطم اصابعه طورا من فوق النعال بأصول الاعشاب الباقية بعد المرعى ، وهو بين ان يحملق نحو الوادي بعينه و يصيح بأذنيه او يتفرس في الطريق بين يديه . فلما طال به المسير ولم يهتد الى شيء ندم لنزوله من مكانه .

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب في الوادي فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا فتأثر الصوت فاذا به يتعاطف كلما اقترب من النور ، فعلم انه على مقربة من بعض القرى الكثيرة في وادي القرى منتشرة في بطنه وعلى جانبيه . ولكنه استغرب النباح في الليل لعله ان ذلك لا يكون الا اذا طرق الحي غاز او لص . فوقف ليستريح ويفكر في امره فالتفت الى ما يحيط به فاذا هو في واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها فرأى شبحا يعدو صاعدا من الوادي كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم انه الراعي واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : « ما وراءك يا اخا العرب ؟ » ابن الجمل ؟

قال : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

قال : « جاء بي قلتي على الجمل ورغبتني في التعجيل بالاياب » .

قال : « وما الفائدة من انحدارك في هذا الوادي والليل دامس وأنت

لا تعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطرقك هذا الحي ليلا اذ نبجتك الكلاب ، لانها لم تألفك من قبل كما ألفتني لكثرة تردادي الى هذه القسرى » •

فقطع حسن كلامه قائلا : « مالنا ولهذا ؟ قل لي اين الجمل ؟ » قال : « لم أعر عليه في المكان الذي كنت أظنه فيه ، والظاهر انه قصد ماء اخر وقد كنت ذاهبا للبحث عنه في العقيق بجوار المدينة » • فاستعاذ حسن بالله وقال : « يا لله ! ما هذه المصيبة ؟ »

فابتدره الراعي قائلا : « لا تخف يا سيدي فلن يضيع الجمل ولو غاب عنك طويلا فان اهل البادية يرسلون ابلهم للمرعى وقد لا يرونها اياما ثم تعود بنفسها او يعود بها غلام او فتاة • وقد كان ذلك شأننا في زمن الجاهلية فكيف ونحن الان في ظل الاسلام ، وأما اتم معاشر اهل المدن فاذا غفل الرجل منكم عن عمامته خاف اختطافها » •

فمل حسن من جدال الراعي فقال له : « مالنا ولهذا الجدل ؟ اين الجمل وكيف السبيل اليه ؟ »

فقال : « يغلب علي ظني انه سار الى العقيق وهو ماء يخرج اهل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات او اياما في خيام يحملونها معهم ، وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولاثم » •

فقطع حسن كلامه قائلا : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فالعقيق مجتمع اهل الرخاء من الثريين وهو يذكرني ايام الشباب ، فقد كان العقيق موعدنا لتلقى نساء المدينة • لا تغضب يا سيدي اننا سائرون الان جنوبا نحو المدينة والعقيق في طريقنا اليها » •



استغرب حسن بعده عن المدينة شمال المكان الذي ترك سليمان وأباه فيه ، فقال للشيخ : «هلم بنا» • فمشيا والراعي على شيخوخته أسرع عدوا منه لانه تعود المشي في الوعر • اما حسن فلما صعد من الوادي والتفت الى السماء وتبين الكواكب فعلم انه في أواخر الليل بفت لضياع الوقت وهو لم يأت عملا بعد ، وتشاءم مما تأتى له في ذلك المساء وهو انما أمسك عن رؤية حبيبته رغبة في المسير الى مكة على عجل ، فكيف يعود الى الورا بعد قضاء الليل في المشي والقلق ؟

قضى مدة سائرا في أثر الراعي ، على ارض رملية ، بعضها رطب بما يرشح فيه من الماء ، وفكره تائه حتى رأى نجم الصبح فعلم ان الفجر دنا ثم رأى الراعي وقف وأشار اليه قائلا : «ألا ترى الماء امامنا عن بعد؟» قال : «اني ارى سطحا لامعا وكأنني ارى فيه سماء اخرى من انعكاس انوار الكواكب» •

ولما رأى الماء شعر بانسراح الصدر واستبشر ببلوغ أمنيته وجعل يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعله يرى اناسا او جمالا فلم ير شيئا • ثم سمع الراعي يقول : «ها اتنا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه احدا سوى آثار اناس كانوا هنا ورحلوا في أوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجلك في هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر» • قال : «دعني أسر معك» •

قال : «لا • امكث هنا واغسل رجلك وسأعود اليك على عجل فاني لا أنحقق الامر حتى اطوف حول هذا الماء • ولا حاجة الى مسيرك معي فقد تعبت ، وان كنت في عنفوان الشباب لان اهل المدن لا يقوون على المسير مثلنا» • قال ذلك والتحف العباء وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى ، وما لبث ان سمع الشيخ يناديه فنهض وأسرع حتى أقبل عليه فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الاغصان وقد قبض بيده على

شيء وهو يقول : «متى خرجت من المدينة؟»

قال حسن : «نحو الغروب» .

قال : «هل اطعمت الجمل قبل خروجك؟»

فتحير حسن بماذا يجيب لانه وكل أمر الجمل الى خادمه فقال : «اظن

الخادم أطعمه» .

فبسط الشيخ يده فاذا فيها أبعاد فقال : «ان هذه الابعار لجمل من

جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع» .

فاستغرب حسن بته في الامر وقال : «وكيف عرفت ذلك؟»

قال : «عرفته من هذه الاوساخ ، فان فيها النوى وهو علف جمال

المدينة لان النوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها انها وضعت من

عهد قريب . ولم أر واضعها فيكون قد عاد» .

فوجد حسن كلامه معقولا ولكنه لم يقتنع بأن الجمل الذي يشير

اليه هو جملة ، اذ لا يبعد ان يكون جمل اناس آخرين فقال له : «وما

الذي انبأك انه جملي وليس من جمال الناس مروا بهذا المكان الليلة؟»

فضحك الشيخ وقال : «لو كانت أبعاد الجمال كثيرة لرأيناها اصنافا

وألوانا . فهي اذن لجمل واحد ، وهذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا . وأي

جمل من جمال اهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا

ان يكون فارا مثل جملك؟»

فأعجب حسن ببداهة اهل البادية وتذكر اشتهارهم ببقافة الاثر ولكنه

ما زال مشككا في ان يكون ذلك الجمل جملة فقال : «لا ارى ما يمنع

بعض اهل المدينة من الخروج الليلة على جملة يلتمس بعض الاحياء فمر

بالعقيق ليشرّب او يستقي جملة او يستريح» .

قال : «قد يكون ذلك ، ولكن حال المكان ، لا يدل عليه ، لاني لا

ارى على الارض آثار آدميين» .

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن انه أفجمه : «الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جملة وانما وقف ريشا شرب ثم ساقه» .
فقال : «لا ، لان الجمل لا يستطيع الوقوف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليه راكب لانها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه احد» .

قال حسن : «ربما برك الجمل ؟»
قال : «لو فعل لشاهدنا آثار ركبه ، فما الجمل الذي مر من هنا الا جملك ، واذا صبرت هنيهة أريتك الطريق الذي سار فيه فيهون عليك طلبه» .

قال : «وكيف ذلك ؟» . وكان الفجر قد لاح ، وتبينت الارض جيدا فنظر حسن الى ما حوله وراجع ما قاله الشيخ فترجع لديه قوله ، وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة اهل البادية في قيافة الاثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال : «انظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جمل يعدو عدوا سريعا ، يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها ، ويظهر ان الجمل عاد الى المدينة» .

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا بد له من الذهاب اليها . فتذكر حبيته فيها ولكنه عاد الى التفكير في امر الجمل فقال : «اني لاستغرب ما رأيته اليوم من جملي ولم يكن عهدي به مثل ذلك من قبل» .

قال : «للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئا ساكنا فلا تراه الا وقد دلق لسانه وأرغى وأزبد وأركن الى الفرار كأنه أصيب بجثة ، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف ورعب او جوع . ومهما يكن من الامر فأطلب جملك في المدينة . وأما انا فاني أستأذك في العودة الى ماشيتي مخافة ان يكون قد اصاب ابلى ما اصاب جملك وهي وحدها هناك ما عدا

غلاما وأمه تركتهما لحراستها» •

فأثنى حسن على الشيخ وودعه وسار قاصدا المدينة وقد أنهكه التعب والقلق وأحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له فعول على أن يسير توا الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث بعد ذلك عن الجمل ، ثم تذكر حديث سليمان وأبيه وما فيه من الاشارة الى الفتك به فأحب استطلاع سراي سليمان قبل دخوله المدينة لئلا يكون فيه ما يمنعه من دخولها ، فسار يلتمس المكان الذي تركهما فيه بالامس فاستشرف أكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئا كالجبل البارك ثم ما لبث أن سمع جمجعه فأسرع حتى دنا من الجبل فاذا هو جملة بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وقد كسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عاريا لا رحل على ظهره ولا خطوم في رأسه فشك في أن يكون جملة وظنه جملا اخر ، ففترس فيه جيدا فلم يرفقا بينه وبين جملة ، ثم تذكر ميسه وهو العلامة التي يسمون بها الجبال بسماوات القبائل فنظر في الميسم فاذا هو الميسم الذي يعرفه فتحقق انه جملة وانه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه وود لو أن الراعي معه ليهبه الجمل فينجره لاهله • ثم عاد الى التفكير في الرجل وما كان عليه من امتعته وبينها كتاب خالد بن يزيد، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة وقال في نفسه : «لم يعد لي وطرفسي المدينة الان» • ووقف برهة ثم مشى الى الجهة التي ترك فيها سليمان مطروحا وبجانبه ابوه فرأى المكان خاليا الا من آثار الدم على صخر منبسط ، ورأى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فاستغرب تمزقه ، ثم طرح بقاياه وفكر في امر سليمان والكتاب فقال في نفسه : «لعل ابا سليمان عثر على الجبل وهو سائر الى المدينة فلما رآه معطلا حمل رحله معه على نية أن يدفعه الى عند المتقي» • فارتاح حسن الى هذه الفكرة وهدأ اضطرابه وترجع لديه ان

ابا سليمان حمل ابنه الى منزله في المدينة لمداواته ، فعول على الذهاب اليه .

وفيما هو سائر الى المدينة رأى غبارا يتطاير في عرض الافق مما يلي طريق مكة ، فوقف ينتظر ما يكون فاذا بثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلمشوا وساقوا الابل سوقا عنيفا ، ثم سمع قرعقة اللجم فعلم انها ابل البريد وكان لدواب البريد قعقة خاصة كأن أرسائها من سلاسل الحديد، او لعلهم كانوا يعلقون في أعناقها جلاجل او نحوها ، فمكث هنيهة ريثما مر البريد فعلم من لباس الرجال وهيئة الركب انهم من العراق فترجع عنده انه بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة .

- ٨ -

حسن وسليمان وأبوه

سار حسن في أثر البريد قاصدا بيت سليمان من اقرب الطرق فلما وصل اليه سأل عن سليمان فعلم انه مريض فتحقق انه هناك فاستأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان راقدًا وأبوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له ابو سليمان مرحبا به ، وأراد سليمان النهوض فأمسكه وأجلسه وجلس على طرف الفراش بجانبه وجعل يسأله عن حاله وسليمان يحمده الله على انه أحسن كثيرا ، ويعزو الفضل في شفائه الى نجدته اياه . فقال حسن : «ما أظن المصيبة جاءتك الا بسببي» . فقال سليمان : «أشكر الله لانه نجاك من الخطر» .

فتقدم ابو سليمان والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له : «اغفر
زلتي يا بني ، فان الله هددني بالقصاص حتى خفت فقد ابني ووحيدي،
وأشكره على السلامة ولانه أكسبني ابنا اخر» •

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة
ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ، ولكنه رأى في وجهه دلائل
السويداء وافقباض النفس فاذا ابتسم فكأنما يتسم تكلفا ، وذا ترك
ساعة او ساعات ظل صامتا لا يفوه بكلمة كأنه يفكر في مصاب محقق به •
ثم سألاه عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان
ينكلم وأبو سليمان يصغي اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعرفه كل
اتباهه • فلما جاء على اخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال:
«فلما رأيت جسلي بلا رحل على مقربة من المكان الذي كنا فيه ظننا انكم
عثرتم على الجمل ورأيتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لسي
عندكم» •

قال ابو سليمان : «كلا يا ولدي فاننا عدنا ليلا ، ولم نلتفت يمنة ولا
يسرة لانشغالنا بجرح اخيك سليمان ، وأنت هل مررت بالمكان الذي
كنا فيه ؟»

قال : «نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم ، ووجدت القباء مزقا وعليه
جلط الدم فعجبت لتمزيقه» •
فقال الرجل : «لا تعجب يا ولدي لتمزيقه لانه مزق قلبي فاتنفمت منه
فاعذرني» •

فاستغرب حسن ذلك وقال له : «بالله ألا قصصت علي خبر هذا
القباء ؟»

فقال له : «اعفني من خبره واقنع بما قلته لك ولو تلميحا» •
قال : «وماذا قلت ؟»

قال : « ألم اقل ان هذا القباء هو الذي مزق قلبي لانه كان دليلي الى
 الفريسة المطلوبة فاذا هي ولدي وقلدة كبدي » .
 ففطن حسن لأمر كبير كانت موضع شكه ، وتذكر انه ليس من
 يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عرفجة لانه اخذه من عنده ولم يلبسه
 قط ، فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس ، وظل صامتا برهة لا
 يتكلم ثم قال : « ألا تقول لي من الذي أغراك بقتلي ؟ » فاني اخشى ان
 اتهم اناسا ابرياء » .
 قال : « امرني بذلك رجل كبير في هذه المدينة . وهو صاحب السلطان
 الاقوى فيها » .

ففهم حسن انه يشير الى عامل المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم بما
 بين طارق وعرفجة من الصداقة . فترجح لديه ان لعرفجة يدا في هذه
 المكيدة ، لكنه اسرها في نفسه واعتصم بالصبر الى ان يتم مهمته بمكة .
 وأراد سليمان ان يذهب الانقباض عن صديقه فقال لاييه : « كيف
 رأيت هذا الصديق يا ابي ؟ »

فتنهذ ابوه وحاول الابتسام وقال : « لم اكن أشك فيما قلته لي .
 ولكن سوء حظي ساقني الى ما ارتكبته ولكنني أحمد الله على خلاصنا
 من هذا الخطر » . ثم التفت الى حسن وقال : اني أعترذ اليك من تعدي
 قتلك على غير معرفة بك ، ولا أظنني دفعت الى ارتكاب الجريمة الا بما
 جنيته من الذنب برجوعي عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما » . قال ذلك
 وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم عاد ابو سليمان
 الى الكلام فقال : « كنت من التوايين الذين ندموا على تخلفهم عن
 الحسين بن علي ، حتى قتل ظلما في سهل كربلاء » . ولكنني لم اثبت على
 توبتي فانتظت في خدمة الذين قتلوه ، ولا ريب ان عملي لم يرض الحق
 سبحانه وتعالى ، وعلى ان أكفر عن ذلك بتكريس ما بقي من حياتي لنصرة

اعدائهم ، وقد علمت انك سائر الى مكة فهل تستصحبني ؟ والا فاني هائم على وجهي في هذه الصحراء » .

فقال حسن : « اذا رافقتني فاني آنس بك وأتخذك ابا لي لان سليمان اخي ، ولكن ارى ان ... » . وأسكته الحياء .

فقال ابو سليمان : « تكلم يا بني ولا تخف فاني بمنزلة ابيك ، بل انا خادم لك ولا أستنكف من امر أجريه في خدمتك . قل ما بدا لك » .

قال حسن : « اذا كنت ترى ان تتفضل علي وتعاملني معاملة الاب لابنه فان لي عندك طلبا أستحيي ان أكلفك به » .

قال : « لا تستح يا بني » . قل » .

قال : « احب فتاة في هذه المدينة ، وقد خطبتها وأنا مضطر للسفر قبل العقد عليها ، ولا يخفى عليك قلب مثلي في هذه الحال » .

قال : « نعم . ماذا تريد مني ؟ هل تريد ان اوقف نفسي لخدمتها ؟ »

قال : « كلا فانها في بيت ابيها ولكنني قليل الثقة بمن حولها » .

قال : « من هي الفتاة ومن هو ابوها ؟ »

فوجم حسن برهة ثم قال : « اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها — ولا ارى بدا من ذلك — فأخبرك انها سمية ابنة عرفة الثقفي » .

فلم يتم حسن قوله حتى بهت ابو سليمان وازداد لونه امتقاعا وأطرق وصارت لحيته ترقص في صدره ، وكان حسن يلاحظه وقد ادرك ما جال في خاطره . وجعل ابو سليمان يهم بالكلام ثم يسك لانه كان مطلعا على تردد عرفة على مجلس طارق ، وعرفة مشهور في المدينة بخيائته وسوء نيته .

اما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلا : « لا أكلفك اطلاعي على سر ، فقد فهمته وهذا يكفي » . اما الفتاة فخطيتي ولا شيء يسكن ان يشيها عني او يثنيها عنها . وانما ارجو ان تبحث عنها وتعرف احوالها

وهذه هي وصيتي اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه» .

فقال ابو سليمان : «انا عند ما تريد ، وسأولي امرها اهتمامي ، كما أهتم بولدي هذا . كن في سكونة وراحة بال» .

فلما فرغ حسن من امر سمية عاد الى التفكير في الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه انه قد يلقي خادمه في المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم فانه يكتفي بإبلاغ عبد الله بن الزبير ففد الكتاب ويرى ما يكون ، فنهض مودعا . فقال له ابو سليمان : «اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذي كنا فيه امس . اخرج من باب اخر وأنا ارسل معك خادمي يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك ، وسأقدم لك جملا احسن من جملك فأنتهم بالا وكن على ثقة اننا انا وسليمان في خدمتك حتى تبلغ مرامك» . ثم صاح : «يسا بلال» . فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح فقال له : «هبيء الجبل الاشرم . واملا القرب ماء وأعد زاد السفر» . فذهب بلال ثم عاد وقد أعد كل شيء فقال ابو سليمان لحسن : «اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة» .

فقطع حسن كلامه وقال : «فاتي ان اخبركم عن ابل البريد ، فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة في هذا الصباح وأظنها قادمة من مكة» . قال ابو سليمان : «لا يبعد انهم جاءوا لطلب نجدة او مدد ، او بخبر فتح او شيء من ذلك ، اما انا فاني سأنتقل من هذا البيت الى سواء وأختفي يومين او ثلاثة حتى لا يراني احد لئلا يطلبوني للسير معهم» . ثم ودعهم حسن وركب الجبل وسار بلال في ركابه ، وبود حسن لو يعيد النظر الى سبية قبل سفره ولكنه اراد العجلة وخاف الوقوع فيما هو شر من ذلك .

- ٩ -

سمية في منزل سكيئة

فلتترك حسنا قاصدا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من امر سمية بعد سفره ، فقد تركناها عائدة الى بيت سكيئة ومعها عبد الله خادم حسن يسير في خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية : « قد وصلت الى مأمني فانصرف » . وكانت قد استأنست به لانه تقفي مثل ابيها فلما ودعها قالت له : « قد علمت يا عبد الله منزلة حسن مني فارعه وكن صادقا في خدمته » .

فقال : « اني عبدك وعبد يا مولائي ، واني افديكما بروحي » . فاطمأت سمية وأشارت اليه برأسها اشارة الوداع ، فتحول مسرعا يلتس باب المدينة ليلحق بسيدة .

اما سمية فانها اقبلت على بيت سكيئة حوالي العشاء ، فتظاهرت بأنها كانت في بعض جوانب المنزل ، وسارت الى مجلسها ، فرجبت بها وسألها عن سبب تخلفها . فقالت : « كنت مشغلة في بعض الغرف هنا » . فقالت لها ليلي : « قد بحثنا عنك فلم نجدك ، وأخشى ان يكون أبساك استبطأ عودتك » .

قالت : « ربما استبطأني ، ولكنني هنا في مأمن من غضبه : ومتى استبطأني بعث في اثري » .

فلما سمعتها سكيئة تقول ذلك امسكت يدها وقربتها اليها حتى اقعدها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها : « اهلا بك يا سمية انك من أعر الاحباء » . وكانت سكيئة تستلطف سمية وتحبها . فقالت سمية : « لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سبط الرسول ، ان

اقامتك بهذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا» .
ثم جاء الخدم يدعون سكىنة الى المائدة ، وقد مدت الاسطة قفمن
للعشاء . وأما سمية فعدت الى هواجسها واستغربت سكوت اييها عنها
الى ذلك الحين . ثم خطر لها انه غائب عن البيت ويحسبها فيه . فرأت
ان تستأذن سكىنة في العودة الى البيت فأذنت لها ، وبعثت معها بعض
الجواري ليوصلنها اليه .

ولما وصلت سمية الى باب البيت قرعته بطريقة يعرفها الخدم فأسرعت
جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهي تقول : «لقد ابطأت علينا الليلة
وشغلت بالنا» .

وكانت هذه الجارية حبشية الاصل اسمها امة الله ، تحب سمية
كثيرا ، كما ان سمية كانت تستأنس بها وتكرمها فلما ابطأ قدمها في تلك
الليلة شغل بال الجارية ولم تستطع رقادا ، حتى طرقت سمية الباب
فتفتحت لها ، وترامت عليها وقبلنها ورحبت بها ، فقالت لها سمية : «ألم
يأت ابي ؟»

قالت : «جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعاومة وأقفل بابها ، وما
زال هناك ولا يدري احد ماذا يعمل لانه أثار السراج وحمله بيده الى
الغرفة على عادته» .

فدخلت سمية غرفتها وخفت ثيابها لتوهم أبأها اذا رآها انها في
البيت من مدة طويلة . ولم تستغرب مكثه في تلك الحجرة طويلا لانه
كثيرا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون ما في
تلك المحفة المخزونة هناك . ولولا خوفهم من غضبه واستبداده لتوصلوا
الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوته وشدة وطأته .

ثم رأت سمية ان تلجأ الى فراشها قبل خروج اييها من مخبئه مخافة
ان يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما اساء الظن بها ، فجلست على

فراشها ، ودعت أمة الله لتمشط لها شعرها قبل النوم فجثت الجارية خلفها وجعلت تشرح الشعر وتمشطه ووجه سمية الى باحة الدار ، وكانت سمية ترتاح الى مكاشفة أمة الله ببعض ثؤونها الخاصة فقالت لها : «هل شغل بالكم غيابي الليلة ؟»

قالت : «نعم يا مولاتي ، لانك قلما تطيلين الغياب ، ولاسيما ان عبد الله جاء للسؤال عنك» .

قالت : «وأي عبد الله ؟»

قالت : «الرجل الذي جاء صباح اليوم» .

فعلمت سمية انه عبد الله خادم حسن ، فبغت لعلمها انه فارقتها ليلحق بسيدته على عجل فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها : «متى جاء ؟»

قالت : «جاء قبل وصولك بقليل» .

قالت : «وهل جاء وحده ؟»

قالت : «لم أر معه احدا» .

ففكرت سمية في الامر ، فوجدت انه جاء بعد ان فارقتها بساعة او ساعتين ، فتبادر الى ذهنها انه لم يأت الا لغرض اراده حسن منها ، او لشر اصابه ، فتوالت عليها الهواجس واستغرقت في التفكير ، وعادت الجارية الى تمشيطها وهي في غفلة عن كل ذلك .

وبينما سمية غارقة في لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى باحة الدار فرأت فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلت ان أباهها خرج من الحجرة السرية . ثم اختفى النور وسمعت تصفيقا فعلت ان أباهها يدعو الخادم فخافت ان يكون عازما على استدعائها ، فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية : «لم يعد لي طاقة بالجلوس فقد اخذ مني النعاس مأخذا عظيما فاتركيني ، واذا سألت عني ابي فأخبره بأني نائمة منذ حين» . ففهمت الجارية غرضها فضحكت وقالت لها : «لا تخافي» . وتمددت

سمية في فراشها وتظاهرت بأنها استغرقت في النوم ، وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها ، وسمعتها تذكر له انها نائمة فانصرف .
وأصبحت في اليوم التالي وهي ما زالت في حاجة الى النوم ، فظلت في الفراش حتى الضحى ، ثم جاءتها جاريتها بباء للغسل وبطعام ، فسألها عن ايها فقالت : «أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدي على عجل ، فخرج وهو لم يتم لف عمامته » .

فأطرقت سمية وفكرت في الامر ، فحدثتها نفسها بأن لهذه الدعوة علاقة بخطيها . ولما تذكرت سوء قصد ايها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها امس ، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما اصاب حسنا - وذلك شأن المحب البعيد عن حبيبه فانه لا يكاد يطمئن قلبه عليه واذا سمع احدا يذكره تبادر الى ذهنه انه في خطر وقد يفسر الاشارات والرموز والحوادث بما يؤكد ذلك - فكيف بسمية وهي تعلم ما ينويه ابوها لخطيها ؟ فلم تتناول من الطعام الا قليلا ، ولبثت جالسة تفكر في سبب خروج ايها وتخاف ان يكون فيه ما يسوء خطيها .



قضت سمية اكثر النهار في قلق واضطراب ، تارة تمشي في الدار ، وآونة تخرج الى البستان ، وهي تتوقع ان ترى عبد الله آتيا او تسمع خيرا . ثم سمعت أذان العصر فالتفتت الى مصدره جهة باب البيت فرأت أباهما داخلا فحقق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداهما اليه فتبعته وهي ما زالت في اضطراب ، ولكنها تظاهرت بارتياح حتى أقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب ينزع نعاله وقال : « كيف قضيت يومك امس عند سكينه ؟ »

قالت وهي تتبعه الى وسادته التي تعود الجلوس عليها : «قضيتـه
مرورة ، وعدت وأنت في الحجرة فمت ونهضت في هذا الصباح ،
فعلمت انك خرجت مبكرا فشغل بالي» •

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامة متكلفة
فلما جلست قربها منه وضماها وقبلها فأحست ببرد شفـتيه واقشعر بدنـها
لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ما كانت فيه من التهيج العصبي
الناجم عن القلق ، وقبلت يده فاذا هي أبـرد من شفـتيه • وتوقعت ان تسمع
منه شيئا بعد هذا التملق فاذا هو يقول لها : «أظنك ملت طول المكت
في هذه المدينة؟»

قالت : «اذا كنت انت في خير وسعادة فكل حال ترضيني» •
فأعجبه قولها وألقى يده على كتفها وجعل يلعب شعرها بين انامله
ثم قال : «بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب
الوالد ، هذا هو البر الذي كنت ارجوه منك • فالحمد لله الذي أذهب
ما كان يخامر ذهنك ، وعدت الى ما هو جدير بأمثالك من النزول على
حكم آبائهن» •

فأحست سسية من هذا التعريض كأن صخرة وقعت على رأسها ،
وأسرع خفقان قلبها • ولو اتبه ابوها وهي مستلقية على صدره لسمع
دقات قلبها ولادرك اضطرابها • او لعله ادرك وتجاهل خبثا ورياء • ثم
قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : «سندهب غدا لترويح النفس فسي
العقيق فانه منتزه جميل ، فهل يسرك ان نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضي
يومنا هناك؟»

فعمجت سمية من عناية اييها بأمر نزهتها والترويح عنها ، ولاسيما انه
كان لا يخاطبها بالحسنى او يلاطفها الا اذا كان له مأرب من وراء ذلك •
فأصبحت لا تسمع منه مثل هذه الملاطفة الا توقعت شرا ، ولكنها لم تكن

تستطيع غير مداراته فقالت : «اشكرك يا ابي على هذه العناية» .
 فقطع كلامها وقال : «لا شكر على واجب ، فاني ابوك ، وسأخير
 الخدم ليعدوا لنا خياما وطعاما ويسيروا امانا الى العقيق قبل الفجر ، ثم
 نركب انا وأنت عند طلوع الشمس ونقضي يومنا في العقيق ، فقد مللنا
 المدينة وأسواقها ونخيلها» . قال ذلك بنعمة الاب الحنون ، فلم يسع
 سمية الا مجاراته ، على انها كانت أشد حاجة منه الى النزهة ، وخطر لها
 انها ربما استطاعت في اثناء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله
 او تسمع خبرا عنه او عن حسن . فأثنت على ابيها وقبلت يده ، فقبلها ثم
 سفق فجاء عبد اسود كان قد فوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيقا
 على اهل بيته . وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلسى
 أفتس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، ويندر ان يتسم فاذا فعل
 فانه يكشف عن أنيابه . فلما وقف بين يديه قال له : «يا قنبر ، اننا عازمون
 على الخروج في صباح الغد الى العقيق فأعد ما نحتاج اليه من الخيام
 والاطعمة ، وهبىء الهودج لسمية ، ثم اسبقنا مع الخدم عند الفجر ،
 وسنلحق بكم بعد ذلك» .

قال : «الامر لمولاي» . وخرج .
 ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية ، واتجهت سمية الى غرفتها
 وطلبت من جاريتها امة الله ان تنهيا لمرافقتها في صباح الغد .



باتت سمية ليلتها والاحلام المزعجة تتناها ، وترها حسنا في خطر ،
 ورأت مناظر مخيفة اخرى ، فنهضت وهي في اضطراب شديد . فاذا
 ابوها قد خرج ونهيا للرجل ، وجاءتها الجارية فمشطتها وألبستها ثيابها .
 ثم ركبت معها الهودج ، وركب ابوها بغلة ، وساروا وقد امسك بخطام

الجمال احد الخدم •

وجعلت سمية تطل من خلال الستور على المارة في الطرق وتتفرس فيهم ، فاستغربت امة الله ذلك منها لعلها بأدبها وحشمتها • وزاد في استغرابها شدة ما لاحظت في وجهها من القلق • فلما خرجوا من باب المدينة بالغت سمية في التطلع نحو الطريق الذي يؤدي الى مكة لعلها ترى اثرا او تستطلع خبرا فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا ، وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، فذهلت ولم تفهم امر هذا المعسكر ، ولم تر بدا من ان تسأل أباها فأخرجت رأسها من بين الستور لتبحث عنه فإذا هو قد أركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام ان يظل في مسيره فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد في عينيها •

وفيما هي تتطلع سمعت جمعة جمال يتألم فالتفت فرأت جمال حسن الذي ذكرنا امره ولم تكن قد رأته الا في اثناء مقابلتها حسنا في المساء ، ولكن صورته انطبعت على ذهنها • فلما رأته خفق قلبها كأنها تسامت منه رائحة الحبيب ، فأوقفت الهودج عنده ونظرت اليه فرجحت انه جمال حسن وجعلت تفكر في الامر ، فخیل اليها ان حسنا قتل وقد اخذ قاتلوه رحل الجمال وخطامه وتركوه • فلما تصورت ذلك تساقطت دموعها وخفق قلبها جزعا واشفاقا •

وكانت امة الله تلاحظ سيدتها ولكنها لم تجرؤ على مخاطبتها في هذا الشأن الا لما رأت دموعها تساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم: «ما بالك يا سيدتي تبكين لا اراك الله سوءا؟»

فلما سمعت سمية سؤال الجارية اجهشت في البكاء حتي علا صوتها، فأمسكتها امة الله وقبلت يدها وقالت لها : «بالله كفي عن البكاء وأخبريني

• ما سبب ذلك فلعلني أنفعك في شيء» •

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكهما ، ثم التفتت الى خارج الهودج فلم تجد أباهما عاد ، ولا رأت احدا يسمعا ، فقصت على جارتها الحديث مختصرا ، وأطلعتها على مكنون قلبها • فشاركها الجارية البكاء ثم قالت لها : « انك لم تتحقي ان هذا الجمل جبل حسن ، وهبي انه جملة فليس معنى هذا انه أصيب بسوء ، ولا أحسب هذا الجمل الا لبعض اهل هذا المعسكر انكسر فتركوه ، ومهما يكن من شيء فليس هناك ما يدعو الى الاخذ بالظن والتوهم» •

فارتاحت سمية لهذا التعليل ، ولكنها تذكرت عبد الله ورجوعه الى منزلها في تلك الليلة فقالت : «ولكن ما سبب رجوع خادمه اليها؟»
قالت الجارية : «قد يكون جاءك رسالة من حسن فلما لم يجدك عاد اليه بها وسافر معه ، ولولا ذلك لرأيتك امس • وقد مضى يوم ونحن الان في ضحى اليوم الثاني ولم نره» •

فقطعت كلامها وقالت : «أتظنني اذا علم بسوء اصاب حسنا ، ينقل ذلك الخبر الي؟» • قالت : «دعي عنك هذه الافكار وتوكلي على الله» •
وفيما هما في الحديث سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان ابسا سمية قد عاد ، وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فأطلت عليه فقال لها : «لعلي غبت عنك طويلا؟»

قالت : «نعم ، وقد رأينا خياما وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب وجودها» •

فأجابها وهو يحاول اصلاح الرسن في رأس البغلة : «ان هذا معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وجنده قاصدا مكة» •
قالت : «ولماذا؟»

قال : «جاء بريد الحجاج بن يوسف امس يستقدم طارقا ورجاله

مددا له في حصار مكة وعما قليل يسافرون» • قال ذلك وساق بفلقته
متظاهرا بأنها هي التي اسرعت من تلقاء نفسها ، فانقطع الحديث • وسرت
سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير في حسن لعلمها تلتبس تعليلها يريج بالهام
والمرء ميل الى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم
على ذلك • فبعضهم اذا وقع في مصيبة هان عليه تطبيق عواطفه على تلك
المصيبة فيجعل لنفسه مخرجا من سوء عواقبها ومنهم من يزيده قلقا
ولكنه لا يلبث وان طال قلقه ان يتوصل الى حل يتوكل عليه ريشما يرى ما
يأتي به القدر •

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ الخروج من المدينة ،
فظلت سمية تسرح نظرها فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك المساء
وغابات النخيل ، وهي كأنها لا ترى شيئا لاستغراقها في عالم الخيال ، فلم
تتنبه الا على رائحة الشواء ، فالتفتت فاذا هي على مقربة من ثلاث خيام:
اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة • فنظرت قرأت نفسها
على غير ماء العقيق ، وكانت تعرفه فتفرست فيما حولها فاذا هي ما زالت
على مقربة من المدينة وخيام المعسكر ظاهرة • وتفرست في الخيام فأدركت
انها خيامهم ، فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليه اهمية اذ لم يكن لها
رغبة في العقيق او غيره •

وجاء الخدم فأناخوا الهودج بقرب الخيمة المنفردة فنزلت سمية
وجاريتها ودخلتا الخيمة ، ثم رأت سمية أباهما واقفا مع عبده على انفراد،
وكانت تكره هذا البعد كرها شديدا لغلظ طبعه وفطاعة خلقته ، فاستعادت
من شرهما بالله •

- ١٠ -

القتل او الزواج بالحجّاج

عادت سمية الى هواجسها بعد ان دخلت الخيمة ، فأخذت تفكر في حسن وجمله ، وتصورت وقوع ما تخشاه عليه من القتل فازداد بلبالها • ثم خرجت امة الله لمساعدة بقية الخدم في اعداد الاطعمة وظلت سمية في الخيمة وحدها •

وفيما هي على تلك الحال سمعت سعال ايها ، ثم رأتها والعبد قنبر قادمين نحو خيمتها فاستعازت بالله من شر ذلك القدوم ، ثم رأت العبد يبطن بينا أسرع ابوها حتى وصل إلى الخيمة فنهضت للقائه ، فقال لها: «كيف رأيت هذا النهار ؟ انه جميل أليس كذلك ؟»

فتظاهرت بالابتسام وقالت : «انه نهار جميل ، ولكنني سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق ، وأرانا ما زلنا يباب المدينة !»

قال : «ان العقيق بعيد فأحببت ان نستريح قليلا ثم نستأنف المسير الى العقيق • وما أريد الا ان تكوني مسرورة فرحة وألا اراك منقبضة النفس وقد تهيأت لك اسباب السرور وانك لتعلمين حبي لك ، وانني انقطعت عن العالم لاجلك •• ولا أدخر جهدا في سبيل راحتك وسعادتك» • فلما رأت مبالغته في التلطف خافت ما وراء ذلك وظلت ساكنة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال : «ولقد سرني منك انصياعك الى مشورة ابيك في شأن ذلك الشاب ، ورجوعك الي ما هو جدير بأمثالك • ويسرني ايضا ان أبشرك بسعادة قد وفقك الله اليها ، ويندر ان تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يغبطنك عليها» •

فازداد قلقها وأحست من وراء ذلك الكلام نذير سوء يزيد في

اضطرابها ، فظلت ساكنة وقلبها يخفق ، ومالت الى استطلاع ما في نفس ايها ولكنها خافت ان يكون في علمها بذلك ما يسوءها ، فلبث صامته لا تدري ما تقول . وكان هو ينظر الى وجهها خلسة ، ويتشاغل بالعبث بلحيته . فتوقع ان يسمع منها استفهاما ، فلما بقيت صامته دنا منها وهي مستندة الى عمود الخيمة ووقف امامها وأسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها . فاضطربت وازداد قلقها فلم تعد تصبر على السكوت ، ثم اذا هو يقول لها : «لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة التي اعدتها لك ، ألا يترك أن تعلمي بما يبذله ابوك في سبيلك ؟ انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش» . قال ذلك وأشار الى المعسكر .

فلما سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتها لاحد كبار رجال الجيش، فتحققت سوء ما أضمره لها بالامس وانها مقبلة على خطر شديد ، فارتبكت وحارت في امرها ولم تدر بماذا تجيب ، ولكن الاضطراب بدا على وجهها . ولو انه تفرس في قرطها لراهما يرتعشان ارتعاشا يحاكسي خفقان قلبها — وما ارتعاشهما الا من رجح ذلك الخفقان — واحمرت وجنتاها فتشاغلت باصلاح دمالجها في معصمها والنظر اليها في حين انها لم تكن ترى شيئا لان الدمع غشي بصرها ثم تساقط كاللؤلؤ على معصمها . فلما رآها تبكي تحقق انها لا تزال عالقة القلب بحسن ، فأراد ان يقطع املها منه فقال لها : «ما بالك لا تجيبين ؟ ألم يعجبك ما دبرته لك من اسباب السعادة ؟ ام لم تفهمي مغزى كلامي ؟ انك ستكوين سيدة نساء هذا الجند وجند بني أمية المحاصرين مكة الان ، واذا أشكل عليك فهم مرادي فاعلمي انك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير أمراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو ثقيف مثلنا ، وله ما لا أزيدك يانا عنه من علو الشأن» .

فلما سمعت تصريحه لم تعد تماالك نفسها ، فغطت وجهها بكمهها وأسندت رأسها الى العمود وظلت صامته وقد حبست نفسها عن البكاء او التنهد حتى كادت تختنق وهي لا تدري بماذا تجيب ، مخافة ان يفتك بها ، فلم تر سبيلا غير البكاء . فلما رآها تبكي أمسك يدها وأبعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهي تبالح في الاطراق فقال لها : «أحسب صورة ذلك الغلام في ذهنك ، مع انه قد مضى وانتهى امره فلم يبق لك سبيل اليه . فاذا كان في قلبك بقية امل فيه فانزعها واطرحها جانبا» .

فأحفلت سمية ، ورفعت رأسها ونظرت الى ايها وعيناها تقطران دمعا وكأنها في شك من قوله ، فابتدرها قائلا : «صدقيني انه لم يعد لك سبيل الى حسن ، ولا سبيل له اليك ايضا ، لان امره قد انقضى وأصبح في عداد الاموات» .

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من في الخيام ، ولطمت وجهها وقالت : «حسن مات ؟ مات ؟ لا . لا . لا . انه لم يمت ، انه حي» . قالت ذلك واستغرقت في البكاء ، وجلست على حصير من سعف النخل كانوا قد فرشوه في ارض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها وأطلقت لدموعها العنان وأبوها ما زال واقفا وقد بغت لما رآه منها ، على انه قال لنفسه : «انها لا تلبث ان تفرغ من البكاء ، فمتى تحققت موت حسن عادت الى رأيي» . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ، ثم عاد فقال لها : «اراك كأنك لم تصدقي قولي مع انك تعلمين اني لسم أكذبك قط . صدقيني ان حسنا قتل في اثناء خروجه من المدينة فلا سبيل الى رجوعه . أم تريدن ان تقتلي نفسك من اجله؟»

فصاحت مولولة وقالت : «نعم أقتل نفسي ، ولا غرض لي في الحياة بعده . لقد قتلتموه ظلما وغدرا ! . ويلك يا ظالم ! . كيف قتلته ؟ . اقتلني معه . . اقتلني !» . قالت ذلك وعادت الى البكاء ، فلما رأى

عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها : «انا لم اقله ولكنه قتل بذنبه .
ولا فائدة من البكاء عليه ، فاشكري الله على انه مات قبل ان يقتل بك ،
والا ما وجدت حظوة في عيني الحجاج» .

فقطعت كلامه وقالت : «ما لي وللحجاج ؟ اني لا اريد غير حسن .
حسن خطيبي . هو وحده جيبني حيا او ميتا» . ثم أجفلت وقالت : «لا
لا ، لم يمت حسن ، بل هو حي وأيدي الظلمة اللثام تقصر عنه» .

فقال عرفجة : «ألا تزالين تنكرين قتله ؟ هل أريك جثته لكسي
تصدقني ؟» . فوثبت سمية من مجلسها وقالت : «لا . لا . لا تريني اياه
ميتا . ويلاه ! قتل حسن . قتله انت يا ظالم ! فاقتلني وأرح نفسك
مني وأرحني من الحياة . اقتلني كما قتلت رجلا اقتذك وأتخذ اهل بيتك
من القتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » . قالت ذلك وقد أحست
بقوة عجيبة ويشت من الحياة . فلما سمع عرفجة تقريرها صاح بها :
«اقصري يا فاجرة ، أبمثل هذا الكلام تخاطبين أباك ؟» والله لولا حرمة
البنوة ولولا ان يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه ... ولكنني
أعاملك معاملة صنية حمقاء ، وسأصبر عليك قليلا فاذا آيت الا ما بدا
من وقاحتك فاني قاتلك بهذا الخنجر !»

قال ذلك واسئل من منطقته خنجرا لمع نصله كالبرق فلما رأت النصل
تعرضت له وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول : «اضرب . اغمد
خنجرك في هذا القلب . اطعن . أتخوفني بالموت ؟ ان الموت أحب الي
من الحياة» .

فلما رأى منها ذلك العناد صاح قائلا : «أهذه نتيجة تعبي في تربيتك
يا فاجرة ؟ لقد حل لي قتلك ، ولكنني لا ألوث يدي بدمك وسترين قبل
موتك جميع اصناف العذاب» . ثم صاح : «قنبر» . فأقبل ذلك العبد
بأسرع من لمح البصر كأنه كان في جيب عرفجة وأخرجه بيده ، وقال :

«ليك يا مولاي» • فقال له : «شد يدي هذه الخائنة بالامراس وقيد رجليها بالجبال وسأريها عاقبة العناد» •

فلما رأته سبية قنبر مقبلا نحوها وتبت من مقعدها وصاحت به .
«اذهب يا عبد السوء لا تدن مني • اغرب من وجهي ، لا تدن مني •
ادهب قبح الله وجهك» • قالت ذلك وهي لا تعي ما تقول •

اما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعده للمثل هذا الغرض ، وهجم عليها وهو لا يبالي صياحا فقبض على يدها وهي تحاول التخلص منه ، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل أشد الرجال ونسيت حزنها ، ودفعته عنها وهو يحاول اخضاعها بلا عنف ، فلما رآها ندفعه وتقاومه عزم على استعمال العنف فصاح فيها صيحة دوت دويا عظيما وجذبها من يدها فلطم رأسها عمود الخيمة ، فوقعت مغشيا عليها ، فأخذ في شد وثاقها غير مكترث لحالها •

وكان الخدم قد سبعوا صياح سمية ، ولكن لم يجرؤ احد منهم على الاقتراب من الخيمة الا امة الله جارتها فانها هرولت خلصة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبت تسترق السمع • فلما رأت هجوما قنبر على سيدتها علمت انه لن يصح من قتلها ، ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت ان يكون قد اصاب سمية سوء ، فلم تر سبيلا الى نجدها الا بالحيلة ، فأسرعت الى عرفة وترامت على قدميه وقبلتها وقالت :
«بالله ألا اشغقت على سيدتي وأغضيت عن جراتها وأنا اضمن لك كل ما تريده منها» •

وكان عرفة يعامل سمية بذلك العنف لكي يحملها على قبول الزواج بالحجاج ، لانه يرجو من وراء ذلك منفعة كبرى لنفسه • وقد ذكرنا ما فطر عليه من حب الذات والطمع مع سوء النية • وقد بلغ منه الطمع حدا هون عليه تقديم ابنته ضحية على مذبح أغراضه ، ومات

ضميره فلم يعد يهجه ما يرتكبه في سبيل بلوغ مقاصده . وكان يعلم ان الحجاج يرغب في الزواج بسمية ويذل لها مهرا كبيرا ، ولكنه كان يخاف ان تشكوه لعبد الملك بن مروان بوساطة سكينه بنت الحسين او غيرها من اهل الوجاهه والنسب في المدينة . فلما اطمأن الى مقتل حسن اخبر طارقا بن عمرو امير المدينة بأن مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف وانه يعلم برغبته فيها . وكان طارق ايضا مثل عرفة قسوة وطمعا ولا سبيل له الى غرضه الا اذا تقرب الى الحجاج بما يرضيه ، فرأى ان يتقرب اليه بسمية فيخطبها له ويحملها اليه . فوافق عرفة وساعده على التخلص من حسن ودفع اليه بعض مهر سمية ، على ان يأخذ بقية المهر بعد وصولها الى الحجاج بالقرب من مكة .

وكان عرفة يعلم ميل ابنته الى حسن ، ونفورها من الحجاج وغيره ، ويتوقع اباها فهياً الاسباب لاقناعها بأية وسيلة ، وتواعد مع طارق على ان يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج مكرهة ولم يكن هو ينوي الذهاب معها لغرض له بالمدينة يتعلق بتلك المحفة السرية ، فأراد اقناعها خارج المدينة وارسالها توا الى مكة مخافة ان تفر الى سكينه وتلتجئ الى بيتها في المدينة فتحميها او تساعدوا في ابلاغ امرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . اما بعد ان تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج فلا يعود هناك محل للشكوى . ولا يهجه ان تشكو سمية اذ يكون قد نال بغيته ، ولذلك اوصى طارقا بأن يعقد الحجاج قرانه بها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل امل في النجاة . ثم احتال في اخراجها الى المعسكر كما تقدم . فلما رأى نفورها مما عرضه عليها من امس الحجاج ، اصدر امره الى قنبر بشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها .

فلما لقيته أمة الله وترامت على قدميه ووعدهته باقناعها ، نادى عبده فخرج ، وأمر أمة الله فدخلت الخيمة وحدها ، فرأت سيدتها مغمي عليها فبادرت الى ركوة من جلد فيها ماء فرشت سمية به حتى افافت ، وأخذت في حل وثاقها • فلما رأت سمية جاريتها فوق رأسها تقبلها وتحساول انعاشها ، ارتدت روحها اليها ، وسمعت أمة الله تقول لها بصوت منخفض: «ماذا فعلت بنفسك يا سيدتي ؟ ما هذا الذي ارى ؟»

فعدت سمية الى البكاء وقالت : «أتسأليني يا أمة الله عن ما تربيته، لقد مات حسن قتله الظالمون قبحهم الله» •

فقطعت أمة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست في أذنها وقالت : «اخفضي صوتك لتدبر الامر بالحكمة لان العنف لا يجدي» • قالت سمية : «دعيني يا أمة الله • فاني لا اريد الحياة بعد مقتل حبيبي ومنية فؤادي حسن • لقد قتلوه لعنهم الله ! ليتهم قتلونسي عوضا عنه» •

فتقطع قلب أمة الله حزنا على سيدتها ، ولكنها كانت عاقلة حكيمة صاحبة دهاء ، فتجلدت وقالت : «من قال لك انهم قتلوه ؟»

قالت : «أتسأليني ؟ • أما رأينا معا جملة مكسورا مهجورا ؟ • وهي ان ذلك لم يكن يدل على قتله فما قولك وقد اخبرني بقتله ابي الظالم الخائن ، وعرض علي ان يريني جسسه رأي العين ؟ • هل بعد ذلك من شك ؟ وهل تلوميني اذا ندبت حياتي ونحت على شبابي ؟ • وهل ترين سيلا الى راحتي غير الموت ؟»

فقال الجارية : «ان امر القتل لا يمكن ان نعهده يقينا حتى الان ، وليس يخفى عليك رغبة ابيك في تزويجك بالحجاج ، فلعله ادعى ان حسنا قتل لكي يحول قلبك عنه ، ومع ذلك فان قتلك نفسك امسر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد ان تتيقني انهم قتلوا حبيبك •

فعليك ان تصبري ، ثم اذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ورأيت الحجاج
أوشك ان يبلغ مرأته منك ، فليس أسهل من ان تقتلي نفسك بتجرع السم
قبل وصوله اليك» •

قالت : «ومن اين آتي بالسم ؟»

قالت : «انا آتيك به ، فاشترطي على ابيك ان اكون في خدمتك ،
وأنا أهيم لك السم ، ومتى تحققت انقطاع الامل ، أسعفتك به ،
وتجرعت منه معك ، اما الان فدعي العناد وتظاهري بالرضا ، ولا يبعد ان
يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر ، او قبل وصولنا الى مكة ، او
لعلنا نجد حسنا في الطريق فتذهبين اليه • وليس يليق بك ان تطلقني
لنفسك عنان اليأس ، اذ ماذا يكون الشأن اذا قتلت نفسك وكان حسن
لا يزال حيا ؟»

فلما سمعت سمية كلام امة الله أحست بانسراح صدرها وارتاح بالها
وعادت اليها الآمال • والانسان سريع الرجوع الى الامل لان طبيعة
الوجود تبعده عن اليأس ، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار
حبا في البقاء ، ويندر ان يرتكب احد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة
والتبصر • وما لبثت سمية ان استحسنت رأي جارتها فقالت لها :
«افعلي ما بدا لك ، فأنت تعرفين ما في قلبي ، فعسى ان يأتيني الله
بالفرج على يدك» •

فسرت الجارية لنجاحها في اقناع سيدتها ، ولكنها شعرت بهول
الموقف ، وكانت ترجح موت حسن • على انها عمدت الى الصبر وخرجت
الى سيدها وكان واقفا مع عبده تحت نخلة • فلما رآها اوأا اليها ان
تدنو منه • فمشيت منحرفة عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به • فمشى
وحده حتى التقيا • فقالت : «اني رأيت سمية مطيعة لك في كل ما تريد،
لكنها استوحشت معاملة قبر فلا تدعه يخاطبها او يكلمها • ولا يخفى

على مولاي ان من كان في حال سمية لا يؤخذ بالعنف ، وقد خاطبتها
الان باللين فرأيتها لانت . ولا بد من جلسة اخرى أتمم بها المراد . فاذا
كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فدعني اكن في خدمتها
حتى تأتي الحجاج ولك علي كل ما يسرك» .

فاطمأن بال عرفة وهان عليه ابعاد قنبر عنها ، وأطاع امة الله في
ارسالها معها وقال لها : «لا بد من ذهابها الى خيمة أعدوها لها فسي
معسكرهم ولا آمن ان تسير وحدها ، فاذهي انت معها وأكددي لها اني
لم أفعل ما فعلته الا رغبة في راحتها» .

فقبلت امة الله يده وقالت : «بارك الله فيك ، ولكن سمية تحتاج الى
احضار ثيابها وأدواتها» .

فقطع عرفة كلامها وقال : «كل شيء معد لها في خيمتها بالمعسكر
وما عليها الا الرجوع اليه» .

نقلت امة الله : «ادخل الان عليها في الخيمة ، وكلمها كلاما ليئا» .
فالت ذلك ومشت فمشى عرفة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة
باكية ، فدنا منها وأمسك بيدها وقال : «لقد ساءني ما الجأتي اليه من
الكلام الجافي ، ولكنني علمت من امة الله انك فعلت ذلك بالرغم منك،
فانهضي وسيري معها الى خيمتك في المعسكر ، وقد اوصيتها بأن تكون
في خدمتك» .

فنهضت سمية مطرقة ، فأسرت امة الله الى يد عرفة وقدمتها الى
سمية وهي تقول : «قبلي يد ابيك ليتهم رضائه عنك» . فقبلتها . وكان
الهودج لا يزال معدا فقبلها وأركبها ، وأمة الله معها ، وركب هو بغلته
وسار امامهما حتى أوصلهما الى المعسكر وسلم الجبل الى عريف الجند .
قتسله العريف وسار معهم الى خيمة في بعض اطراف المعسكر .

* * *

كانت سمية في اثناء الطريق غارقة في هواجسها وقد زال اثر كلام
 امة الله في نفسها . ولما مرت بالمكان الذي كان الجمل المكسور فيه رأت
 بعض العبيد قد نحروه وأخذوا في سلخ جلده ، فتصورت انهم قتلوا
 حسنا ونحروا جملته ، وعظم عليها الامر ولكنها تجلدت ، وكانت امة الله
 تراقب حركاتها خلسة . وبعد هنية وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية
 انها وقعت في الشباك وعز عليها ان تزف الى رجل فظ غليظ القلب بدلا
 من حبيبها ، فاستوحشت وزاد قلقها - والفتاة اذا زوجها برجل تعرفه
 وترضاه لا بد من استيحاشها في اوائل ايامها الا اذا كان زوجها عن غرام
 متبادل فكيف بسمية وهي ترجح قتل حبيبها ظلما ، وترى ان أباه قد
 باعها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدة وبأن امره نافذ لا
 مرد له ؟

فلما وصل بعيرها الى الخيمة المعدة لها اناخوه وأنزلوها وأمة الله معها
 ثم دخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك فجلست
 على بساط كانوا قد فرشوه لها . وجلست امة الله الى جانبها تحادثها
 وتلاطفها ، وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاغل بما تراه من حركات
 الجند والعبيد والخيول والجمال وهي مستغرقة في الهموم . وكان أشد
 ما شغل ذهنها ان رأت كلبا ينهش خرقة سوداء ويلعبها بين يديه فيقذفها
 ثم يعدو في اثرها عدوه الى فريسة ، وتلك عادة الكلاب اذا لم تكن
 جائعة ثم اتفق ان قذف الكلب تلك الخرقة فوقعت بين يديها ، فما كاد
 بصرها يقع عليها حتى اجفلت وخفق قلبها ومدت يدها اليها ففر الكلب من
 امامها .

فأمسكت الخرقة بأناملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هي ملوثة
 بالدم . وما لبثت ان قلبتها وصاحت : «ويلاه هذا هو القباء . هذا قباء
 ابي قتل حسنا به !»

فتناولته امة الله من يدها وقد عرفته ولكنها راحت تغالط سمية
لتخفف عنها فقالت : «كيف عرفت انه قبأؤه والاقبية تشابه ؟»
فقطعت سمية كلامها وقالت : «قد عرفته من هذا الوشي على هذا
الكم فاني طرزته بيدي وأنا أعلم الناس برسمه» • قالت ذلك وشرقت
بدموعها ولم تنتظر جوابا من امة الله وأخذت تبكي وتقول : «قتلوه •
لم يبق عندي شك في قتله» •

فقطعت امة كلامها وقالت : «وما علاقة هذا القباء بقتله ؟»
قالت : «ألا تذكرين ان ابي اهداه اليه يوم عزمه على السفر ، وألح
عليه ان يلبسه للوقاية من البرد ؟ ويل له من مشهد يوم عظيم • لقد
ألبسه القباء وأوعز الى احد من صناعته ان يقتله وكأنه اتخذ القباء
دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه ، وهذه هي بقية القباء وعليها الدم • فهل
من بعد هذا شك في انهم قتلوه ؟ وما العمل ؟ كيف أسلم نفسي الى
قوم قتلوا حبيبي ؟» • قالت ذلك وغصت بريقها •
فقالت امة الله : «سلمي امرك الى الله ولا تيأسي من رحمة •
واعلمي ان ما يقدره الله واقع • فاصبري والله مع الصابرين» •
فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها • والمرء قبل وقوع المصيبة
يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها ، وقد يتوهم ذلك ايضا اهله
وذووه ، ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وأمثال
هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم • فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما
تحققته من مقتل حبيبها •

وفي أصيل ذلك اليوم نودي الجند : «الخيال الخيل» فركبوا بعد ان
قوضوا الخيام ، وساروا والفرسان في مقدمتهم وأصحاب الرايات بينهم
وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمر ، وكلهم بلباس اهل البادية
الا هو فانه لبس درعا فارسية كان قد جاء بها من العراق •

اما سمية فحبلوها على هودج ومعها خادمتها ، وكان يقود الجمل
عبد ، ويسوقه عبد ، والى كل من الجانبين حارس على هجين . وكان
طارق يتردد الى الهودج يتعهده ويسأل اهله هل يحتاجون الى شيء ، ثم
يركض فرسه الى اطراف الجند يتفقده ويدير شؤونه .

* * *

فلترك سمية في هودجها تفكر في مصيرها ولترجع الى المدينة للبحث
عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعا من بيت سكينه بعد ان أوصل
سمية اليه . ثم اخبرت امة الله سمية انه جاء الى المنزل للسؤال عنها فلم
يجدها فرجع على أعقابها .

وكان عبد الله لما رجع من بيت سكينه قد اسرع لملاقاة سيده خارج
باب المدينة ، وهو قلق لما سمعه من حديث سمية مع حسن في تلك الليلة .
وتصور ما يحدث بسيده من الاخطار فصار وهو يفكر في الامر ، ونسي
نفسه فأخطأ الطريق وخرج من غير الباب الذي خرج منه حسن ، ثم سار
من طريق اخر يؤدي الى جهة اخرى . وكثيرا ما يتفق ذلك في مثل هذه
الحال فيتجه الرجل شرقا وهو يرى انه يسير غربا . وبعد ان سار ساعة
وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، وقف ونظر الى
ما حوله فاذا هو بين النخيل لا يتبين الطريق ولا يدري اين هو ، ولكنه
لم يكن له علم بطريقة الاستدلال بالكواكب ، فحول سيره الى جهة
اخرى ، ولكنه لم يصل الى المكان المقصود ، على انه كان كلما بعد عن
المدينة استدل عليها ببعض ما يبدو فيها من الانوار فيرجع الى جوارها .
وحديثه نفسه بدخولها ولكنه خاف ان يكون سيده في انتظاره ببعض
ضواحيها ، ثم بدا له ان سيده ربما كان قد عاد الى بيت سمية لسبب
ما ، فرجع الى المدينة وجاء منزل عرفة فلم يجد سمية هناك كما تقدم ،

فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته في هذا الاضطراب .
وقبل الفجر سمع جعجعة جبل يتألم فولى وجهه شطر جهة الصوت ،
وقد خيل اليه انه جمل سيده ، فاستأنس به ، وأخذ ينادي الجمل بما تعود
ان يناديه به من الاساء والاصوات فازداد الجمل جعجعة ولكنه بقي في
مكانه حتى بلغه عبد الله فعرّف انه جمل سيده حقا غير انه لا يستطيع
النهوض كأنه معقور ، فغاص عبد الله في الماء حتى دنا منه فأدار الجمل
رأسه اليه كأنه يحييه ويستجده .

ولما تحقق انه معقور ، ولم يجد حسنا عنده ، اضطرب وشغل باله :
فأسرع الى الرحل فنزعه عنه ، ووقف مدة وهو يفكر فيما عسى ان يكون
قد حدث لحسن . وانتد به الاضطراب والقلق . ولم يجد فائدة من ان
يسأل عنه في بيت عرفجة لانه لم يجده هناك بالامس ، وقد خشي اذا
سأل سمية عنه ان يزيد في بلبالها . فخطر له ان يقصد الى المكان الذي
باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلي الاخيلية ، فسار اليه ، ومراثاء
مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار ، ولما لم ير اثرا لحسن واصل السير
حتى اتى البيت فلم يجد به احدا ، فجلس وقد اخذ التعب منه مأخذا
عظيما ، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتشه فوجد اسطوانة مختومة
وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التي يحملها حسن الى
مكة . فلما رآها ازداد قلقه وقال في نفسه لو ان حسنا ترك الجمل
باختياره لحمل هذا الكتاب معه ، لانه انما جاء هذه الديار من اجله .
فترجع لديه انه قتل او أصيب بمكروه، فقضى نهاره لم يذق طعاما، وأخذ
يندب مولاه تارة ، ويعلل نفسه بقليل تارة اخرى . ولم يغادر سوقا ولا
دريا من دروب المدينة الا مر به وهو يتفرس في وجوه الناس ويتنسم
الاخبار ، فلم ير الا انهماك الناس في اعداد النجدة للحجاج عملا بما
حملة البريد اليهم . وبات ليلته بالمدينة وهو يفكر في الامر ، فقر رأيه

اخيرا على ان يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير في مكة فيتم المهمة التي جاء حسن من اجلها ، على ان يبحث عنه في اثناء ذلك .

- ١١ -

عبد الله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير بن العوام من كبار الصحابة . وكان قد رفض المبايعة ليزيد بن معاوية كما رفضها الحسين بن علي ، وخرجا من المدينة الى مكة ، ودعا كل منهما الى بيعته هو ، على ان عبد الله رأى ألا يتظاهر بذلك والحسين في مكة لعلهم انه أولى منه بالبيعة . فلما كان شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله في كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل امره ، وجعل مكة عاصمته . وبايعه اهل الحجاز واليمن ، وحاربه بنو أمية ولكنهم لم يبلغوا منه وطرا ، فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج يومئذ احد امراء عبد الملك ، ولهذا ثقة في شجاعته ، رغب الحجاج في قتال عبد الله ، وقص على عبد الملك رؤيا قال انه رأى نفسه فيها وقد اخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبد الملك ان يشخصه لقتاله ، فأشخصه في ثلاثة آلاف من اهل الشام، وأعطاه كتاب امان الى ابن الزبير ومن معه ان اطاعوا ، وأوصاه بأن يرفق بالكعبة .

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحدث بينه وبين ابن الزبير مناشات لم يتم الفوز فيها لاحدهما ، فمل الحجاج ، وأرسل الى عبد الملك يستأذنه

في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ، فأذن له وأنجده بخمسة آلاف آخرين ، فاشتد بذلك أزر الحجاج ، وحاصر الكعبة ورمأها بالمنجنق . فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه ، ولكنه أصر على رأيه . وطال الحصار على اهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة العمارة ليس فيها غير المسجد وفي وسطه الكعبة وبعض الابنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت في حصارها قبل قدوم الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه .

ونصب الحجاج المنجنق على جبل ابي قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق .

وكان ابن الزبير مقيما مع اهله بالمسجد الحرام ، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت وصبروا معه صبر الرجال . وأما الحجاج فكانت خطته ان يستمر في نضيق الحصار على عبد الله ، وبعث سراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها . ولما طال أمد الحصار، دون ان يستسلم المحاصرون استنجد الحجاج طارقا امير المدينة كما تقدم .

ولنرجع الى حسن وقد خرج من المدينة على جمل اهداه اياه ابو سليمان ، ومعه العبد بلال . وبعد مسيرة ايام اشرفا على مكة عند الغروب فرأياها محاطة بشراذم من الفرسان بطوفون حولها . فقال بلال : «اني ارى الطلائع الاموية حول مكة ، ولا آمن اذا واصلنا السير ان يمنعوننا، فهل تأذن لي في الخروج اليهم للاستطلاع ثم اعود اليك ؟ » فوافقه حسن على ذلك ، وأوصاه بالرجوع اليه عند حائط اتظره فيه بعيدا من الطريق العام .

وسار بلال ، واتجه حسن الى ذلك الحائط ، وهو من آثار بناء
قديم هناك ، وترجل وعقل جملة وراء الحائط ثم اتكأ بجانبه بحيث لا يراه
احد من المارة • ولبت مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ما قاساه من الجهد
في اثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فأحس براحة ، ولكنه ما لبث
ان رأى الشمس تغرب والظلال تنقلص وبلال لم يرجع • فلما آن العشاء
استبطأه وحسب لتأخره الف حساب ، ثم وقف وتسلق الحائط وجعل
ينظر الى الافق لعله يراه قادما •

وفيما هو في ذلك سمع سعال بلال ، فالتفت فراه قادما يعدو عدو
الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها ، فلما وصل اليه قال:
«لا سبيل لنا الى مكة الليلة لان رجال الحجاج مضيقون عليها الحصار،
من كل ناحية حتى لا يدخلها احد ولا يخرج منها احد» •

قال حسن : «وما الحيلة ؟ لا بد من دخولنا» •

قال : «ليس لنا يا مولاي الا ان نصبر الى الغد ، لأبحث عن سبيل
الى دخولنا» •

فقال : «أبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟»

قال : «كلا يا مولاي ، فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك
الدخول» •

قال : «وما هي ؟»

قال : «أتعرف محمدا بن الحنفية ؟»

قال حسن : «كيف لا وهو ابن الامام علي ، وأخو الحسن والحسين
من ابهما ؟»

قال : «ان له حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير ، فاذا وسطناه دخلنا
مكة على اهون سبيل» •

قال : «كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبد الملك،

لانه يزاحم الاول على الخلافة في الحجاز ، ويزاحم الآخر على الخلافة في الشام • ألم تسمع بحديث المختار ؟
فقال بلال : « كيف لم اسمع به ؟ »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه : « لقد كان المختار يطالب بالخلافة لـ محمد بن الحنفية ، ثم قتله مصعب اخو عبد الله بن الزبير المحصور في هذا الحرم الان ، وجاء عبد الملك بن مروان فحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه » •

قال : « صدقت يا مولاي ، ولكن المختار طلب من تلقاء نفسه البيعة لابن الحنفية دون ان يكلفه هذا بذلك ولا اراده ، وقد لجأ المختار الى هذه الخطة تمهيدا لاستقلاله بالامر لنفسه ، وعلى هذا حصل الكرسي المشهور امره عند الناس ، وزعم انه كرسي الامام علي ، كما ادعى ما يشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه » •

فقال حسن : « هل رأيت ذلك الكرسي وهل تعرف اصله ؟ »
قال : « ان سر هذا الكرسي عندي ، وطالما جلست عليه قبل ان يصبح مقدسا كما ادعى المختار » •

قال : « وكيف ذلك يا بلال ؟ انك والله لو اسع الاطلاع » •
قال : « ان الذي يعيش طويلا يرى كثيرا • فقد اتفق لي منذ بضع سنين وأنا في المدينة اني اصطحبت رجلا اسمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة ، وكانت جدته أم جعدة اخت علي بن ابي طالب • وكان يتردد الى جاره له زيات كنت أتردد اليه احيانا ، فأصيب الطفيل يوما بضيق ولم يبق معه ما ينفقه على نفسه • وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلثة الحسين ، فأراد الطفيل ان يحتال عليه ليكسب منه مالا ، فاشترى من جاره الزيات كرسيًا قديما كان مهملا عنده ثم غسله وسقاه الدهن حتى لمع ، وذهب به الى المختار وقال له : اني كنت أكتكم شيئا وقد بدا لي ان

أذكره لك . ان ابي جعدة كان يجلس على كرسي عندنا ، ويري ان فيه اثرا من علي . فقال له المختار : سبحان الله لماذا كتمت خبره ، ابعث به الي . فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة ، فدفع له اثني عشر الف درهم . فأخذها الطفيل وانصرف . ثم غشي المختار الكرسي بالديباج وزينه بأنواع الزينة ، ودعا الناس الى المسجد حيث اراهم اياه بعد الصلاة وقال لهم : (ان هذا الكرسي من ذخائر امير المؤمنين علي عليه السلام . وهو عندنا بمنزلة تابوت لبني اسرائيل) . فصدقوه وصار اذا حارب خصومه حمل الكرسي معه الى ميدان القتال وقال لمن معه : (قاتلوا ولكم الظفر والنصر ، هذا الكرسي محله فيكم محل تابوت بني اسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم) .

فقال حسن : «لعلك تعرف ابن الحنفية؟»

قال : «نعم يا مولاي ، وقد شهدت كثيرا مما يتناقله الناس من احاديث قوته البدنية . واذكر اني رأيته في حياة ابيه الامام علي ، وكنت غلاما ، وفي يد ابيه درع طويلة فأراد ان ينقص بعض حلقاتها فدفعها الى محمد وأمره ان ينقص منها كذا حلقة ، فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدده ابوه . وهو يعرفني ايضا» .

فقال حسن : «وماذا ترى ان نصنع الان؟»

قال : «ان ابن الحنفية مقيم الان بالشعب في جوار مكة ، فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى ما يكون في الغد» .

فقال : «وهل تعرف الطريق اليه؟»

قال : «عرفته في اثناء غيابي عنك الان ، وقد اوصاني بك مولاي ابو سليمان خيرا اراك اهلا له . . فأنا خادمك حتى تبلغ مأمنك» .

فقال حسن : «بورك فيك» . وأخذ يهيم رحله للركوب وبسال

يساعده ويقول : « اني ارى مكة في ضيق شديد ، وأخاف على ابن الزبير من عافية هذا الصبر ، فان الامويين غالبون اخر الامر على ما ارى » .
فتذكر حسن ما هو قادم لاجله وخاف الفشل ، ولكنه صبر ريثما يدخل مكة في الغد .

سار حسن وبلال حتى اتيا ارضا صخرية مشيا بين شقوقها ، ثم صعدا تلالا اشرفا منها بعد قليل على شعب بعيد اوقدت به نار لهدايه الضيوف كما هي العادة عند العرب . وهم حسن بأن يسأل بلالا فاذا بهذا يقول له : « اننا على مقربة من الشعب . وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل ، فهل تريد ان ننزل في دار الاضياف رأسا ام نقصد خيمة محمد نستأذنه ونخاطبه في امر دخولنا مكة ؟ »

قال : « اخشى ان يكون في ذهابنا الان الى خيمته ما يزعجه ، فلتترك ذلك الى صباح غد » .

قال : « اذن نذهب الى دار الضيافة فانهم لا يسألون القادم اليها عن سبب قدومه ، ومتى اصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجت انا الليلة لأدبر الامر » .

فأثنى حسن على غيرته . وبعد قليل لاحت لهما خيام عديدة منصوبة على غير نظام يتوسطها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس في الخيام حتى تبين خيام الاضياف وعرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار . فسارا حتى اقتربا منها فسمعا لفظا وكلاما . ثم ترجل حسن ، وسبقه بلال الى اقرب الخيام فلقيه رجل رحب به وسأله عما يريد ، وطلب اليه ان ينتسب ، فانتسب وقال : « اننا اضياف غرباء » . فأنزلهما على الرحب والسعة ، وأفرد لهما خيمة ليس فيها احد . فدخل حسن ، وأعطى بلال الجمل لاحد الخدم ليأخذه الى المعالف ، ثم عاد الى حسن فوجد

عنده طعاما أعدده القوم ، فأكلا ، ثم خرج بلال ، على ان يعود بعد قليل ، وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له ، وكان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس عليه فنام ، ولكن هواجسه لم تنم معه فنحلت الى احلام مزعجة رأى فيها انه دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسه وقيده ، فشق ذلك عليه وانزعج ، ثم أفاق من نومه مذعورا فشكر الله لان ذلك كان حلما ولكنه تشاءم وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لا يأتيه . فأراد رؤية بلال لعله يقص عليه ما يتسلى به ريشا يطلع النهار ، وخرج للبحث عنه عند باب الخيمة حيث ظن انه نام هناك ، وناداه فلما لم يجب ظنه مستغرقا في النوم ، ثم ما لبث ان تبين انه لم يعد بعد ، وتفرس في النجوم فعلم انه في الهزيع الاخير من الليل ، فقلق على بلال ، ثم التفت بردائه اتقاء للبرد ، وخرج لبحث عنه حول الخيام .

* * *

وفيما هو في ذلك سمع جمعة جمل قادم نحو الخيام فالتفت فاذا هناك جملان على احدهما ما يشبه الهودج ويقوده رجل ماش لم يستطع تبين وجهه لاشتداد الظلام ، فتبادر الى ذهنه ان رجلا وامرأة وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم في اواخر الليل بجوار مكة وهي في حصار شديد . فعاد الى خيمته وفي نفسه ان يستطلع حقيقة القادمين ، فجعل ينظر من شقوق في الخيمة تطل على الطريق ، فرأى ان الجملين قد أنيخا ونزل راكب احدهما وهو رجل قصير القامة ، ملثم بعمامته وقد التفت بعباءته . ثم رأى الرجل الذي كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع الحركة ، تسلم جمل الراكب الاول وعقله بجانب الجمل الاخر وهو يقول : «أترى يا مولاي

ان ابقى هنا مع الجميلين ، ام اسير في خدمتك ؟
 فرد عليه الرجل بصوت منخفض قائلاً : « امكث انت هنا واحتفظ بما
 على الجمل فانه أعز شيء عندي كما لا يخفى عليك » .
 قال : « هل اسير في خدمتك الى خيمة الاضياف ؟ »
 قال : « لست ذاهبا الى هناك ، فامكث انت هنا ريثما اعود اليك » .
 قال ذلك ومشى .

وكان حسن يتوقع ان يرى زوجته الرجل الاول تنزل من الهودج ،
 ولكنه رآه ما زال مجللاً بغطائه ، ثم رأى العبد عاد الى الجمل الذي
 يحمل الهودج وجلس بجانبه مستنداً الى بطن الجمل ، وما لبث ان نام
 نوما عميقا وعلا شخير . فاستغرب حسن ما رآه ، وكان قد تعب من
 الوقوف ، فعاد الى فراشه وفكره مضطرب . وبعد ان جلس قليلا عاد الى
 باب الخيمة للبحث عن بلال وقد ازداد قلقه لغيابه ، فأطل برأسه من الباب
 وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد احدا ، وحال الظلام بينه وبين الاشباح
 البعيدة فعاد الى فراشه وقد احدثت الهواجس به ، فحدثته نفسه بأن
 يخرج الى ذلك العبد ويسأله عن سر الهودج ، ولكنه أحجم وقال في
 نفسه : « لو كان بلال هنا لكلفت هذه المهمة » .

وفيما هو في ذلك سمع وقع أقدام خارج الخيمة تقترب من بابها ،
 فأدرك ان بلالا قادم ، ولم يشأ ان يناديه لئلا ينتبه العبد الاخر للناسم
 بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب ، فرأى بلالا يهم بالانكفاء : ورآه
 بلال فوقف وقال : « ما الذي يقظك في اخر الليل يا مولاي ؟ »

قال وهو يشير اليه ان يخفض صوته : « لقد استيقظت من زمن ،
 فقلقت لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس حطوا رحالهم وراء خيمتنا ، وظهر
 لي من امرهم ما اقلقني » .

فقال بلال : « وما الذي تبغيه مني فأفعله ، اني رهن اشارتك » .

قال : «هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟»

قال : «كلا وانما جئت من هنا» •

قال : «تعال اذن» • وأمسكه بيده فأدخله الخيمة وأراه الجميلين والعبد النائم تحت الهودج ، وقص عليه ما كان من امرهم الى ان قال : «فهل تستطيع مخاطبة هذا العبد لتعرف منه الغرض من قدومهم ؟»

قال : «ذلك شيء يسير» • ثم خرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجميلين وحسن ينظر اليه من شق الخيمة فراه يقترب من العبد رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس في وجهه والعبد نائم ثم انكفا راجعا مسرعا حتى دخل الخيمة ، فبادره حسن سائلا : «لماذا لم تخاطبه» •

قال : «لاني اعرفه وأعرف حكايته» •

قال : «وكيف ذلك ؟»

قال : «اجلس لأقص عليك ما يغنيك عن كثرة البحث • لقد نمت اول الليل بباب هذه الخيمة ولكنني ما لبثت ان استيقظت وأخذت أفكر في حيلة نستطيع بها مقابلة محمد غدا حتى لا يطول مكثنا • وخفت ان يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت ان أذلّل العقبات وأنت نائم ، فنهضت وسرت الى رجل من المقرين الى الامير كنت قد عرفته ايام كنا بالمدينة ولي عليه دالة • فلقيت الرجل في خيمة له بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، يدخل عليه صاحبي منه من باب خاص دون سائر الناس ، فلما اتيت به ربح بي وأكرمني وسألني عن امري ، فقلت له اننا جئنا نلتمس من الامير وسيلة ندخل بها مكة • فوعدني خيرا ثم أجلسني وجعل يسألني عن حوادث مرت بنا قديما وأمور يهمه الاطلاع عليها ، وكلما هممت بالتهوض اقعديني حتى طال بي الجلوس • وبينما انا أهم بالتهوض سمعنا وقع أقدام خارج الخيمة على غير انتظار فأقعديني صاحبي وخرج وهو يقول : (من الرجل ؟) • وسمعت من يجيبه

قائلا : (انا عرفجة) • ولما كنت أعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكثيرا ما رأيته في دار الامارة خرجت لأحقق امره فرأيت الرجل ملثما ولكنني عرفت انه هو صاحبي هذا من صوته وقامته» •

وهنا تذكر حسن ان الصوت الذي سمعه لما أناخ الرجل الجميل يشبه صوت عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه في هذا الليل ، وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية ، ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سليمان وأبيه وخادمه بلال • ثم على فرض ان عرفجة عرف بمسيره الى مكة فكيف يعرف انه في هذا الشعب • ولكن اذا كان هو عرفجة فمن عسى ان تكون التي جاءت معه في الهودج ؟ انه غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته سمية ، فهل هي التي في الهودج ؟ وخفق قلبه وتصادد الدم الى وجهه • كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه •

فقال حسن : «وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل في هذا الليل ؟»

قال : «كلا يا مولاي لانني رأيته يحدث صاحبي همسا فرأيت ان أنصرف لاخلّي لهما المكان • ولما استأذنت صاحبي فاداني اليه وقال : (موعدنا غدا ان شاء الله) • فعلمت انه لا يزال على وعده فأتييت وآثرت النوم بباب الخيمة الى الصباح» •

فقال حسن : «وما الذي عرفته من امر العبد النائم بجانب الجميل؟» قال : «عرفت انه قنبر خادم عرفجة ، وهو عبد سمج الخلق فظ الطبع يعرفه كل اهل المدينة» •

قال حسن : «وما ظنك بمن في الهودج؟» قال : «لا أظنه هودجا وانما هو محفة • ولا يبعد ان يكون فيها

بعض النساء او ربما كانت فيه ابنته سمية لانه ليس له سواها» .
فلما سمع حسن اسم حبيته تجددت أشجانه ، وتذكر ان بلالا لا يعلم شيئا من امره مع سمية ، فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تجلد وقال : «أتظنه يحمل ابنته معه الى هنا في مثل هذه الظروف؟»
قال : «لا اخاله يفعل ذلك ، وهب انه حملها فلا أظنه يقيها محبوسة لا نسمع لها صوتا ، ولا سيما ان المحفة ضيقة لا تكفي لكي تنام فيها» .
فاطمأن قلب حسن على سمية ولكنه بقي مشغول بالخطر بأمر المحفة، وهم بأن يعود الى سؤال بلال في شأنها ، فاذا بهذا يتدبره قائلا : «ليس في المحفة فتاة ولا امرأة ، فقد تذكرت الان ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها في منزله لا يطلع احدا على ما فيها ، وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها . فلعلها هي هذه» .

فازداد حسن شوقا الى معرفة سر المحفة ، ولكن القلق عاوده من جهة ما حمل عرفة على القدوم في هذا الليل ، فقال لبلال : «متى نذهب الى ابن علي؟»

قال : «عند طلوع الشمس» .
فعاد حسن الى فراشه ، واضطجع بلال بباب الخيمة . وقضيا ما بقي من الليل بين نوم وتقلب وهواجس ، ولما طلع النهار نهضا وخرجا فما كاد حسن يلتفت الى موضع الجبلين وراء خيمته حتى بفت اذ لم يجد لهما اثرا ، وظن ان عرفة قد سافر .

وواصل سيرهما بين الخيام ، وهي على مرتفع من الارض متشعب، به للخيول والجمال مسارح وقد خرج الخدم ليقدموا لها علفها . فلما بلما خيمة محمد ، وكانت رجة عالية قائمة على عمد عديدة ، رأيا بابها مسدلا فعلما ان محمدا في شغل ، فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهي ملتصقة بها ، فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما وهو يشير اليهما ألا يتكلما .

فدخل حسن ونظر من كوة في الخيمة تطل على خيمة الامير فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصير القامة عرف انه عرفة ، فقال في نفسه هذه فرصة لا ينبغي ان نضيعها ويجب ان نطلع على سر هذه المقابلة . وقرس حسن في محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا ، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكمم فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لا تزال ظاهرة في كفيه ووجهه وعينه .

وخاف حسن ان يكون في تطلعه هكذا ما يؤاخذ به صاحب بلال ، فأراد ان يعتذر فتظاهر بالرغبة في الخروج فقال له الرجل : «تفضل يا مولاي واجلس فاني احب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التي يزعم انها ذات بال ، ولقد ساءني بخسوته حتى صرت لا أبالي كتمان سره» .

فنزل هذا القول بردا وسلاما على قلب حسن ، وفرح لتسكنه من نيل بغيته ، ولكنه تظاهر بعدم اكترائه للاطلاع على السر ، وجلس بحيث يرى ولا يرى فرأى عرفة جالسا بين يدي ابن الحنفية ويخاطبه متهميا ، وسمعه يقول له : «انت تعلم ايها الامام انك أولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فأنت وحدك ولي هذا الامر وليس بنو أمية سوى معتدين» .

وظل محمد صامتا لا يتكلم ، فظنه عرفة راضيا بما يقول ، فاستأنف الكلام قائلا : «وأنت تعلم يا مولاي ان المختار قام بالدعوة لبيعتك ، ولكنه لم يثبت على عهده فلم يوفقه الله ، كما نعلم ان السر الذي كان يستعين به على بث الدعوة جدير بأن يقوم به من تندبه لذلك» .

وظل محمد صامتا مطرقا كأنه يفكر في امر اخر ، في حين مضى عرفة في حديثه فقال : «ولا يخفى على مولاي الامام ان بني أمية الان في شغل بعبء الله بن الزبير ، وأكثر جندهم منهمكون في حصاره ،

والعراق خال ممن يدعو اهله الى الحق ، فاذا نذبت احدا وسيرته الى
العراق ليدعو الى بيعتك كان ذلك من سداد الرأي» .
فرفع محمد رأسه وقال : «ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، ففيه
قتل ابي وأخي غدرا وخيانة» .
فزحزح عرفة نفسه على البساط وقال : «ان السبب في ذلك الفشل
لم يبق منه شيء الان . واني ارى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور
الحق» .

فقال محمد : «ومن تراه يليق لهذه المهمة؟»
قال : «انك انت الذي ستضع شرك بين يديه وتمهد اليه في النداء
بصوت الله ، فأمر اختياره اليك» .
قال : «وبمن تشير؟»

فسكت عرفة وأطرق ، وكأنه يخشى ان يصرح بترشيح نفسه لهذه
المهمة لئلا يساء الظن به ثم قال : «ان هذا الالتداب لا يكون الا بانهاج
من الله ، فاختر من يلهك الله اختياره» .
قال : «واذا لم يلهمني الله؟»

فارتبك عرفة في امره وتهيب التصريح له بغرضه . وكان غرضه
الاول من هذا الامر كسب المال فباع بنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه .
وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد وقد طلب الحجاج منه ان
يبايع لعبد الملك ، وطلب منه ابن الزبير ان يبايع له ، فأبى البيعتين ولبث
في انتظار ما يكون من امر مكة وحصارها ، وذلك لانه كان عافلا لا
يجعل عجزه عن القيام بدعوة جديدة الى بيعته هو بعد ذلك الفشل . على
انه ظل يساير عرفة وهو لا ينوي ترك الحياد .
اما عرفة فلم ير بدا من الاجابة فقال : «اذا لم تلهم اختيار احد
لهذه المهمة فاختر صاحب الكرسي» .

فقال محمد : «وأي كرسي؟»
 فنهض عرفة وتحول الى باب الخيمة ونادى قنبر عبده ، ثم رجع ،
 وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار ، فوضعها بين يدي
 محمد وخرج . فقال محمد لعرفة : «ما هذا؟»
 قال : «هذا تابوت العهد !» • ثم اخرج مفتاحا ورفع الستار عن
 المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح حتى فتحت فرفع سقفا وحسن ينظـسر
 ويتناول بعنقه وهو يعجب من غدر عرفة وخبثه • ثم ما لبث ان رآه مد
 يده الى داخل المحفة وأخرج شيئا مغشي بالديباغ فرفع الديباغ عنه فاذا
 هو كرسي خشبه يلمع كالمرآة •
 وتقدم عرفة بالكرسي حتى وضعه بين يدي محمد وهو يقول :
 «أليس هذا كرسي الامام علي الذي اتصر به المختار؟»
 فابتسم محمد وقال : «ولكنه فشل بعدئذ» •
 قال : «لقد فشل لانه لم يخلص النية في سعيه» •
 فقال محمد : «وهل تخلص انت النية اذا ندينك لهذه المهمة؟»
 قال وقد بان السرور في وجهه : «كيف لا ، وهذه بعيتي وأكون قد
 نصرت الحق وأهله؟»



عجب حسن لقبول محمد هذا الامر ولكنه ما لبث ان سمعه يقول
 لعرفة : «ولكن دعوة اهل العراق تحتاج الى المال ، لان بني أمية انما
 غلبوا أخوي بالمال ، وسيغلبون اللانذ بالكعبة بالمال ايضا ، فان ديارهم
 غنية وعندهم المال كثير ينفقونه في ابتياع الاحزاب والاتباع • فاذا كنت
 صاحب مال فاني ارجو لك النجاح» •
 فلما سمع عرفة كلام محمد سقط في يده ، وخاب ما امله ، ولم

يدر بماذا يجيب • ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : «ان هذا الكرسي الذي تزعم انه كرسي ابي ليس سوى كرسي قديم لاحد الزبائن • وقد زعمت اني نذبت المختار ليدعو الى بيعتي ، وهذا وهم باطل لان ذلك الثقيفي انما نذب نفسه لتلك المهمة ليشبع بطنه • فاذا كنت انت جائعا فالتمس بابا اخر غير هذا ا» • قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد في وجهه •

فارتبك عرفة وتحقق ضياع امله بعد ان قضى بضعة أعوام في تميق ذلك الكرسي وصقله ، وكتمان امره عن اهل المدينة • وكان لا يشك في انه اذا عرض الامر على محمد بن الحنفية وجد منه قبولا ، وبذلك يتر منه المال ليشبع مطامعه وشرهه ، ويضيف ذلك المال الى ما قبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج •

وكان عرفة من اصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة • لا يحجم عن عمل مهما يكن خطيرا ، اذا وجد فيه ما يشبع نهمه الى المال فلما تبين الغضب في عيني محمد ، عمد الى الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب وقال : «لقد عجلت يا مولاي بالحكم علي ، وأنا انما ادعوك الى امر عائدتك لك ولاهل بيتك ، ولا ألتمس على ذلك اجرا ولا شكورا» •

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا وقال : «أتظن امرك يخفى علي ؟ • لقد قرأت المكر والخديعة في عينيك • ولولا حرمة الجوار لألحقتك بالمختار وألحقت بك بني ثقيف ا» • ثم نادى : «سعيد» •

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح ، وأسرع حتى دخل على محمد ، وحسن وبلال ينظران وقد غلب عليهما السرور •

فلما وقف سعيد بين يدي محمد قال له : «الق هذا الكرسي في النار ، وأخرج هذا الثقيفي من خيمتي ، وليقم حيثما يشاء واذا رحل

نزودوه بما يحتاج اليه» ،

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف ، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط ، فوجده يبحث عن عبده قنبر فلما لم يجده التفت اليه وقال : «اني راحل الى بلدي وقد اسفت لان الامام محمدا لم يفهم مرادي» . قال ذلك متلطفا خوفا على حياته . فعجب سعيد للفرق العظيم بين هذا التزلف وبين مقابلته الخشنة ساعة وصوله بالامس — وذلك شأن اهل الكبرياء يستبدون بالضعفاء من الناس . فاذا لقوا قويا استولى عليهم الذل وصغرت نفوسهم . لان ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم يكن عن نفس كبيرة وانما هو ضعف رأي وصغر نفس . وكأنا راق قلب سعيد لتزلف عرفجة ، فعرض عليه النزول في دار الاضياف فاعتذر برغبته في الرجوع ، وكان قنبر قد عاد فناداه وأمره باعداد العدة للرحيل ، ثم ركب عرفجة جملا وقنبر الجمال الاخر وخرجا من الشعب يلتزمان معسكر الحجاج . فلما بعدا عن الخيام اخذ عرفجة يتوعد محمدا بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر ما بدا لعبده من فشله .

اما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسي وألقاه في النار وعاد الى حسن وبلال في خيمته فأخبرهما بخروج عرفجة من الخيام ، وهنا عاد حسن الى التفكير في دخول مكة فسأل سعيدا في ذلك فأجاب بقوله : «سألت مولاي الامام في هذا الشأن فأمر بذهابي معكما لاني تعودت الذهاب الى مكة خلال الحصار وأكثر الطلاع يعرفونني» . قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه في الذهاب معهما فأذن له .

وعاد سعيد اليهما بالأذن فخرجا الى دار الاضياف ليتأهبا للمفر ، وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد ، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه ، والشمس قد تكبدت السماء .



وفيسا هم يسرون وحسن يفكر في مهمته وكيف يدخل على عبد الله ابن الزبير وليس معه كتاب خالد ، رأوا غبارا يتصاعد في الافق من جهة طريق المدينة ، ثم انقشع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجمّع ، فلما اقترب الركب تفرس حسن في الاعلام والناس ، فأدرك انهم من أنصار بني أمية وأنهم قادمون من المدينة لنجدة الحجاج .
ولكنه استغرب وصولهم في ذلك اليوم مع انه أقبل قبلهم ، والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم ، فظن نفسه مخطئا في حكمه عليهم فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق انها لاهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها ، وعلم من عظم السرعة التي مشت بها تلك الحملة ما يدل على اضطراب الحجاج اليها . فترجل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم احد ، وجعل يتفرس في وجوه الناس .
ومر الفرسان وحملة الرايات اولا ، ثم تبعهم المشاة ، فأحمال الزاد والمؤونة .

وأخيرا رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه فارس . ولم ير في تلك الحملة هودجا غيره وكان من عادة العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام ان يحصلوا معهم النساء والاولاد حين يخرجون الى القتال . فاستغرب حسن امر هذا الهودج وتبين من الاختفاء بأمره انه لبعض الامراء . وما درى انه يقل جييته التي سلبت له وانهم يحملونها الى سواء . ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها . ولو صح ما قاله الشعراء من تواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن وخفق قلبه ودله على ساكنة الهودج .

وظلوا وقفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها اتجهت الى جبل ابي قبيس ، فتحققوا انها نجدة المدينة الى الحجاج ، لعلمهم بأن الحجاج مخيم هناك .

- ١٢ -

رمي الكعبة بالمنجنيق

سار حسن وصاحبه حتى اقبلوا على مكة فرأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، وجاء اليهم بعضهم ، فتقدم سعيد لاستقبالهم وأخبرهم بأنهم ذاهبون في شأن يخص ابن الحنفية ، فأذنوا لهم فسي الدخول .

ونظر حسن الى جبل ابي قبيس فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت أشباحهم بعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن فقال سعيد : «اننا في الحجون» . فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فأشرف على المسجد الحرام والكعبة في وسطه . وكان قد زار مكة من قبل ورأى الكعبة لكنه رآها اليوم اكبر مما عهدها ، ورأى على سطحها اشياء غريبة كالفرش والاثاث ، فوقف هنيهة يفكر في الامر ، ثم قال لسعيد : «اني ارى الكعبة على غير ما أعهدها فيه ، وكأنها اتسعت ، وكان عليها فرشاً وأثاثاً ، وكان على ارض المسجد خياماً !.. أأنت ترى ذلك ؟»

فقال سعيد : «لقد صدق ظنك ، فالكعبة الان اكبر مما تعهدها لانها احترقت في الحصار الماضي على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليه في الزمن الاول قبل ان تبنيتها قريش . وأما ما تراه على سطحها فهو ألواح من الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق ، لان الحجاج نصب المنجنيق على جبل ابي قبيس وجعل يرمي الكعبة بالحجارة نكابة بابن الزبير» .

فقطع حسن كلامه وقال : «أعوذ بالله ! أيرمون بيت الله بالحجارة؟»
 فقال : «هذا عمل الحجاج فانه رجل ظالم لا يبالي شيئا في سبيل
 مقاصده ، فقد رأيناه يرمي الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها .
 واتفق في الحجة الماضية ان عبد الله بن عمر حج ، وكان مولاي الامام
 محمد في جملة الحجاج ، فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا ، فبعت
 ابن عمر الى الحجاج يقول له : (اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس
 فانك في شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الارض
 ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وان المنجنيق قد منعهم من الطواف
 والسمي) . فلما فرغوا من طسواف الزيارة نادى منادي الحجاج :
 (انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى رمي الحجارة على ابن الزبير الملحد) .
 وسمعت انه اول ما رمى الكعبة بالمنجنيق ارعدت السماء وأبرقت وعلا
 صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم رجاله الامر وأمسكوا أيديهم . فأخذ
 الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم . فلما اصبحوا
 جاءت الصواعق فقتلت من اصحابه اثني عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله:
 (يا اهل الشام لا تنكروا هذا . فاني ابن تهامة وهذه صواعقها . وهذا
 الفتح قد حضر فأبشروا) . فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت نفرا من
 اصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : (ألا ترون انهم يصابون وأتم على
 الطاعة وهم على خلافها) .»

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جملة حتى نزلوا اسواق
 مكة فقال لسعيد : «لقد بلغنا مأمننا ، فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك
 الله خيرا» .

فقال : «بل أوصلكما الى المسجد فأطوف طوفة وأعود» .
 ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد : «هذا صوت
 حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة . انظر الى حمام الحرم

كيف بطائر اجفالا من صوت وقوعه» •

وكان حسن قد أحس بالجوع لانهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا، فقال لسعيد : «بالله ألا اخذتنا الى احد باعة الاطعمة فنأكل شيئا» • فضحك سعيد وقال : «ان الاطعمة قليلة في مكة والناس في ضحك شديد من الجوع ، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمد من الذرة بعشرين درهما ، وقد سمعت ان ابن الزبير اضطر لما اصاب رجاله من المجاعة ان يذبح فرسه ويقسم لحبها فيهم» • قال ذلك وأدنى فنه من أذن حسن وقال بصوت منخفض : «ولكنني أعلم ان يوت ابن الزبير مسلوقة قسحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنها خوف المجاعة ، ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار ، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة ليستسلم» •

فقال حسن : «لا بد من ابتياع شيء فأكله ولو كان غاليا» • وأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فأكلوا على عجل ، وساروا حتى اتوا المسجد الحرام ، فدخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة في الطواف ، ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له : «انه يصلي بجانب الكعبة» • فسأل : «وأين يذهب بعد الصلاة؟» • فقالوا : «انه يذهب الى بيته» • ثم دله سعيد على بيت ابن الزبير وودعه وعاد الى الشعب •

وبعد ان صلى حسن ركعتين وطلب الى الله ان يرشده الى الصواب، جلس في بعض أطراف المسجد ينتظر فراغ عبد الله من صلاة ، وجعل يفكر في امر المهمة التي جاء لاجلها ، والوقت ليس وقت خطبة ولا زواج • ثم تذكر ما كان من امر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا • واثقل به التفكير الى ما كان من امر عرفة في ذلك الصباح ، وخيل اليه ان الفضل الذي اصابه سيحمله على العودة الى المدينة لانه لا يستطيع الغياب عنها

طويلا وليس عند سمية احد ، ولعله يعدل بعد ذلك عن رفضه تزويجها له .

ولاحظ ان من يدخلون المسجد قليلون ، ثم ما لبث ان سمع قرعته وأحس شيئا هوى بالقرب منه وسمع رفرقة أطيّار فالتفت فرأى حجرا كبيرا اصاب الكعبة وسقط على الارض ، فعلم انه من أحجار المنجنيق وقد أجفل حمام الحرم من وقعه فتطايّر ثم عاد فوقع على جوانبها وعلى جدران المسجد . ولم ير الناس يهتمون لتلك الحجارة لانهم ألفسوا سقوطها بينهم .

وتذكر ان عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة المنجنيق ، وخاف ان يكون ذلك الحجر قد اصابه ولاسيما ان وقت صلاته طال . فقلق عليه ، ونهض فسار في فناء المسجد يلتس الكعبة حتى مر بالحطيم وحجر اسماعيل ، ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الاخرى بضعة رجال وقوا . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله ، فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبل الارض بوجهه ، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل له انه ميت ، واستغرب وقوف الناس هناك دون ان يهتموا له . فاقترب من احدهم وحياه ، وسأله ما شأن ذلك الساجد ، فابتسم الرجل وقال : «ألا تعرف من هو؟ انه امير المؤمنين» .

فأدرك حسن انه عبد الله بن الزبير وزاد استغرابا وقال : «وما للحمام يقع على ظهره فلا يتحرك» .

قال : «انك غريب فيما يبدو ، فلا تعلم ان مولانا امير المؤمنين اكثر الناس صلاة وسجودا ، وكثيرا ما رأينا الطير على ظهره في اثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده» .

فقال حسن : «انه سجد طويلا» •
وجاء رجل اخر كان واقفا هناك وقال : «انكم لا تعلمون من تفوى
امير المؤمنين الا قليلا • اما انا فقد صحبت طويلا فرأيت يقضي ليلته على
ثلاث : ليلة يقضيها فائما الى الصباح ، وليلة راكبا ، وليلة ساجدا •
ناهيك بصومه فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة ايام يفطرها في كل شهر» •
فدهش حسن وقال في نفسه : «يجدر بمن كان هكذا ان يكتب له
النصر» •

وفيما هم وقوف سمعوا صوتا كهزيم الرعد ، ادركوا انه صوب
المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض
بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنه وهو لا يزال ساكنا لا يتحرك • فذهل
حسن وقال لصاحبه : «ألا تخافون على حياة امير المؤمنين؟»
قال : «لقد طالما نبهناه الى ذلك وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو
لا يبالى» •

فقال حسن : «أرجو ان يحرسه الله» •
فقال الرجل : «ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته ، وقد وقع
هنا في العام الماضي سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف امير
المؤمنين سابحا!»

- ١٣ -

فشل ابن الزبير

تأمل حسن في وجه مخاطبه وهو يتكلم والاهتمام باد في محياه لا

يدري بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، وراه
 موجها نفسه اليه كأنما يتوقع ان يسأله عن ابن الزبير ليشرح له ما
 يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته . قرأ حسن كل ذلك في عيني
 الرجل فأدرك انه من أشد أنصار ابن الزبير غيرة عليه ، وبين له من
 قيافته وهندامه انه من وجهائهم . وزاد اعتقادا في وجاهته لما آتته من
 لطفه ودعته ، لان الانسان يزداد لظفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة ، فاذا
 رأيت جفاء وكبرياء من احد الناس وأنت لا تعرفه فاعلم انه دنيء الطبع
 ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر ، ولا بما في خزائنه من
 الاموال الطائلة .

وبينا حسن يفكر في ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه ، سمعا عبد الله
 ينادي : «ابن ابن صفوان ؟» . ثم رأى الرجل الذي كان يخاطبه بغتة
 وأسرع الى عبد الله يقول : «ليكن يا امير المؤمنين» .

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجسحي ، وكان قد سمع عن
 حبه لابن الزبير وتقانيه في نصرته ، وهو أصْلَحُ في نحو الستين من عمره .
 عريض الجبهة خشن الملامح عريض الفكين ، مما يدل على اثبات والقوة .
 ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيا للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو
 طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة في أسفل ذقنه خفيفة فسي
 عارضيه . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأى
 شعره جسة مفروقة طويلة . وتأمل في وجهه فرأى الهرم قد بدا فسي
 ملامحه لفرط ما قاساه من امر ذلك الحصار وشدة ما احاط به من الضيق ،
 وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، لانه اول مولود ولد للمسلمين بعد
 الهجرة .

وهم حسن بالسلام عليه وتقبيل يده ، ولكنه رآه اتجه الى موضع
 اخر دون ان يلتفت الى احد ، وأعجب بشيئته الثابتة التي تدل على جلال

ووقار ، ورأى ابن صفوان يسير في أثره مراعيًا إياه بعينيه وكل جوارحه ، وفي مشيته عرج ، فلملم انهما سائران الى البيت ، فاقتنى أثرهما وهو يفكر في مخاطبة عبد الله بالامر الذي جاء من اجله لكنه تهب واستحي لما رآه فيه من الاضطراب والضيق ، ورأى ان يتحين لذلك فرصة اخرى . وخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يبعه وحسن في أثرهما . وكان الناس يقفون في الطريق لتحية عبد الله . حتى اشرقوا على دار واسعة قد غصت بالواقفين من الناس ، وخارجها مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبد الله على الدار توجهت أبصار الناس اليه ووسعوا له ، فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أترف على مقعد في صدر القاعة فجلس عليه الاربعاء ، وجلس الى يمينه شاب كبير الشبه به . فأدرك حسن انه احد اولاده . ثم جاء شابان آخران فجلسا عن يساره : وجلس بقية القوم بين يديه لا يفوه احدهم بكلمة لفرط ما انحاط بهم من الامر العظيم . ولبشوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير . اما حسن فرأى نفسه غريبا بين هذه الجسوع ، وهم بالخروج فرأى ابن صفوان يشير اليه من بعض جوانب القاعة داعيا إياه الى الدخول ، فمشى اليه وجلس الى جانبه وقال له : «يسرني اني عرفتك اليوم وقد طالما سمعت باسمك» . فقال ابن صفوان : «فهل انتسبت لاعرفك انا ايضا» .

قال : «سأطلعك على امري فيما بعد ، فلا غنى لي عن معوتك» . وكانا يتكلمان همسا والناس سكوت ، وربما ادرك احدهم السعال فأمسك عنه . فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال له : «اي ابناء امير المؤمنين هؤلاء ؟»

قال : «ان الذي تراه الى يمينه هو اخوه عروة بن الزبير . امسا الجالسان الى يساره فولداه حمزة وحبيب ، وترى على مقربة منهما شابا مطرقا هو الزبير ولده الثالث : وان هذا الشاب لجدير بأن يكون ابن

امير المؤمنين» • ثم تهيأ للنهوض قائلاً : «لا بد لي من مفارقتك الان لا امر يدعو الى ذلك ، فاتنا في مجلس ذي بال اليوم ، وستسمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل» • ثم سار حتى وقف على مقربة من عبد الله فأشار اليه عبد الله ان يقعد •

وبعد قليل ، وقف احد الجالسين وخاطب عبد الله قائلاً : «يا امير المؤمنين ، اننا بحمد الله نؤمن بصدق دعوتك وانك على الحق • وقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلاً ، ولئن صبرنا معك ما نزيد على ان نموت • وانما هي احدى خصلتين ، اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا ، واما ان تأذن لنا فنخرج» •

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وانهم صاثرون الى الفشل • ثم سمع ابن الزبير يقول : «ألم تبايعوني على انفسكم وأموالكم ؟ »

فقال الرجل : «بلى ولكننا نرجو ان تقللنا بيعتنا ، اذ لا نرى فائدة من البقاء عليها» • فقال عبد الله : «انتي عاهدت الله على ألا يبايعني احد فأقبله بيعته الا ابن صفوان» •

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال : «اما انا فاني أقاتل معك حتى اموت ولا أسلمك في مثل هذه الحالة» •

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضج الناس ، وانقسموا شيعا وأحزابا ، وبدا ان اكثرهم لا يرون رأي ابن صفوان • فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وقال : «بورك فيك يا ابن صفوان ، بورك في رجل بايع وثبت على بيعته ، ان امير المؤمنين كما تعلمون اولى الناس بهذا الامر ، وذلك لان عثمان استخلفه على داره يوم

مقتله فهو ولي عهده من ذلك اليوم • وانكم لتعلمون انه نعم الخليفة لا تغره بهارج الدنيا • ألا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال ؟ في حين يستعين امير المؤمنين بالصوم والصلاة • تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله اجمعين • ألم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت ابيه مروان ؟ اتم تعلمون ان عبد الملك كان من فقهاء المدينة ، وكثرة ما كان يظهره من التدين والتقوى سموه حمامة المسجد • فلما مات ابوه وبشر بالخلافة كان المصحف في يده فأطبقه وقال : (هذا فراق بيني وبينك !) • فأين هذا من سجود امير المؤمنين وصلاته وصيامه ما لا يخفى على احد • هذا وان لامير المؤمنين بيعة في أعناقكم ، وأتم جماعة قرش اهل الحماسة والنخوة ، فكيف تغادرون امير المؤمنين في مثل هذه الحال ؟ • أما لكم اسوة بآبائكم صفوان ؟ »

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد امتنع لونه وأيقن ان القوم قد نكسوا على أعقابهم • ولكنه لم يستطع غير الانتصار لما رآه حقا • وكانت الابصار شاخصة اليه لانه غريب لم يعرفه احدهم • وكان عبد الله بن الزبير ينظر اليه ويعجب بغيرته • فلما فرغ من الكلام علت الضوضاء فوق رجل اخر وقال : « لقد نطقت بالصواب ، وان البيعة في أعناقنا لا نكرها ، وما نحن خارجون من بين يديه الا بأمره • ولكننا نرى القتال اصبح عبثا ، ومعنا من الرجال عشرة آلاف ، وقد جمعنا جميعا وعطشنا وقتل مؤوتتنا وذخيرتنا • وهذه منجنيقات الحجاج ترميننا من فوق الكعبة لا يبالي حرمة هذا البيت • وقد نصب لنا الحجاج الان راية الامان فمن خرج اليها سلم • فما بالنا لا نختار الطريق الاسلام » • ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال : « اكتب الى عبد الملك بن مروان لترى رأيه فلعلكما تنتهيان الى امر فيه صلاح الحال » •

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان أجفل وتغير وجهه وقال:
«كيف آكتب اليه ؟» .أبدأ بنفسي او أبدأ به . آأكتب (من عبد الله امير
المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟) . فوالله لا يقبل هذا ابدا . ام آكتب
(لعبد الملك بن مروان امير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟) . فوالله لان
تقع الخضراء على الغبراء أحب الي من ذلك» . قال ذلك وعاد السي
اطراقه ، وسكت الناس ينتظرون رأيا جديدا فاذا بعروة بن الزبير اخي
عبد الله التفت اليه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له : «يا امير
المؤمنين قد جعل الله لك اسوة» .

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب في جبينه : «من هو ؟»
قال عروة : «حسن بن علي ، فانه خلع نفسه وبايع معاوية» . ولم يَم
عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها حتى القاه عن المقعد .
فأجفل الناس من سقوط عروة وأعظموا غضب عبد الله فتهيؤوا ، ثم
سمعوه يقول له : «يا عروة . والله لو قبلت ما يقولون ما عشت الا قليلا
ولا اخذت الا الدنية . وان ضربة بسيف في عز لخير من لطمة في دل» .
ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص في وجهه من شدة التأثر
وقال لهم : «اتم مخيرون فافعلوا ما تشاءون ، وان رجلا يجر الى الحرب
بجبل لا يحارب ، وان الله وليي ونعم النصيب» . قال ذلك وأراد
الانصراف ، فوقف ولداه حمزة وحبيب وقالا : «هل نحن مخيران ايضا؟»
فعجب حسن لما سمعه وقال في نفسه : «حتى اولاده تخلوا عنه» .
والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من
الدمع ثم قال : «نعم وأتسا ايضا في حل ، امضيا واطلبا الحياة ولا
تموتا» . ثم اختنق صوته فسكت ريشا ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث
الزبير وقال له : «يا بني اطلب لنفسك أمانا مع أخويك فوالله اني لاحب
بقاءكم» .

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف :
«حاش لله ان أتخلى عنك فما كنت لأرغب بنفسى عنك» .



انصرف عبد الله من باب يؤدي الى دار النساء ، وظل حسن واقفا
يسمع ما يدور بين الحاضرين . فعلم انهم اجتمعوا على الخروج الى الحجاج
يلتمسون أمانه . وأدرك ان أشد ما أبعدهم عن عبد الله انه يقر عليهم؛
في حين يسخو عبد الملك على بني أمية ويذل الاموال لمناصريه . فساءه
ذلك لاعتقاده ان هؤلاء انما ارادوا الخروج رغبة في العطاء ، وان صبر
ابن الزبير لا يفيد شيئا ولكن الانسان لا يعيش في هذه الدنيا عمري
وانما هي موة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والمروءة .

وأحسن حسن يبد أمسكته ، فالتفت فاذا بابن صفوان يدعوه اليه
فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول : «ان امير
المؤمنين يدعوك وقد أحب ان يراك» . قال ذلك وتركه هناك وخرج .
فسر حسن لهذه الدعوة ورآها فرصة لاداء المهمة التي جاء لاجلها ،
وان كان الكلام فيها لا يجدي نفعا .

ثم عاد اليه ابن صفوان وأشار اليه ان يتبعه ، ومضى به الى حجرة
رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وهو
تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته ، وآونة يشمر عن ساعده او يرسل
كمه مما يدل على عظم البلبال . وتأمل حسن في تلك الحجرة فاذا هي لا
شيء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد . فلما اقبلا عليه تقدم حسن اليه
وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد ، فلم ير الجلوس
وابن الزبير واقف ، فآلح عليه هذا بالجلوس وقال : «دعني واقفا
وسأجلس بعد هنية» .

فجلس حسن وبقي صفوان واقفا مكانه يراعي عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم .

ثم التفت عبد الله الى حسن وقال : «من اين قدمت ؟»
قال : «من الشام» .

فبغت عبد الله عند سماع اسم الشام لان فيها اعداءه ومناظريه ، والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته في الاستغراب فرآه لا يقل عنه استغرابا ، فقال عبد الله : «وما الذي جاء بك الينا ونحن في هذه الحال . لعلك جاسوس ؟»

قال : «معاذ الله يا مولاي ! كيف اكون جاسوسا وأفعل ما فعلته اليوم ؟»

فجلس عبد الله على جانب المقعد وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس . ثم قال عبد الله : «لا غرابة فيما ظهر منك ان كنت جاسوسا ، لان الجواسيس يتلونون نلون الحرباء . على اني لا أبالي مهما يكن من امرك فما انا ممن يستعينون بالجواسيس وأنا لا اخافهم وانما أستعين بالحق والعدل» .

فوقف حسن وهو يقول : «العفو يا مولاي ، اني أجل نفسي عن الجاسوسية في هذا السبيل ، وانما انا رسول اليك في مهمة لا ارى مسوغا للكلام فيها الان» .

قال : «وماذا تعني ؟ وكيف لا مسوغ لها ؟ قل .. لا بأس مما تراه من الاحوال . من ارسلك الينا من الشام ؟ لعلك قادم من عبد الملك بنصيحة ؟»

قال : «لا يا مولاي ، بل انا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية» .
قال : «وهو ايضا أموي ، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن . أعرف منه بالكيمياء والشرع وما الى ذلك» .

فقال حسن : « ما كنت أحسب الحقيقة تخفى على مولاي امير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم » .
قال : « كيف يكون هذا وكلاهما أموي وقد اتحدا علينا وقامسا لحربنا ؟ »

قال : « اما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت ما بينهما من الدخائل لتحققت ان خالداً أرغب في بيعه امير المؤمنين من آل العوام انفسهم » .

فقال عبد الله وهو يتسم ابتسامة الاستخفاف : « وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذي أمر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بسنجيناته ثم احترقت وأعدنا بناءها ؟ »

فقال حسن : « صدقت يا مولاي انه ابن يزيد بن معاوية ، ولكن لا يخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لا يزال محاصرا البيت الحرام وأتم فيه ، وهو لا يعلم بموت خليفته يزيد ، وقيل انكم عرفتم بموته قبله ، واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه في شأن الخلافة » .

فقطع عبد الله كلامه وقال : « أظنك تعني انه عرض علي البيعة بعد موت يزيد ؟ »

قال حسن : « نعم يا مولاي ذلك ما أعنيه ، ولو انك اجبته الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك » .

فتقطب حاجبا عبد الله بغثة كأنه تذكر امرا يؤله ذكره وقال : « ولكنه اراد ان أذهب معه الى الشام ، وأبى الا ان تكون البيعة هناك » .
قال : « وما منع مولاي ان يذهب الى الشام ، انك لو ذهبت معه اليها وقربته منك لم يختلف عليك احد » .

فأسرع عبد الله في قطع الكلام لانه لا يحب ان يتذكر الخطأ الذي

ارتكبه في ذلك ولولاه لكان ذو العوام خافاء الاسلام بدل بني أمية
لشدة اضطراب حال بني أمية في ذلك الحين . وقال لحسن : «ثم ماذا؟»
أوصلنا الى حديث خالد» .

قال : «لما مات يزيد بايع اهل الشام ابنه معاوية (الثاني) كما تعلمون
وهذا لم يكن يرى لبني أمية حقا في الخلافة كما صرح جهارا في خطابه
بعد ان تولاهما بأربعين يوما ، فانه أمر فنودي : (الصلاة جامعة) . فلما
اجتمع الناس وقف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (اما بعد ، فاني ضعفت
عن امركم ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم
اجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم ، فأتيت أولى بأمركم
فاختاروا . ما كنت لأزودها ميتا وما استمتعت بها حيا) . ثم دخل داره
وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه ،
واضطربت الاحوال حتى آل الامر الى مبايعة مروان بن الحكم لانه أكبر
بني أمية سنا . وكلنا نعلم شأن هذا الرجل في امر عثمان وكيف انه قد
أوقد جذوة تلك الفتنة التي لم تتخلص من عواقبها الى اليوم . وهكذا
تولى الخلافة مروان دون خالد بن يزيد الذي كان أحق بها منه ، بحكم
نظام الوراثة الذي وضعه جده معاوية . على ان بني سفيان لم يرضوا
ببيعتهم حتى عاهدهم على انه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاهما
مروان حدثته نفسه ان يخرجها من نسل معاوية الى نسله ، فتزوج أم
خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة . واتفق بعد بضعة اشهر ان
مروان ناظر خالدا في شأن وشتته وأهان امه ، فخرج خالد الى امه
وأطلعها على ما كان فقالت له : (دعه فانه لا يقولها بعد اليوم) . وفي
المساء جاءها مروان وسألها : (هل اخبرك خالد بما جرى بيننا) . فقالت :
(يا امير المؤمنين ، خالد أشد تعظيما لك من ان يذكر لي خبرا جرى بينك
وبيته) . فلما امسى المساء وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هي

وجواربها حتى مات ولم يتم السنة في خلافته ، والناس يظنونته مات خنف
أنفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالامر ، ولكنه خشي اذا اتقم لايه
ان يفضح امره ويقال ان امرأة قتلت . فظل حاقدا على خالد ، وظل خالد
ينظر اليه نظره الى مختلس . ولهذا قلت لمولاي امير المؤمنين ان خالدا
أرغب من آل العوام في خلافتك» .



لما فرغ حسن من كلامه ، اطرق عبد الله طويلا ، وشعر حسن وابن
صفوان بما يجول في خاطره في اثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع
رأسه بغتة ونظر الى حسن وقال : «لقد فات الوقت ، ما يقدره الله
فهو كائن . على اني ما اظن خالدا يرضى بخروج هذا الامر من بنسي
أعيامه الى رجل حاربه ابوه عايه . ولا ارى ثمة مسوغا لذلك» . ثم
استدرك فقال : «ولكنك لم تذكر بعد ما هو الامر الذي جئت لاجله ؟»
فقال حسن : «انه امر لا يستحسن الخوض فيه الان !»

قال : «بل قل» .

قال : «لقد بعثني خالد الى امير المؤمنين خاطبا» .

قال : «من ؟ ولمن ؟»

قال : «مولاتي رملة اخت امير المؤمنين ، الى مولاي خالد بن يزيد .
وقد كتب بذلك كتابا فقدته في المدينة لسبب يطول شرحه» .
فوقع الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لما بينه وبين بني أمية .
على انه لما تذكر ما سمعه من حسن مال الى تصديق الامر ، وان بقي
مرتبا في حقيقة مهمته ، فقال له : «اذا كان خالد كما وصفت فاني أرحب
بمصاهرته ، وكنت أود الاطلاع على كتابه . وليس هناك ما يدعو الى
العجلة والحال على ما ترى . فلنصبر حتى يقضي الله بيننا وبين هذا

الطاغية الذي يرمي بسنجنيقاته بيت الله ولا يخاف عقاباً» .
 فقال حسن : «ذلك ما دعاني الى التردد في تبليغ الرسالة ، ولكن
 يكفيني ما علمته من رضاكم ، رغم اني لا احمل كتاب خالد . وسأكتب
 اليه لأطمئنه بالقبول ولكي يرسل كتابا اخر في هذا الشأن . ثم انسي
 أعرض على مولاي ان اكون في خدمته لعلني استطيع امرأ يكون فيه
 مصلحة له . فهل ترى ان أذهب الى الحجاج فأكلمه في شأن الهدنة او
 الصلح فربما كان لكلامي وقع عنده لانني أعد من أنصار بني أمية فلا
 يرتاب في اخلاصي ؟»

فقطع عبد الله كلامه وقال : «لا .. لا .. دعهم وما يفعلون ، اني
 لا أريد وساطة لدى عبد تقيف» . قال ذلك ووقف ، فوقف حسن وحياء
 ثم انصرف من غير الباب الذي دخل منه ، وكان الليل قد ارخى نقابه
 فنبهه ابن صفوان وناداه قائلاً : «رويدك يا اخا العرب» .
 فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه ، فأمسك هذا بيده وأدنى
 فمه من أذنه وقال همسا : «تعال معي» .

فمشى معه حتى دخلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخله غرفة خالية
 وقال له : «سمعتك تعرض على امير المؤمنين التوسط لدى الحجاج في
 المهادنة او نحوها ، وأمير المؤمنين لم يقبل ذلك أففة منه . ولكنني أعلم
 ما نحن فيه من الضنك . وان المهادنة تفيدنا في لم شعثنا لاننا قد تشبنا .
 لا اقول ذلك خوفا من الموت فاننا لا رغبة لنا في هذه الحياة . وانما نحن
 نطلب الآخرة وبنو أمية يريدون هذه الحياة الفانية ويسفكون الدماء من
 اجلها . فاذا رأيت ان تقوم بهذه المهمة فافعل» .
 قال : «سأسمى في ذلك جهدي ، ولعلي أوفق الى ما فيه الخير ان
 شاء الله» .

فقال ابن صفوان : «انزل الان في دار الاضياف اذا شئت ، او انزل

• في داري »

فقال حسن : « بل انزل في دار الاضياف ريثما أدير الامر » •
قال : « ولكن الليل ادركنا ، فامكث عندنا الليلة ، فاذا اصبحنا
خرجت الى حيث تريد » •

فتذكر حسن بلالا والجمل ، وكان قد تركهما بباب المسجد فقال :
« ان خادمي ينتظرني بباب المسجد والجمل معه ، وأخاف ان يستبطنني
فيظن ان قد منسي سوء » •

فقال ابن صفوان : « انه اذا استبطأك ، فسينام حيث هو ، وفي الغد
نراه » •

فأطاعه حسن وبات عنده • وقضى معظم الليل يفكر في امر ابن الزبير
وفي مسيره الى الحجاج ، ثم ادركه النوم فرأى في منامه انه لقي الحجاج
وجادله في امر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق ، فسمع من الحجاج كلاما
غليظا ، فأفاق في الصباح وهو منقبض النفس •

ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه ان يسير معه الى
بيت الاضياف فقال حسن : « ارى ان أبحث عن الخادم والجمل » •
فقال : « لا خوف عليهما ، هلم بنا الى دار الاضياف لتعرفها فانها
بجانب بيت امير المؤمنين ، ثم تذهب بعدئذ الى حيث تشاء » •



سار ابن صفوان مع حسن حتى أدخله دار الاضياف ، واتجه هو الى
بيت عبد الله • ورأى حسن في الدار افاسا لم يعرف احدا منهم ، فجعل
يتفرس في الوجوه لعله يرى خادمه بينهم ، فلما لم يجدهم بالخروج الى
مواقف الدواب عسى ان يجده مع جملة هناك ، ثم رأى بلالا مقبلا والبعثة
بادية في وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضائع ، وما كاد بلال يراه

حتى سارع اليه وقال : « اين كنت يا مولاي . ان سيدي ابا سليمان
يبحث عنك » .

فبغت حسن لذكر ابي سليمان لعلمه انه فارقه في المدينة وقد عهد اليه
في تنسم أخبار سمية . فقلق لمحيته ونهض وقال : « اين هو ؟ »

قال : « تركته في المسجد وجئت للبحث عنك ، فهل أدعوه اليك ؟ »

قال : « بل أذهب اليه » . وهم بالخروج فرأى اهل الدار في هرج
ومرج يزاحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم ، فوقف
مع الواقفين وسأل احدهم عن القادم ، فقال له : « ان ذات النطاقين فادمة
الى دار الاضياف » .

فعلم انها أسماء بنت ابي بكر ، أم عبد الله بن الزبير ، وكان يحسبها
قد ماتت لكبر سنها لانها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة . فهي
يومئذ قد بلغت المائة من عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة
الصدر وصحة الدين . فأحب ان يراها فجعل يتناول حتى اقبلت فإذا هي
قد احدودب ظهرها وعسيت ، وجاءت تنوكاً على عكاز ، ويجانبها رجل
يسندها ويرشدها الى الطريق . ورأى الناس يدنون منها ويقبلون اطراف
توبها تبركا بها . حتى اذا اقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : « خافوا
الله ولا تبخلوا على عبادته بالطعام وان كان قليلا في الاسواق فان الله
كفيل بطعام الغد » .

فعجب حسن لاهتمام أم الخليفة بأمر الاضياف على عجزها وضعفها،
ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبد الله فظننها جاءت تحت الخدم على
اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن اهلها . ولا شك في
انها كانت قلقة على ابنها عبد الله لعلها بما يتهده من الخطر العظيم .
وبعد ان مر موكب ذات النطاقين ، خرج حسن ومعه بلال وسارا الى
المسجد ، وسارع حسن الى لقاء ابي سليمان . فحياه وقال : « ما وراءك

يا عماه ؟»

قال : «ان ما ورائي ذو بال يا بني» •
فبغت حسن وقال : «وما هو ؟» قل يا عماه • هل اصاب سمية
سوء ؟ »

قال : «لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة» •
قال حسن : «جاءت الى هنا ؟» وأين هي ؟»
قال : «اصبر ريثما نجلس في بعض جوانب المسجد على انفراد وأقص
عليك الخبر» • وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق،
فاتحيا ركنها فيه • وحسن في قلق شديد فلما جلسا قال : «قل يا عماه اين
سمية الان فقد نفذ صبري • وكيف جاءت مكة ؟»

قال : «انها جاءت مكة ، ولكنها الان خارجها» •
فاتبه حسن وقال : «لعلها عند الحجاج ؟»
قال : «نعم يا بني انها عنده» •
فصاح وهو لا يعي ما يقول وما في المسجد من يسمعه غير ابي
سليمان : «وكيف كان ذلك ؟ أفصح بالله» •
قال : «اخذها زوجة له ، لان أباه عرفة زفها اليه يوم سفرك ،
وأرسلها مع الحملة التي بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل
المدينة » •

فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بذهول ، وتذكر انه شاهد
تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج يحرسه فارسان فارفعت
فرائصه وهز رأسه وقال : «أعوذ بالله !» أأرى سمية تساق الى الحجاج
وأبقى واقفا انظر الى هودجها ولا أنقذها ؟ • ولكنني لم اعرفها ولا بد
من انقاذها من يد ذلك الظالم ، ومن يد ايها الخائن الغادر قبحه الله •
ثم التفت الى ابي سليمان وقال : «وهل سيقب الى الحجاج برضاها ؟»

فقال ابو سليمان : «ما أظنها الا سيقت مرغمة • فقد علمت ان أبأها احتال في اخراجها من المنزل الى ضواحي المدينة وسلمها للجند المعسكرين هناك » •

قال حسن : «اذن هي الان امانا في هذه الخيام قرب جبل ابي قبيس • لا بد لي من الذهاب اليها ، فاما ان أنقذها او اموت فسي سيلها » •

فقال ابو سليمان : «اعلم يا بني اني رهين اشارتك وقد قلت لك اني وقفت حياتي على خدمتك ، فاذا رأيت ان تبعثني في شأنها فافعل » • فصمت حسن مفكرا ثم قال : «انتي أحتاج اليك يا عماء في ابلاغ رسالة الى مكان بعيد» •

قال : «انني على استعداد للذهاب الى السند في خدمتك» •
قال : «لا •• بل الى الشام ، الى خالد بن يزيد ، فهل تقبل ؟»
قال : «افعل ان شاء الله ، اين الرسالة ؟»
قال : «اكتبها اليه الان وهي خاصة بالمهمة التي جئت لاجلها» •
قال : «اكتب وأنا بين يديك» •

فأخرج حسن من جيبه منديلا من القباطي (نسيج مصري) وكان قد أعد دواة وقلما في جيبه لمثل هذه الغاية • وجلس على حجر بجانب احدى عضادات المسجد فكتب أسطرا قال فيها :

«الى خالد بن يزيد من حسن • أما بعد فقد جئت البيت الحرام بعد ان مررت بالمدينة وأضعت فيها كتابك ، ولهذا حديث سأقصه عليك عند اللقاء • على اني واصلت السفر الى مكة ولقيت ابن الزبير وأبلغته الامر خلال اشتغاله بالحصار وضيق ما حوله ، فأجاب بالرضاء • ولكنه رأى ان تبعث اليه بكتاب اخر في هذا الشأن ، فاذا شئت فافعل ، وابعث الكتاب مع حامل هذا اليك ، وأنا باق هنا لامر يهمني كثيرا ، والسلام عليكم

• ورحمة الله»

ثم سلم الكتاب الى ابي سليمان وقال له : «امض على عجل ، واحذر ان يعترضك الحراس حول مكة» •

قال : «لقد دخلت ولم ينالوا مني مأربا ، وسأترك بلالا في خدمتك لملك تحتاج اليه في شيء» •

فأثنى عليه وودعه ، وعاد الى ما كان فيه من الاهتمام بأمر سمية ، فرأى ان يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها ويستطلع خبرها • وكان كلما فكر في الامر ، وتصور انها زفت الى الحجاج ، اضطرب وتأثرت أشجانه واشتد قلقه ، حتى لم يعد يستطيع صبرا فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة في شأن وقف الحرب ، ولكنه لم ير بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير • فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده ، فالتسسه في دار ابن الزبير ، فلم يجد احدا في القاعة التي كان الاجتماع فيها بالامس ، وبينما هو مار بالقرب من مرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة وقع نظره على رجل كان في خدمة ليلي الاخيلية ، فتوسم فيه الخير وناداه وقال له : «ما الذي جاء بك الى هذا المكان؟»

قال : «جئت مع مولاتي» •

قال : «ليلى هنا الان ؟ وأين هي ؟»

قال : «هي عند امير المؤمنين في بيته ، وأظنها في حجرة امه ذات

النطاقين » •

قال : «ومن اين اتيتم ؟»

قال : «من معسكر الحجاج» •

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه بأن ليلي لا بد ان تكون قد رأت سمية هناك وسمعت منها شيئا ، فلم يعد يصبر على لقاءه ليلي وأخذ

يتمشى خارج البيت ، وكلما سمع حركة او صوتا فلنفا خارجة ، حتى مل
 الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : «هل اقمتم بمعسكر الحجاج طويلا؟»
 قال : «اقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتي اسرعت الى مكة ، وأرسل
 الحجاج معنا من أوصلنا اليها لئلا يعترضنا الحراس المحيطون بها» .
 فأدرك حسن انها جاءت بإشارة الحجاج فزاده رغبته في مقابلتها
 واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان
 خارجا من الدار مهرولا . فلما تلاقت نظراتهما أقبل عليه ابن صفوان
 وقال : «أحمد الله على اني رأيتك هنا ، فقد كنت ذاهبا للبحث عنك
 مخافة ان تكون قد مضيت في الامر الذي نذبت نفسك له بالامس» .
 قال حسن : «وماذا تعني؟»
 قال : «أعني مقابلة الحجاج» .
 قال : «وما الذي حدث؟»
 قال : «لقد جاءت ليلي الاخيلية من عنده ، لئلا ذلك الغرض . وقد
 سمعت من امير المؤمنين انه لا يرى صلحا ولا هدة ، لان الحجاج لا
 يريد منه غير الاستسلام ، وهذا امر مستحيل عندنا والموت اهون منه» .
 فقال حسن : «وأين هي ليلي الان؟»
 قال : «في دار النساء وقد نزلت عند مولاتي ذات النطاقين ، ورملة
 بنت الزبير عندها ايضا» .
 قال : «هل من سبيل الى مقابلتها؟»
 قال : «ذلك يسير . هل اخبرها بانك تطلب مقابلتها؟»
 قال : «أفعل» .

- ١٤ -

سمية في بيت الحجاج

دخل ابن صفوان ، ثم عاد وأشار الى حسن ان يتبعه ، فدخل وراءه
غرفة رأى فيها ليلي وحدها في انتظاره . فلما أقبل عليها قالت : « اذن
انت حسن حقا ؟ . كيف اذن أكدوا لي انك قتل ؟ »

فابتسم وقال : « كدت أقتل - ولكنني حي الان فأخبريني هل كنت
في معسكر الحجاج ؟ »

قالت : « نعم » .

قال : « وهل رأيت سمة هناك ؟ »

قالت : « نعم رأيته » .

فخفق قلبه عند سماع جوابها وعاد يسألها قائلاً : « هل رأيته حقيقة ؟ »

قالت « رأيته ورأيتني ، وكلستها وكلمتني ! »

قال : « بالله كيف حالها ؟ وما الذي جرى لها ؟ »

قالت : « اراك غائبا عن الدنيا ؟ ألم تعلم انها حملت الى الحجاج لتزف

اليه ؟ »

فلما سمع ذكر الزفاف صعد الدم الى وجهه وقال وهو يظهر التجلد:

« نعم علست ، ولكن هل زفت اليه حقا ؟ »

قالت : « زفت اليه منذ يومين ، وهي الان في داره مع نساءه » .

قال : « في داره مع نساءه ؟ . اذن صارت زوجة له ؟ »

قالت : « نعم » .

قال : « وهل ذكرتاني في حديثكما ؟ »

قالت : « ذكرناك وبكىنا عليك وهي التي اخبرتني بموتك » .

قال : « وهل هي آسفة على موتي ؟ »
قالت : « اما قلبها فمكك ، فهي لا تفتر عن ذكرك لحظة مع حبها من
لقاءك ، لا يهناً لها العيش مع احد غيرك » .
فأبرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك وقال : « اذا كان الحجاج عقد
قرائنه بها كما تقولين ، ويئست من لقائي فكيف ألقاها ؟ »
قالت : « الحب كله رجاء يا حسن ، بل الحب يضع الرجاء في موضع
اليأس » .

قال : « بأقية هي على حيي ؟ »
قالت : « نعم وهي مع ذلك لا ترجو لقاءك فكيف اذا علمت بأنك حي ؟
فهل انت تحبها مثل حبها لك ؟ »
قال : « كيف لا ؟ » . وهاجت أشجانها ولم يعد يستطيع صبرا على
الذهاب اليها وأحسن انه مقصر في حق سبية ، وهان عليه ان يضحي
بنفسه لاتقاذها . وكلما تصور انها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه
وكادت الميرة تحرقه ، فأطرق برهة ثم قال : « وهل زفت الى الحجاج
حقيقة ؟ »

قالت : « قلت لك انها زفت اليه وهي في داره مع سائر نساءه » .
قال : « أعوذ بالله ! » . ولكن قلبي لا يصدق انها في بيته مثل احدى
نساءه . وهل يحبها هو ؟
قالت : « يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بحصوله عليها لانها لا
تريده ، ولكن المقادير ساعدته فحملوها اليه قسرا » .
فاضطرب وجعد الدم في عروقه وقال : « اني اطير اليها وأختطفها من
وسط بيته ومن بين مخالبه ! »
فقطعت ليلي كلامه وقالت : « تبصر يا حسن ، ان دون الوصول اليها
عقبات لا يستطيع تجاوزها الا بالحكمة » .

قال : « وأي حكمة ؟ كيف يمسه الحجاج وأنا حي ؟ » ليس في الحب حكمة • الحب شيء والحكمة شيء آخر • ان الرجل اذا احب ، خضع لقوانين الحب وحدها ، وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا رياء • فلما رأت ليلي شدة هياجه اشفت على حياته مما يعترض السبيل الى سمية من الاخطار ، ولا سيما انها عند الحجاج الذي اشتهر بالظلم والجبروت • فاذا وقع حسن بين يديه فلن يعفيه من القتل ، فقالت له : « اني معك في ان الحب لا سياسة فيه ولا حكمة ، ولكن المحب ينبغي ان يحرص على حياته لاجل حبيبه ، فيجب ان تحرص على حياتك لاجل سمية • تبصر في الامر يا بني ، وسأكون في عونك حتى تبلغ ما تريده ، فاني أعرف قيمة الحب ويسوءني ان يفرق احد بين حبيين ، بل انسي لأنقم على من يسعى في التفريق بينهما ! » • قالت ذلك وتنهدت وأشرق الدمع في عينيها •

فأدرك حسن انها تنطق عن احساس صادق لانها احبت توبة ومنعوها منه فقال : « بورك فيك يا ليلي فلقد خففت من شدة بلواي ، فأشير علي بما ترين » •

فقالت : « اني وفدت على الحجاج في معسكره ، على عادتي في الوفود على الامراء ، فرحب بي وأنزلني في دار أعز نسائه عليه ، وهي هند بنت النعمان • ولعلك تعلم انها جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تجبه ولا تحترمه ، فلقيت سمية عندها ، وتحدثت معها في شأنك فلما انبأني بفقدك شق ذلك علي ، واعتزمت ان أستطلع خبرك في مكة ، فعرضت على الحجاج ان آتي اليها وأحاول اقناع ابن الزبير بالاستسلام ، مع اني أعلم ان استسلامه مستحيل • فلما جئت مكة علمت انك جئت بالامس ، وخطبت رملة اخالد فقبل ابن الزبير ولكنه استهلك ريشما تنقضي الحرب • فكان سروري مزدوجا بسلامتك ونجاحك في المهمة

التي جئت لاجلها • وأرى ان اعود الان الى معسكر الحجاج وأجعلك راويتي ، وأنت تعلم ان لكل شاعر عربي راوية يرافقه فيحفظ أشعاره ويرويها عنه • والحجاج لا يعرفك ، فلن يخطر بباله انك مناظره على سمية ، ومتى وصلنا الى المعسكر وأقمنا به ، تفكرنا في امر سمية ، وأسأل الله التوفيق» •

فاستحسن حسن رأيها وقال : «اذن هلم بنا الان ، فاني لا أصبر على هذه الحال» •

قالت : «اسبقني الى المسجد ريثما أودع ذات النطاقين وألحق بك» •
قال : «لقد انساني حديث سمية استطلاع ما دار بينك وبين ابن الزبير في امر الصلح او الاستسلام»

قالت : «كنت على يقين من انه لن يقبل ، وقد رأيت أمه أسماء ذات النطاقين اكثر منه تشددا ، واني لأعجب لهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات فسي دعوته • على اني وقد رأيت معسكره ومعسكر الحجاج ، لا أشك في ان ابن الزبير مغلوب ، فالفرق كبير بين المعسكرين في العدد والعدة وكل شيء» •

فابتدراها حسن قائلا : «لقد رأيت بعيني اصحاب ابن الزبير واخوته وأهله يتخلون عنه ، وقد نفذت قواته وأقواته فالامر خارج من يديه لا محالة» •

قالت : «القوة هي الغالبة يا حسن ، والخلافة صائرة الى بني أمية • لان عندهم الرجال والاموال ، وقد ساعدتهم الاقدار من كل ناحية» •
فقطع حسن كلامها وقال : «ليس يهمني الان الا امر سمية ، وسأسبقك الى المسجد فأنهي للسفر» • قال ذلك وتركها وأسرع الى المسجد ، فوجد بلالا جالسا بباب حانوت لرجل فارسي يبيع الاقمشة بجوار الصفا • فلما

رآه بلال نهض وتبعه حتى دخلا المسجد ، فقص حسن عليه عزمه على الذهاب الى معسكر الحجاج وأسر اليه الغرض من ذلك .
 فقال بلال : « ألا تستطيع ان اكون في خدمتك يا مولاي ؟ »
 قال : « بورك فيك . ولكنني ذاهب في مهمة لا تخلو من الخطر ،
 واذا انكشف امرى فيها فلن ينفعني الرجل والرجلان ، على انى ارجو
 التوفيق . فابق انت هنا بضعة ايام ، فاذا لم اعد فاطلبنى في معسكر هذا
 الطاغية » .

تنكر حسن في ثياب غير ثيابه ، وحصل جرابا فيه أدراج من الرق
 كتب فيها بعض القصائد . ثم مكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت
 وركبت جملا يقوده خادم ، فركب حسن جيله ، وسارا والخادم يمتشي
 وراءهما حتى مروا بيت ابن صفوان وكان واقفا بالباب فرأى ليلى وعرفها ،
 وتفرس في حسن فعرفه كذلك رغم تنكره . فحياهما وقال : « الى اين ؟ » .
 فقال حسن : « لقد عزمت على ان ابدأ السعي في سبيل التوفيق » .
 فهز ابن صفوان رأسه وتنهّد وقال : « أسأل الله لكما السلامة » .
 وما لبث حسن وليلى ان ابتعدا عن بيت ابن صفوان ، وخرجا من
 مكة حتى لقيهما رجال الحجاج ، فعرفوا ليلى ولم يعترضوهما ، فواصلوا
 السير حتى اقبلا على معسكر الحجاج .
 نظر حسن الى المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على
 مسافة بعيدة ، فعظم امر الحجاج في عينيه وقال : « يا ليلى ان الامر صائر
 الى هذا العاتي لا محالة . واني لينفطر قلبي كلما تصورت مصير عبد الله
 ابن الزبير . أنظنيته مغرورا بنفسه ؟ »
 قالت : « كلا ، ولكنه يعتقد انه على الحق » .
 قال : « ما الذي اراه على جبل ابى قبيس ؟ »
 قالت : « ألم تر وقوع الاحجار على الكعبة ؟ ان الحجاج نصب

منجنيقاته على الجبل وهو يرمي الحجارة منها على الكعبة • ومع المنجنيقات فصيلة من الجند» •

قال : «وأين خيام النساء التي تقيم بها سمية ؟»

فقلت : «نحن سائرون الان الى خيمة الحجاج ، وهي الكبيرة القائمة في وسط هذه الخيام ، وسأدخل انا ثم اخرج وأسير بك الى مكان أعرفه ، وأذهب الى هند بنت النعمان فأرى سمية هناك وأقص عليها قصتك ، وأنفق معها على موعد تلتقيان فيه خارج المعسكر» • وما زالا سائرين حتى اقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا امامها اناس بالحرايب ، وآخرون بالسيوف ، وهم أشبه بالحراس عند الروم — وكان بنو أمية قد اقتبسوا نظام الحرس من الرومان وتوخاه عمالهم اربابا للناس — وقبل وصولهما الى الباب اناخا الجميلين ، ونزلا فمشيت ليلي والناس يوسعون لها وحسن يسير في اثرها حتى وقفت بباب الخيمة، فدخل احد الحراس يستأذن لها ثم عاد يدعوها الى الدخول ، فدخلت وظل حسن مع الواقفين بالباب وهو في شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم اعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة • فاذا هو جالس في صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه وأداره على جنبه • ورآه لما دخلت ليلي رجب بها بصوت أرق مما كان يتوقعه ، وكان الحجاج رقيق الصوت الا اذا استفاض في الخطابة فيرتفع كثيرا • وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلي فاذا هو اخفش العينين ، مقطب الوجه ، ولم يجد في وجهه قبولا للابتسام او الضحك •

* * *

لاحت من حسن التفاتة الى جلساء الحجاج ، فرأى رجلا لم يكـد

يتبينه حتى اضطربت جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته فقد كان عرفة
 ابا سمية ، وقد جلس بجانب الحجاج يقضي ويمضي وله الحول والطول .
 وأدرك حسن ان عرفة لم ينل هذا المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت
 عواطفه وحدثته نفسه بأن يفتك به انتقاما منه . ولكنه ما لبث ان عاد
 الى رشده وعلم بما يحيط به من الاخطار فأشاح بوجهه الى خارج
 المعسكر لئلا يلاحظ احد عليه شيئا . كما خشي ان يراه عرفة فيعرفه
 ويدبر له مكيده اخرى ، فمشى متظاهرا بأنه يسير على غير هدي حتى
 بعد عن خيمة الحجاج .

ثم سمع ليلي تناديه فصار اليها وتبعها والجرب معلق في كتفه
 بوصفه راويتها . وبعد ان قطعنا مسافة في المعسكر قالت : «انظر الى
 هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ،
 فأنم بها ريشا آتيك او أبعث اليك» .

فال : «وسمية ؟ ألا تستطيع رؤيتها الان ؟ خذيني معك بوصفي
 خادما لك او تابعا او اي شيء لأرى سمية» .

فرق له قلب ليلي وقالت له : «مر في أثري حتى ندخل مضرب خيام
 النساء واجعل كأنك تحصل لي هذا الجراب حتى تضعه في الخيمة التي
 نحن سائرون اليها ، ومتى وصلنا أدبر لك حيلة لمشاهدتها ومخاطبتها» .
 فرقص قلبه فرحا ونسي كل خطر في سبيل شوقه لرؤية حبيبته .
 وبعد هنية وصل الى خباء له عدة ابواب وحوله خيام اخرى صغيرة ،
 فعلم انه خباء اهل الحجاج ، وقالت ليلي : «امكث تحت هذه النخلة ومتى
 دعوتك فادخل» . وكانت الشمس قد مالت الى المغرب ، فجلس هناك
 وقلبه يدق وعيناه شائعتان .

ودخلت ليلي الخباء وهو اقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب في
 بناء الاخبية ، فدخلت القسم الذي فارقت هنذا فيه فرأتها وسمية جالستين

لا تنكسان • ولما رأتاها رحبتا بها ، وآنست في وجه هند انقباضا فقالت :
« ما لهند غضبي ؟ » فأجابت سمية بفولها : « ومن ذا الذي يقترب من
النار ولا يحترق بها • ان ظلم هذا الجبار العاتي ليصل حنى الى اهل
بيته » •

وكانت ليلي تعلم يبغض هند للحجاج ، فلم تستغرب ذلك ، ولكنها
اغتنتت الفرصة وأجابت سمية قائلة : « اراك تشكين من الحجاج وقساوته
وأنت لم تعرفيه الا بالامس ، وهو مغرم بك ، ولا يكاد يصدق انه
حصل عليك » •

فقطعت كلامها وقالت : « لم يحصل ولن يحصل على شيء باذن الله » •
فقلت : « ولكن هذا بعيد وأنت في داره وبين يديه ليلا ونهارا » •
فأشارت بعينها كأنها نكتهم امرا لا تريد ان نبسوح به امام هند •
فاستغربت ليلي قولها وتظاهرت بأنها تريد مخاطبتها في شأن فدخلت بها
الى خيمتها الخاصة ، فاستقبلتهما امة الله جارية سمية وكانت تهيء
الطعام ، ثم خرجت من الخيمة لبعض شأنها • فلما خلا المكان قالت ليلي :
« رأيتك تتوعدين الحجاج وتبرئين منه وهو زوجك الشرعي ، فضلا عما
له من السلطان النافذ عليك ، فكيف تقولين انه لم يحصل على شيء ؟ »
وكانت سمية قد جلست على حصير من سعف النخل ، وبين يديها
وسادة تشاغل باصلاح ثيابها وهي تسمع كلام ليلي • فلما سمعت
سؤال ليلي بدت الحيرة على وجهها وامتقع لونه امتقاعا شديدا وبقيت
تنظر الى الارض وليلى تفكر في ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هذا
الانفعال فقالت : « مالي ارى سمية ساكتة لا تجيبني عن سؤالي ؟ كيف
تقولين انه لم يحصل عليك وأنت بين يديه ؟ »

فرفعت سمية رأسها وقد بدا التأثر في عينيها وشفتيها وقالت :
« صدقيني يا ليلي ، انه لن يحصل مني على شيء رغم عقد قرانه بي •

ولم يكن ذلك تفضلا منه ولكنه أجبر عليه لقسم سبق به لسانه • وأما كونه ان يحصل علي فقد اعددت وسيلة انجو بها منه الى حبيبي ••» قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فأرسلت دموعها وهي صامتة لا تشهق ولا تتكلم ، فازداد عطف ليلي عليها ، ولكنها استغربت ما سمعته منها عن الوسيلة التي أعدتها للنجاة • فقالت : «وأي وسيلة أعددت ؟ وأين هو حسن الان ؟»

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب ، وهمت ليلي بأن تطمئننها عن حسن ولكنها خشيت ان يصيبها سوء من المفاجأة • فقالت : «اذا كنت تحينني فلا تخفي علي سر هذا الامر ، فقد رأيت مني كل اخلاص وأنا خادمة لك الى اخر نسمة من حياتي • قولي ، ولا تخفي علي شيئا» •

فقالت وهي تمسح دموعها : «اما سبب كونه لم يحصل على شيء مني ، فذلك انه اراد ان يطوف بالكعبة اخر الحجة الماضية فمنعه ابنن الزبير من ذلك » فأقسم ألا ينزع سلاحه ولا يقرب نساءه ولا الطيب حتى يقتله» •

فتذكرت ليلي انها كانت لا ترى الحجاج الا مدججا بسلاحه حيثما كان ليلا ونهارا • واعتزمت ان تفضي الى حسن بذلك لعلها انه يشرح صدره ، ثم قالت لسمية : «وما هي الوسيلة التي دبرتها للنجاة منه في المستقبل ؟ »

فمدت سمية يدها الى جيبها فأخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فاذا في داخلها قطعة رق ملفوفة على هيئة درج ، فتبادر الى ذهن ليلي انها كتاب • ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين اصابعها وقالت : «ان الفرج يأتيني من هذا الدواء !» فقالت ليلي : «وما ذلك ؟»

فقلت : «هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته
فيذهب بي الى مكان ارجو ان ألاقي حسنا فيه» .
فرأت ليلي ان تبوح لها بالسر فقالت : «وما قولك اذا لاقيت حبيك
وأنت حية؟»

فتفرست سمية في وجه ليلي وهي تحسبها تمازحها وقالت : «لا تعجبي
الحياة الي ، فان لقائي اياه في العالم الاخر خير وأبقى . اما هنا فلا امل
لي في ذلك» .
قالت : «لا تقطعي الامل يا سمية» .

فأجابت وهي تحسبها تخفف عنها : «لا أبالي أقطعت الامل ام لسم
أقطعه ، فان مدة عذابي في هذا العالم اصبحت قصيرة ، ولا بد من
انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائي في هذه الصرة،
واذا مات» . ثم تهتدت وأكملت حديثها فقالت : «ولكن ما الفائدة من
بقائي حية وحدي؟»

فقطعت ليلي كلامها وقالت والجد في غنة صوتها : «اذا بقيت حية
فانك لا تكونين وحدك لان حسنا حي!»

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرس في وجه ليلي ، فرأت
الجد باديا في عينيها فوثبت من مجلسها وقالت : «بالله أعيدي ذكبره
وعليني ببقائه . قولي انه حي فان ذكره يحيني!» . قالت ذلك واختنق
صوتها فبكت ثم قالت : «ولكن ما الفائدة من التعلل بالاحلام؟»

فقلت ليلي : «لسنا في حلم ، وانما نحن في يقظة ، وقد آن لك ان
تري حسنا انه في انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوه اليك
لتلتقيا» ، ثم خفضت صوتها وقالت : «وتواعدا على وقت تفران فيه من
هذا المعسكر ، ولا خوف من مجيء الصحاج الى خيام النساء ما دام قد

أقسم لا يقربهن» •

* * *

وكانت سمية تسمع قول ليلي وهي لا تكاد تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ولا سيما بعد ان سمعت ان حسنا يقرب خباؤها ، فهرولت الى شق في الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر احدا ، فنادت امة الله فأسرت اليها وقد انازت السراج ودخلت حتى وضعت على الممرجة فقالت لها سمية : «هل رأيت احدا جالسا حول هذا الخباء ؟»

قالت : «كلا يا مولاتي ولكنني رأيت رجلين مرا معا وخرجا من المعسكر» •

فقالت ليلي : «هل رأيت احدهما يحمل جرابا ؟»

قالت : «أعلمني رأيت مع احدهما شيئا كالجراب» •

فأسرعت ليلي وسمية في أثرها وأطلتا من باب الخباء فلم تريا احدا ، فتحولت ليلي نحو المكان الذي اجلست فيه حسنا فلم تر له اثرا ، فأسقط في يدها ، وفكرت في سبب ذهابه ومن يكون الرجل الذي ذهب به فلم تهتد الى حل •

اما سمية فخامرها شك في قول ليلي ، ولكنها تحققت صدقها لما بدا في عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من امارات الانتقاض ، فقالت لها : «اين عسى ان يكون حسن الان ؟»

فقالت ليلي : «ان ذهابه لا بد ان يكون لامر ذي بال ، فقد جاء معي وهو لا يكاد يصدق انه يحظى برؤيتك ، وما أظنه تحول من هذا المكان بارادته • ولعله يعود الليلة فلتترب رجوعه • ولكن من يكون رفيقه الاخر وهو غريب في المعسكر وقد جاء اليه متنكرا ؟»

ثم دخلتا الخباء ، ومكثت سمية مطرقة مستغرقة في الهواجس وهي مرهفة سمعها فاذا هب النسيم ظنت حسنا قادمًا فيضطرب قلبها • وخرجت ليلى الى خباء هند وهي تكتم ما في نفسها لعلها تستطلع شيئًا جديدًا • اما سمية فنادت امة الله وكانت انيستها في وحشتها وعزاءها فسي احزانها والمطلعة على مكنونات قلبها • فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها فأعادت الصوت فلم يجبها احد ، فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت الى حيث تتوقع ان تراها فرأت في الظلام شبحين عرفت منهما امة الله ، ورأت الثاني بلباس الرجال فخفق قلبها وتوقعت ان يكون حبيبها فلم تعد تصبر عن المناذاة فقالت : «امة الله ؟»

فقالت : «لييك يا مولاتي اني قادمة على عجل» • قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل ، فقلقت سمية ولم تعد تستطيع صبرا وهمت بالمسير نحوهما فرأتهما قادمين فتقهقرت حتى وقفت ياب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على وجه القادم مع امة الله فتعرفه ، ولكنه ظل واقفا على بضع خطوات من الخباء ، ثم تبينت انه بلباس حرس الحجاج ، فتشأمت منه ودخلت الخباء مسرعة وأمة الله في أثرها • وكانت امة الله قد ادركت اضطراب سيدتها من منظر الرجل فأبتدرتها قائلة : «لا تخافي يا مولاتي ان الرجل رسول خير» •

قالت : «ممن ؟»

قالت وقد خفضت صوتها : «من حسن» •

فبدت البتة في وجهها وقالت : «ليدخل» •

فخرجت امة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس • ولم تكن ملابس الجند قد تميزت يومئذ عن ملابس سائر الناس تمييزًا تامًا • غير ان حرس الامراء الامويين كان لهم لباس خاص بهم ، اقتبسهم معاوية من الروم مع علامات خاصة، فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتها تصطكان

لعظم اضطرابها من منظره •

اما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض : « لا يزعجك امري يا مولاتي ولا يخيفك هذا اللباس فاني خادم لك ولمولاي حسن » •

فلما سمعت صوته تفرست في وجهه فعرفت انه عبد الله خادم حسن فصاحت فيه : « انت عبد الله ؟ »

قال : « نعم يا مولاتي اني خادمك عبد الله » •

قالت : « وما الذي جاء بك الى هذا المعسكر ؟ وأين حسن ؟ هل هو حي كما يقولون ؟ » • قالت ذلك وشرقت بدموعها • فقال : « نعم يا سيدتي انه على قيد الحياة ، ولم اكن أعرف ذلك الا هذه الساعة ، وكنت قد يئست من حياته مثلك ولكن الله انعم علينا بنجاته • فالحمد لله » •

قالت : « وأين هو ؟ »

قال : « انه مختبئ على مقربة من هذا المكان حتى لا يراه احد ، لانه جاء متنكرا ولم ينتبه له الا ابوك ، فطلب الى الامير ان يقبض عليه • وقد اطلعت انا على هذه المكيدة فأسرعت اليه وأنبأته بها ، وخرجت به الى مخبأ قرب هذا المعسكر ، وجئت لأنبئك بذلك لتتعاون على استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا في خدمتكما » •

فقالت : « سامح الله ابي ، بل لا سامحه الله على ما يسومنا اياه من البلاء • لقد اصبحت أكره اسم عرفة وأكره ان اراه من اجل هذه المعاملة • آه يا ربي ! ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ قل لي يا عبد الله : هل حسن في مأمن ؟ »

قال : « نعم يا مولاتي انه في مكان امين ولا بأس عليه » •

فقالت : « وكيف ادخلت نفسك في زمرة الحراس ، وكيف انطلى امرك

على الحجاج وعلى ابي ؟»

قال : «ان حكايتي طويلة ، وخلاصتها اني لما يئست من لقاء مولاي حسن في المدينة وكنت قد عثرت على رحله وفيه كتاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير لا بد من ايصاله اليه ، رأيت القدوم به الى مكة ، فاذا كان مولاي حسن قد سبقني اليها لقيته وسلمته اليه ، واذا لم اجده اوصلت انا الكتاب الى ابن الزبير . فلما دنوت من مكة علمت ان رجال الحجاج يحيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع احد الدخول اليها ، وخشيت ان يقع الكتاب في ايديهم ، واحتلت لدخول معسكر الحجاج لعلني اتسهم خبرا عن سيدي ، وقد يسر لي الدخول اني من ثقيف قبيلة الحجاج ، وهو كثير الثقة في اهل قبيلته ويعرفني من قبل ، ولكنني أعلم انه رجل شديد داهية فربما شك في امري فيأمر بقتلي ، فعزمت على ان اتقرب اليه بأن اعطيه الكتاب ، ولاسيما اني لم أر فيه فائدة بعد فقد مولاي ، وربما تمكنت باقترابي من الحجاج من استطلاع خبر مولاي ، فتظاهرت بأنني قادم على الحجاج لامر ذي بال يهمه ، وجئت المعسكر وطلبت ان أقابله في خلوة فأذن لي ، فلما عرفته بنفسه عرفني . ثم اخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم ان ليس فيه ذكر لمولاي حسن ، وانما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير في امر خطبة او نحوها ، فتظاهرت بأنني عثرت بالكتاب مع رجل قادم من الشام ، ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير شككت في امره فقتلت حامله ، وجئت بالكتاب اليه .

«فلما سمع الحجاج ذلك مني ، مع علمه بأنني من قبيلته ، أحسن الظن بي وقربني منه وجعلني من حراسه كما ترين . وفي مساء ذلك اليوم قدم ابوك على الحجاج فأطلعه على ذلك وأنا واقف ببابه . فلما اطلع ابوك على الكتاب ناداني فدخلت الفسطاط فقال : (من اين اتيت بهذا الكتاب!؟)

فقصصت عليه الخبر كما ذكرته ، فقال : (ان صاحب هذا الكتاب عدو لنا عرفناه في المدينة وحاولنا قتله ، ولكن الذي ذهب لاغتياله لم يعد إلينا ؛ فهل قتلته انت ؟) • فلما سمعت قوله اطمأنت على حياة مولاي ، ومضيت في اتمام الحيلة فقلت : (لا أعلم أهو الذي قتلته ام لا ، ولكنني قتلت شابا بلباس كذا) • وذكرت له ما يقرب من صفات مولاي فقال : (لعله هو وقد أحسنت على اي حال) • وأذناني ابوك منه ومكنت في جملة الحراس وأنا أتفقد الاحوال وأستطلع الاخبار حتى جاءنا مولاي في هذا النهار مع ليلي الاخيلية وقد تنكر ، فعرفته ، ولم يتبه لي ولا انا اردت ان يعرفني لئلا ينكشف امرنا • فتجاهلت حتى دخلت ليلي على الحجاج وخرجت • وكان ابوك مع الحجاج في القسطاط ، فلما خرجت ليلي رأيت علائم الغدر في وجه ابيك ، وسعته يخاطب الحجاج فأصغيت فاذا هو يشير باصبعه الى ليلي ويقول : (ان راويتها جاسوس متنكر) • وأشار بالقبض عليه ، فعلمت انه عرف حسنا واحتلت فسي الخروج حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخباء فأخبرني انه جاء من اجلك ، فذهبت به الى خربة وراء هذا المعسكر لا يهتدي اليها احد ، ووعدته ان آتي اليك وأطلعك على امره لتدبر حيلة للفرار » •

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتناول بمنقها وتصيخ بسمعها وعيناها شاخصتان فيه • فلما جاء على اخر الحديث اطمأن قلبها وزال قلقها على حبيبها ، فانبسغت أسرتها وقالت : « بورك فيك يا عبد الله ، انك لنعم الرجل • واذا أتيح لنا ان ننجو على يدك فستكون شريكنا في سعادتنا ، والا فلا حول ولا .. »

فقال : « ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لا بد من الصبر ، فاذني لي في الانصراف الان ، لاعود الى موقعي لئلا يشكوا في امري ، فاذا حدث شيء او احتجت الى شيء فاني رهين اشارتك • واذا حدث عندي

شيء جئتك به» • قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له : «الى اين ؟ وكيف تترك حسنا وحده في تلك الخربة ومن اين يأكل وأين ينام؟» فقال : «أتظنين اني تركته ولم أعد اليه ؟ • كوني مطمئنة فاني أدبر له كل ما يحتاج اليه» • وودعها وخرج •

وتذكرت سمية ليلي ، فنادت امة الله وقالت لها : «اين هي ليلي ؟» فقالت : «هي في خباء هند» • وخرجت ثم عادت تقول : «لم اجد في الخباء احدا» •

فاستغربت ذلك وقالت : «ألم تسألي الخدم عنهما ؟» قالت : «سألت الخادمة فذكرت لي ان هندا خرجت عند الغروب تمشي بين الاخبية ، ثم جاءت ليلي للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت اثرها ، ولم تعودا من ذلك الحين» •

فقالت : «وأين تذهبان في هذا الليل ؟ اخاف ان يكون الحجاج بعث للقبض على ليلي لانها واطأت حسنا على التشكر» • وخافت سمية اذا بالعت في البحث عنهما ان تنصرف الشبهة اليها فدخلت خبائها وجلست تفكر فيما مر بها في تلك الليلة من الغرائب • وكلما تصورت انها نجت بحبيبتها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحا •

اما عرفجة فانه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه ، فتجاهل وانتظر حتى خرجت ليلي ثم طلب القبض عليه كما تقدم • ففوض اليه الحجاج ان يفعل به ما شاء ، فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى كبير الحراس وأوصاه بأن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون أثر راوية الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه • وكان عبد الله قد سبق الى حسن وخرج به الى ذلك المخبأ •

فلما لم يعثر الحراس على حسن هناك ، عادوا الى عرفجة وأنبأوه بذلك فقال : «الي بليلي فانها في اخبية النساء» • فعادوا اليها فأروها

تتمشى مع هند بجوار الاخبية ، فأشاروا اليهسا ان تأتي الى فسطاط
الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف امرها ولكنها لم تر بدا
من الطاعة فسارت مع الحراس حتى اتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبايه ،
فلم يدخلوا فسطاط الحجاج بل دخلوا فسطاطا اخر رأت في صدره عرفة
جالسا . فلما رآته استعاذت بالله من شر ذلك المساء ، ولكنها كانت جريئة
لا تبالي بمن تلاقي ، فدعاها الى الجلوس وقال لها : «اين هو راويك
يا ليلي ؟»

فلما سمعت سؤاله ادركت ان امر حسن قد انكشف فلم تنأ ان
تشرك نفسها في ذنبه فيقعان معا فلا تعود قادرة على مساعدته ، فعمدت
الى الحيلة وقالت : «وأى راوية تعني ؟»

قال : «راويك الذي يحمل جرابك وقد جئت به اليوم» .

قالت : «وهل دخلت على الامير ومعي راوية ؟»

قال : «لم يدخل معك ولكنه بقي خارجا ، ولما مضيت أقفني أثرك» .

قالت : «وهل يدل ذلك على انه راويتي ؟ وكيف يكون راويتي ولا

ادعوه الى الجلوس في حضرة الامير ؟»

قال : «اراك تتصلين منه ونحن لا نريد به شر» .

قالت : «لا يهمني ما تريدون به ، ولكنني جئت الى المعسكر بالامس

وليس معي راوية» .

قال : «كان معك رجل يحمل جرابا» .

قالت : «أتعني الرجل الذي يحمل الجراب ؟ لقد التقيت به عند

دخولي المعسكر ورأيتة يسير بجانبه فلم أتبه لأمره ، ولا اعرفه . . ومع

ذلك فإذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه في خدمتكم فلا حيلة لنا

فيكم» .

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول : «نحن لم نسيء الظن

بك يا ليلي ، وأنت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ، ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا ونحن نحسبه راويناك» .
 قالت : «وهل الامير ممن يخافون الجواسيس ؟ ان من كان مثله حزما وفوة لجدير بأن يخافه الجواسيس ، على اني لو علمت بجاسوس في هذا المعسكر لاطلعت الامير على خبره» .

قال : «بورك فيك ، وأرجو ان تكوني عينا على هذا الرجل ، فاذا رأيته فأنبئنا بمكانه ، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على اثر ولعله يظهر غدا فاكتمني هذا الان» . قال ذلك ونهض ، فنهضت ليلي وخرجت من عنده قلقة على حسن ، وان سرت لنجاته من قبضتهم . ثم عادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر ، فأطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأن بالها .

فضى حسن ليلته في الخبرة التي اختبأ فيها بجانب المعسكر ، وهي تطل على الطريق المؤدي الى مكة ، ولم يفض له جنن لشدة قلقه وتشتت افكاره . وقد عظم عليه ان يخرج من معسكر الحجاج فرارا ولكنه ادرك انه يستحيل عليه النجاة بغير ذلك ، ولبت حتى الصباح وهو يفكر في وسيلة لانتقاذ سمية من الحجاج .

كان عبد الله قد وعده ان يوافيه في مخبئه ليدله على طريقة للفرار ، فقضى ليله في هذه الهواجس ، وفي الصباح صعد على آكمة أشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى عبد الله او رسولا منه ، فرأى بينه وبين المعسكر ارضا خالية وتبين المكان جيدا . وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادما على هجين من أطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ثم سم اقرب الرجل منه فتبين انه خادمه عبد الله ، فاستبشر بقدومه فلما وصل عبد الله ترجل وأشار اليه ان يعود الى الخبرة مخافة الرقباء ، فقال له حسن : «ما وراءك الان؟»

قال : «أبشرك اولا بأن الحجاج لم يقرب سمية وان كان قد عقد قرانه بها» . قال : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قال : «عرفته عن ثقة ، فقد اخبرني به ليلي الاخيلية ، وهي التي ساعدتنا في تدير الحيلة للخروج» . وذكر له امر القسم الذي اقسمه الحجاج ، فانشرح لذلك صدر حسن ، ثم قال : «ومادا دبرتموه للنجاة من بطش الحجاج ، اني لاستنكف فرارنا على هذه الصورة ، ويخيل الي ان سمية لا ترضى مني هذا الضعف» .

قال : «انها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما ، لانهم لو ظفروا بك لفتكوا بكما معا . ثم اي فائدة من بفائك في المعسكر بعد !تكشاف امرك ، وهل تستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟» وعلى اي حال قد جئتكم بما استقرر رأينا عليه في هذا الصباح ، وهو ان اترك هذا الجمل عندك وأعود ، فتأهب انت للرحيل في العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التي تراها امامك ، وسنجدني وسيدتي سمية هناك وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر في الصحراء اياما . ومتى بعدنا عن مكة صرنا في مأمن » .

فسر حسن لهذا التدير ، على صعوبة تنفيذه ، وقال لعبد الله : «احذر ان يطلع احد على ما دبرتموه ، فتكون الثانية شرا من الاولى . وثق بأنني ان وقعت في هذه المرة فلن يسعني الا ان أفاضل عن سمية حتى اموت بين يديها» .

قال : «لقد اعددنا كل شيء ، ولا خوف على سمية لان الحجاج لا يأتي الى خباء اهله مطلقا في هذه الايام للسبب الذي ذكرته لك» .
اطمأن بال حسن وجلس في مخبئه بالخربة يتناول طعاما أحضره له عبد الله ، ولم تمض ساعة حتى سمع صوت قمعقة اللجم ووقع حوافر الخيل ، فصعد الى الاكمة وتطلع نحو مصدر الصوت فرأى أكثر من

عشرين فارسا قد اكنسوا بالدروع ، وفي مقدمتهم فارس ضخيم اسود ، هو قنبر عبد عرفة . فلما وصلوا الى المكان اشار قنبر بيده الى حسن وقال : «هذا هو فامسكوه» . فأحاطوا به من كل ناحية ، ولم ير حسن بدا من التجلد فقال لهم : «ما بالكم ؟ وما الذي تطلبونه ؟» فضحك قنبر مستهزئا وقال : «ان الامير يدعوك الى وليمة العرس!» فاستشاط حسن غضبا من استخفاف العبد به ، وقال له : «اخسأ يا عبد السوء» .

وما أتم كلامه حتى أحدق به الفرسان وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية في رأسه وقال لهم : « لا يغرنكم عددكم ، ولا تظنوا اني اهاب سيوفكم وخيولكم ، فاما اخبرتموني بسا نريدون بالحسنى ، وأما فلن تنالوا مني شعرة قبل ان يقطر حسامي من دمائكم» . قال ذلك وقد اخذ الهياج منه مأخذا عظيما ولم يعد يبالي بالحياة .

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير عينيه خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال : «نراك تظهر من الضعف قسوة ، وما انت الا جاسوس نذل لا احسبك تحتمل ضربة من هذا السيف» . فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وصاح في هذا الفارس قائلا : «أتخوفني بسيفك ؟ انما يخاف السيوف من يخاف الموت ، ولست ذاك الرجل . فاذا اردت النزال فانزل تنباز راجلين ، فلا يصح النزال وأنت راكب وأنا راجل . واذا خفت فانزلوا جميعا وأنا أستعين الله عليكم» .

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : «لو ان الامير أمرنا بقتلك لاريتك القتل كيف يكون، ولكنه أمرنا ان نقودك اليه اسيرا . فامش» .

قال : « لا اسير ماشيا وأنتم راكبون ، فاما ان اركب معكم او تسوا معي ! »

فلما رأوا هذه الجرأة منه هابوه وحسبوا له حسابا ، وجعلوا ينتاورون فيسا يفعلونه • فأشار بعضهم بقتله ، وعارض اخرون لان الامير لم يأمرهم بذلك • ثم قر رأيهم على مسيرته ريثما يبلغون به المعسكر ويقدمونه فيرى الامير رأيهم فيه •

وكانوا يعلمون انه يندر ان يساق الى الحجاج معهم ويسجو من القتل . فانه كان سفاكا للدماء حتى احصوا الذين قتلهم في حياته فبلغوا مائة الف وعشرين الفا ، ووجدوا في سجنونه بعد موته ثلاثة وثلاثين الفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب • فرأى الفرسان ان يعاملوا حسنا بالحسنى ويتركوا امر الايقاع به الى الحجاج • فتقدم اليه فارس غير الذي كلمه اولا وقال له : « لو كنا قد امرنا بقتالك لقاتلناك مشاة او فرسانا ، ويحكم الله بينا وبينك ، ولكننا جئنا لنحملك الى الامير » •

قال : « قلت لكم اني لا اسير معكم ماشيا وأنتم راكبون » • وكان فئبر واففا يسمع كلامه وهو يستغرب صبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ورطائتهم : « امش يا حسن وهل انت احسن مني ؟ »

فلما سمع حسن كلامه جرد سيفه وصاح فيه قائلا : « اذا تكلم الناس فاخرس انت يا عبد النحاس • والا فاني مطير رأسك بحد هذا السيف » •

فضحك قنبر حتى بانث نواجذه ثم قال : « بعد قليل نرى من المقتول منا • ولكنك غير ملوم لان سمية خرجت من يديك ، تعال وانظرها بين نساء الامير ! »

فلما سمعه حسن يذكر سمية ، عز عليه ان يحتقره ذلك العبد ويهزأ

به ، فهاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته ، ولكنه أمسك نفسه وقال له : «لولا خوفي ان يقال لطخت حسامي بدم عبد لثيم لأطرت رأسك عن جذعك ، ولكنني ارجو ان يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ، فاخرس ولا تخاطبني والا فأنت الجاني على نفسك» .

فلم يردد قنبر الا قحة واستخفافا : واقترب من حسن ويده على قبضة سيفه وقال : «المثلي تقول هذا الكلام يا حسن ثم تعرض بذكر مولاي، والله اني ضاربك ضربة أعلمك بها الادب والحشمة» . قال ذلك وهم باستلال السيف ، ففعل صبر حسن لقحة ذلك العبد وسكوت بقيّة الفرسان ، فجرد حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب رأسه يتدحرج على الاحجار .

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه : «لقد حل لنا دمك بعد هذه الجراءة ، كيف تقتل هذا الرجل بين أيدينا ؟»

فلم يبال حسن ضوضاءهم وقال لهم : «أتعدون هذا رجلا ؟» ان من بعده رجلا لجدير بأن يناله ما ناله . ثم اني رأيكم سكتكم عن قحته فلم يسعني الا قتله ، وقد قلت لكم اني لا أبالي الموت فلا تخوفوني به» . قال ذلك والشرر يكاد يتطاير من عينيه ، وظل واقفا وسيفه يقطر من دم قنبر وقد اشتفى قلبه بقتله ويئس من الحياة . لانه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم على الدفاع الى اخر نسمة من حياته ، فاذا مات مات كريما .

على انه ما لبث ان رأى الفرسان يتسارون ، ثم تقدم احدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا : «هذا جوادي فاركه حتى تأتي المعسكر وشأنك والامير ، وسأركب انا جملك» .

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله ، فاستأنس به ، وأدرك انه هو الذي حماهم على الابقاء عليه . فركب الجواد ، وساروا

جميعا نحو المعسكر •

وكان السبب في معرفة مكان حسن ، ان عرفة لما خرجت ليلي من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه في المعسكر ، فقضى هذا طول الليل في البحث ، وفي الصباح رأى هجانا قادما الى المعسكر من ناحية تلك الخبرة ، فلم يعرف الهجان ولكنه شك في امره ، فذهب يبحث في المكان الذي رآه قادما منه ، وهناك وقع بصره على حسن وجملته فأسرع الى سيده فأنبأه بما رأى ، فأوعز هذا الى الحجاج فأرسل كوكبة من الفرسان للقبض على الجاسوس الهارب •

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحراس ، فلما علم بالامر احتال حتى ألحق بأولئك الفرسان ، لعله يستطيع مساعدة سيده ، وبذل جهده حتى أبقوا عليه بعد ان قام بقتل قنبر ، رغم ما له من منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لسيده ، ولانه ينفع في مثل هذه المهام •

وقد ساعد عبد الله في بلوغ غايته ان الجند لم يكونوا يحبون قنبر لفرط استبداده وقبحته - واستبداد العبيد ثقيل على الطباع - فلما قتله حسن فرحوا فيما بينهم وبين انفسهم ، وان أظهروا الغضب •

وبعد ان أرسل عرفة الفرسان دخل على الحجاج في خيمته ، وجلسا ينتظران ما يكون ، وأخذ عرفة يمهد للفتك بحسن ، فأقنع الحجاج بأنه جاسوس وبأنه اذا بقي حيا فلا يؤمن شره • وما كان الحجاج في حاجة الى من يوصيه بالقتل ، وهو بطبعه شديد الرغبة في سفك الدماء •

وآن وقت الغداء ، فلم يشأ الحجاج مغادرة القسطنطينية قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس الذي بالغ عرفة في وصف خطره ، فلما أحس الجوع أمر بأن يؤتى بالطعام الى القسطنطينية ، وكان الحجاج من الاكلة المشهورين في الاسلام أمثال : سليمان بن عبد الملك ، وميسرة البراش ، وغيرهما ، حتى قالوا انه أكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف سكة في

أكلة واحدة ! • فلما جاءوه بالطعام دعا من في مجلسه الى مشاركته فيه ، فاعتذروا جميعا تهيبا منه الا عرفة فانه آكل معه ، وان ظل طول الاكل قلقا يفكر فيما دبره لحسن من المكاييد • فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعت المائدة ، وجلس الحجاج صامتا • وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين في حضرته سكوتا كأن على رؤوسهم الطير •



وفيما هم على تلك الحال ، دخل الحاجب وقال : «لقد عاد الفرسان وعما قليل يصلون» •

فقال الحجاج : «وهل الاسير معهم ؟»

قال : «لم أر بينهم احدا ماشيا» •

قال : «لعله جاء على جواد» • قال : «ان بينهم رجلا بلباس غريب ، فلعله هو الاسير» •

فنهض عرفة ووقف بباب القسطنطينية يتفحص في القادمين ، ولما وقع نظره على حسن عرفة ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يراه فيها بعد مقابلتهما في المدينة •

ولما رأى حسن عرفة ارتعدت فرائصه من الغيظ ، وود لو ان سيفه اصاب عنقه بدلا من قنبر • ولاحظ عرفة ان قبر ليس بين القادمين فظننه تأخر في الطريق ، وعاد الى القسطنطينية وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن وأنبأ الحجاج بوصولهم فقال : «ادخلوا الرجل لنراه» •

فأدخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف بين حارسين احدهما عبد الله وفي يد كل منهما حربة • ولا تسل عن هواجس عبد الله في تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج في سفك الدماء • وأما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين بعض الاصدقاء ، والتفت الى من حوله في القسطنطينية فرأى

في صدره الحجاج وعرفجة ، والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت
تهيا من الحجاج . لانه قلما رؤي ضاحكا ، واذا ضحك فانه لا يزيد
على ان يكشر عن أنيابه . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لم تجد
فيه اي أثر لغير التجهم والعبوس !

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته في سفك الدماء،
ولكنه اعتزم الصبر والتبات حتى الموت ، وبقي واقفا برهة لا يخاطبه احد
في شيء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له : «ممن انت ؟»
قال : «ما انا من ثقيف ولا من أمية» .

قال : «وماذا تعني ؟»

قال : «أعني اني لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين ،
ومهما يكن من امري بعد ذلك فليس مما يغير رأي الامير فيّ ..»
فقطع عرفجة كلامه وقال : «أبمثل هذا الجواب يخاطب ولي امير
المؤمنين !! انها قحة !»

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة والنفث اليه وقال : «بل
القحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ويقطع الكلام عليه» .
فأراد عرفجة ان يتكلم فرأى الغضب في وجه الحجاج وهو يهم
بالكلام فسكت ، وقال الحجاج : «لسنا في مقام جدال ، فأخبرني ما
الذي جاء بك الى هذا المعسكر متنكرا ؟»

فتحير حسن ، ولم يدر بم يجب ، وخاف ان يصرح بحقيقة غرضه
فيهيج غيرة الحجاج عليه ، ولا سبيل بعد ذلك للنجاة ، فلبث ساكنا .
فاستبطن الحجاج جوابه فأعاد السؤال فقال حسن : «جئت لامر يهمني
ولا يهم سواي ولا علاقة له بأمر الخلافة او الامارة» .

فقال الحجاج : «نرى اجوبتك مبهمة فأفصح» .

فلبث حسن ساكنا ، فاغتنم عرفجة فرصة سكوته وقال للحجاج : «ان

اجوبته مبهمة لانه يخاف ان يعترف بفعلته ، وهو جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير • بل هو عدو امير المؤمنين يتمنى سقوط دولته ويسعى في ذلك جهده • واذا شئت ان تتحقق ذلك فاطلب اليه ان يلعن الكاذبين » •

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه فيما قاله عرفجة ، فقال حسن : «حاش الله ان اكون كما يقول» •

فقال الحجاج : «اذا كان الامر كذلك ، فالعن الكاذبين : عليا بن ابي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن ابي عبيد» •

فارتبك حسن لانه لا يعتقد كذب هؤلاء ، ولا يريد ان يلعنهم • وكان يعلم انه اذا لم يلعنهم فان هذا يكون حجة عليه فقال : «لا ارى علاقة بين صدق نيتي في خدمة امير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء» •

فقال عرفجة : «أرأيت يا مولاي كيف هو خائن غادر يكذب على الامير كذبا صريحا ؟» أما قلت لك انه جاسوس والجاسوس يستوجب القتل • اقبله يا مولاي وأرح نفسك منه» • قال ذلك وأطرافه ترتعش ولحيته تنتفض في وجهه على صفرها ، وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما حصرم •

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة ونظر ، فأدرك ان تمنع حسن عن اللعن لا يدل على جاسوسيته ، ولكنه اعاد السؤال عليه وقال : «لقد صبرنا عليك حتى الان • سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب وحده يكفي لاثمامك • ثم سألناك عن غرضك في طرق هذا المعسكر متنكرا فأجبت جوابا مبهما ، وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت • فهل تتوقع ان نصبر عليك اكثر مما صبرنا ؟»

فلما سمع كلام الحجاج أيقن بدنو أجله ، ولكنه لم يجزع ، وعز عليه ان يشمت به عرفجة ، فلبث ساكنا يفكر فيما يفعل ، واعتنم عرفجة

الفرصة فخطبه قائلاً : «اجب الامير • ألسنت جاسوسا خائنا جئت لتكيد لاميير المؤمنين ؟»

ثم التفت الى الحجاج وقال : «اني أعجب لصبر مولاي على هذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع رأسه ؟»

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف ان تنفذ حيلة عرفة فيه فيأمر الحجاج بقتله ، اعتزم الايقاع بعرفة ، فالتفت اليه وخطبه بقلب جسور وقال : «أندعوني خائنا وما الخائن الا انت ؟»

فوثب عرفة من مجلسه مضطرباً وقال : «كيف تجرؤ على هذا الكذب في حضرة الامير وهو أعلم الناس بصدق طاعتي واخلاصي • والله لو أذن لي الامير لقطعت رأسك بيدي ، فاني لأعلم الناس بخيانتك ، ويعلمها ايضا غلامي قنبر» • قال هذا ثم تلفت حوله متفقدا عبده قنبر ، فلما لم يجده صاح : «اين قنبر ؟» • فأجابه حسن ساخراً وقال : «لن يجيبك قنبر لانه نال جزاءه !» • فالتفت عرفة الى الحراس مستهتماً ، وقبل ان يسألهم اشار احدهم بيده اشارة فهم منها ان قنبر قتل بيد حسن فأجفل عرفة وحملق عينيه وصاح فيه : «وهل قتلت غلامي ايضا ؟» ثم تقف غير خائف من القصاص ؟! • ثم التفت الى الحجاج وقال : «أترأه لم يستوجب القتل بعد ؟»

فابتدره حسن قائلاً : «قتلته لخياته ، وسوف تنال جزاءك بأمر مولانا الامير متى ثبتت خيانتك» •

فقال عرفة : «أتتهمني بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد اضفت اليها جريمة القتل ؟»

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على الآخر ، رأى من الحزم والدهاء ان يصبر حتى يستمع لجدلتهما ، وان كان هذا على غير ما تعود جلاسه منه •

اما حسن فلما رأى الحجاج مصفيا ، التفت الى من حوله من الامراء
وقال : «أشهدكم على ان دم الخائن مهدور أيا كان ا»

فقال عرفجة : «ما الخائن الا انت» •

فتجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادئ:
«من الخائن منا يا عرفجة ؟» أأنا الخائن وأنت الامين الصادق في خدمة
امير المؤمنين ؟»

قال : «وهل في ذلك شك ؟»

قال : «وماذا تقول في الكرسي ؟»

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسي ارتعدت فرائصه وبدت البغته فسي
وجهه ، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة قال وهو يضحك ويظهر
الاستخفاف : «أي كرسي ؟» لا شك في انك تهذي •

فقال حسن : «أنسيت الكرسي ولهب ناره لا يزال يلفح وجهك !»
أفلم تدرك اي كرسي أعني يا عرفجة ؟»

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حرق الكرسي ، ولكنه استغرب ذلك
وأنكره وعاد الى محاولته المغالطة فقال : «ما بالك تهذي يا رجل ؟» وأي
كرسي تعني ؟»

وكان الحجاج ينظر في عيني عرفجة ، فلم يخف عليه انه في ورطة ،
وبقي صامتا يصغي • فقال حسن : «ألم تفهم أي كرسي يا عرفجة ؟» هو
كرسي المختار بن ابي عبيد الذي كلفتموني لئله الان !»

فازداد تغير وجه عرفجة وقال : «وما شأنه ؟ وما علاقة المختار بما
تقول ؟»

فقال حسن وقد رفع صوته : «ألا تعرف علاقته بك ؟ اذا كنت لا
تعرف تلك العلاقة ، فاسأل محمدا بن الحنفية ، وهو قريب من هنا •
اسأله او اسأل من شئت • واذا انكرت استنطقنا رماد الكرسي» •

فلما سمع عرفة هذا التعريض أوجس في نفسه خيفة ، ولم يجد سبيلا الى التخلص الا ان يمضي في تجاهله ومغالطه فقال وهو يضحك : «أتظن مثل هذه المفتريات تنطلي على مولانا الامير ؟ وهل تظنه يصغي لكلام مخلوق لا معنى له ولا اصل ؟ ان الامير ان يكن قد مد لك في حبل الحلم ، فما ذلك الا لكي يأخذك بجريرتك ويجعلك عبرة لامثالك من الخائنين» .

فقال حسن : «للامير ان يفعل بي ما يشاء ، ولكن ذلك لا ينفي كونك خائنا منافقا . واذا كنت قد انكرت امر الكرسي ، فان امره معروف وأهل المدينة يعرفون عنك محافظتك بضعة أعوام على محفة لا يعرف احد ما فيها . ولم يكن فيها الا كرسي المختار الذي زعم انه لعلي بن ابي طالب ، واستغله في الدعوة الى قتال بني أمية من ورائه ، فلما مات اخذت انت الكرسي لنفسك ، لتخلف المختار في استغلاله لمناسبة بني أمية العداء ومحاولة اخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذي كان المختار يدعو له» .

فقطع عرفة كلامه وقال : «ما هذا الا اختلاق» .

فقال حسن : «ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ، ومهما يكن من امره فيما يختص بالخلافة فلا يشك احد في صدقه ، واذا كان شعب علي بعيدا من هنا ، ففي المسجد بمكة من شهدوا حريق الكرسي معي ، وشهدوا الاهانة التي لحقت بعرفة النزيه الصادق من محمد بن الحنفية حين جاءه مستأذنا في الدعوة الى بيعته وخلع طاعة امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ا»

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج من في الفسطاط ، ومال الحجاج الى تصديق حسن ، وكان الحجاج مع تقريبه عرفة لا يجهل خبثه وتفاقه ، ولكنه انما قربه لانه يحتاج الى أمثاله في بعض اغراضه . فلما رجح ثبوت

هذه التهمة عليه صمم على قتله ، ولكنه أجل ذلك ليرى ما يكون .
 اما عرفة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل
 والهدوء : « يلوح لي ان مولاي الامير سكت عما سمعه من هذا الرجل
 كأنه مال الى تصديقه » .

فقال الحجاج : « وهل تحسبه اختناق ذلك كله اختلاقا ؟ »

قال : « نعم يا مولاي » .

فقال الحجاج : « لا يعقل انه يفعل ذلك ، ولا سيما انه يستشهد اناسا
 معروفين . ثم ما الذي يدعوه الى هذا الاختلاق ؟ »
 فقال : « يدعوه الى ذلك امر افطع من خيائته ، ولو اني ذكرته لك
 ما ترددت في صلبه ! »
 فقال : « وما ذلك ؟ »

قال : « اني لأضن بعرض الامير ان يذكر في مثل هذا المقام ، فاذا أذن
 مولاي في خلوة ذكرت له السبب ، وأنا ضامن انه يقتنع ببراءتي » .
 فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده فخرج كل من في القسطنطينية من
 الامراء والحراس وبينهم حسن ، وقد سر لما رآه في وجوه الامراء من
 دلائل نقيته على عرفة لفظاظته وسوء سريرته . وان اظهروا له غير
 ذلك خوفا من الحجاج . وفاتهم ان الحجاج نفسه لم يكن يثق به .
 فلما خلا عرفة الى الحجاج اخذ يقص عليه حديث حسن مع سمية
 ثم قال : « وقد كنت أعدها لخدمة مولاي بعد ان طلبها منذ أعوام . فجاء
 هذا الشاب وخذعها بحبه ، وهي فتاة لا تدرك أمور الدنيا ، فانخدعت
 بظاهره ، وكادت توافقه على ان تفر معه او لم أطلع على فعلته ، فسعيت
 في قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة . وهذا طارق بين يدي
 مولاي ينبئك بصديق قولي . ولكن الرجل الذي انفذناه لقتله لم يظفر
 به ، فنجا ثم جاء متكررا الى معسكر الامير بعد ان علم بزفافها اليه ليحاول

ان يخدمها مرة ثانية ، ولكنني رأيته ساعة مجيئه مع ليلي بالامس ، وبعثت من يأتون به ، فعلمت انه سار الى جهة اخبية النساء ، وقد شق علي ان أصرح بذلك لمولاي الامير لئلا أكدره ، فاكفيت بأن ذكرت انه جاسوس ، لعلمي بأنه صاحب الكتاب الذي جاءنا به الفتى الثقفي منذ حين ووطناه قبله . ثم علمت بأنه فر الى الخربة المجاورة فأرسلنا الفرسان للقبض عليه . ويؤيد صدق قلبي ، انك لما سألته عن سبب مجيئه الى هنا لم يستطع جوابا » .

فرأى الحجاج كلام عرفة معقولا ، ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة ايضا فلم ير خيرا من التريث حتى ينجلي له وجه الصواب . فأمر بسجن حسن ، وتظاهر بأنه اقتنع ببراءة عرفة .

سيق حسن الى خيمة أفردوها له في طرف المعسكر ، ووقف بيا بها حارسان مسلحان . فلما تركوه فيها بعد ان تدوا وثاقه أيقن باستحالة النجاة ، وجعل يفكر فيما مر به وما كان من امر عرفة معه ، فرأى ان الحجاج لم يقتنع كل الاقتناع بخيانة عرفة ، وأدرك ان هذا يستعديه عليه من طريق اثاره غيرته ، والغيرة تعمي وتصم .

وقضى حسن في ذلك بقية يومه ، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئا ، ثم قضى ليلته ساهرا وخیال سمية امام عينيه ، وفكره يبحث عبثا عن وسيلة الى النجاة بنفسه وسمية .

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد اثقلته الاغلال ، سمع وقع أقدام خفيفة في الخيمة ، ثم صوتا يهمس في أذنه قائلا : « لا تخف يا مولاي اني خادمك عبد الله » .

وحاول ان ينهض فأعانه على ذلك عبد الله ثم قال له : « لقد احتلت حتى جعلوني احد الحارسين المنوط بهما تناوب مراقبتك ، وأنا الان في نوبة السهر على حراستك . وقد نام رفيقي فدخلت لاسألك عما تريد » .

فقال حسن : «لا أريد شيئاً ولا رغبة لي في النجاة ، الا اذا نجت
سمية معي» .

فقال عبد الله : «وما حيلة الحر الاعزل يا مولاي اذا وقع بين أيدي
من لا يتورعون عن قتله ظلماً وعدواناً ، مستعينين بكثرة عددهم وعدتهم؟
أيسلم نفسه لهم طوعاً ، ام يحاول الخلاص من أيديهم بأي وسيلة؟»
قال : «أتريد ان أفر من المعسكر وحدي وأترك سمية في بيت
الحجاج ؟ وهل تحسب ان حياتي بعيداً من سمية مما أحرص عليه؟»
فقال عبد الله : «لا يا مولاي ، لست أعني ان تخرج وحدك ، وانما
أعني البحث عن وسيلة تخرج بها انت وسمية معا . ولا عار في الفرار
من وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعي العدل» .

فسكت حسن ، واستأنف عبد الله الكلام فقال : «سأذهب غدا الى
خباء النساء لاستطلاع الامر ، ثم اعود اليك بما يستقر عليه الرأي . فدع
القنوط وكل واشرب حتى يأتي الله بالفرج» . ثم ودعه وخرج .
وشعر حسن بالارتياح وأعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته ، ثم مكث
في اليوم التالي ينتظر رجوعه .

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه في مساء الامس ،
ثم سمعت خبر القبض على حسن والرجوع به الى المعسكر ، وسجنه ،
وما لبثت ان رأت الجند قد أهدقوا بخبائها ومعهم السلاح ، فأيقنت ان
الحجاج اطلع على سر قدوم حسن الى معسكره فتحقت وقوعها فسي
الخطر ، ودعت اليها امة الله جاريتها ، وكانت هي التي اخبرتها بسجن
حسن ، فجاءت وهي تظهر عدم المبالاة ، فقالت لها سمية : «هل رأيت
الجند المحدثين بنا احداً منهم بالقتلة المجرمين؟»

قالت : «رأيتهم . ولكن ما لنا ولهم؟»
فقالت سمية : «أتجاهلين با امة الله ؟ ألا ترين انهم سجنوني كما

سجنوه ؟ وهل تشكين في ان ذلك العاتي قد اطلع على ما بيني وبين
حسن فلم يبق الا ان يفتك بنا ؟! »
فالت : « لا أظنه يفتك بك » .

فقطعت كلامها وقالت : « تظننه يستيقيني لأربه الدنيء ! » ولكن
ما انا مبقية على نفسي . اين السم الذي حفظته لي ؟ لقد آن وقته ! » .
وكانت امة الله قد اخذته لتحفظه عندها .

قالت : « لا اظن وقته ازف يا مولاتي ، وحسن لا يزال على قيد
الحياة ، ومن يدري ما يأتي به الغد ؟ »

قالت : « أتوقعين لحسن البقاء وقد وقع في قبضة هذا الظالم الذي
لا يرى فيه الا مناظره على عروسه ؟ آه يا امة الله ! يا ليتني ظللت على
يأسي الماضي ولم أعلم ببقاء حسن حيا ! ان هذا لن يعفيه من القتل .
فكيف ابغي الحياة في بيت رجل قتل حبيبي ؟ »

فقطعت امة الله كلامها وقالت : « انه لم يقتله بعد يا مولاتي . وعسى
الله ان ينقذه من بين يديه فان الله قادر على كل شيء » .
قالت : « نعم ان الله قادر على كل شيء ، ولكن أليس حسن في حكم
المقتول الان ؟ » . قالت ذلك وخنقتها العبرات .

فاحتارت امة الله ، ولم تدر بهم تعزيبها عن توقع قتل حبيبها ، ولم
تستطع لومها على تفكيرها في الاتجار حتى لا تبقي في بيت قاتل حبيبها ،
فطلت ساكنة ، واستأنفت سمية الكلام فقالت : « اين السم ؟ اعطيني اياه » .
فتغير وجه امة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت : « دعي السم
الان فان وقته لم يأت بعد » .

قالت : « اعطيني اياه ، وأعاهدك على اني لا اتناوله الا بعد ان اقطع
الامل من بقاء حسن » . ثم اطلقت لنفسها عنان البكاء ، فبكت امة الله
معه ، ولكنها اشفقت عليها من الاسترسال في الحزن على هذه الصورة

فكلمت ما في نفسها وقالت : «أتعدينني انك لا تتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة؟» • فلما عاهدتها على ذلك خرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام • فتناولته منها وقبلته وهي تقول : «انت هو منقذي من احزائي ومتاعبي • انت وحدك معيني على قهر ذلك العاني ، وانقاذي منه» •

وكان الحجاج قد أمر باخراج النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وأمر الحراس ان يحذقوا به وهم في غفلة عن سبب ذلك ، فكانت سمية تصيح بسمها من جدران الخباء لما يتحدث الحراس به • وسمعتهم يتحدثون بما اظهره حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر في كلام عرفة من التلاعب والفدر • وكانت كلما سمعت ذلك منهم رقص قلبها فرحا ولكنها لا تلبث ان تعود الى هواجسها •

اما عبد الله فلما جاء الى سمية ليخاطبها في امر الفرار رأى الحرس محذقا بخبائها فعاد ولم يرها ، وأخبر حسنا بما كان فازداد الامر تعقيدا عنده ففزع بآماله الى الصبر والتسليم للاقدار •



قضى حسن اياما على هذه الحال ، ثم حدث ان رأى نفسه فيما يرى النائم وكأنه يقول لبلال خادمه الذي تركه في مكة : «اذا استبطنني فاطلبنني في معسكر الحجاج» • فلاح لحسن ان يكون بلال جاء المعسكر ولم يعلم بمكانه • فلما دخل عبد الله عليه ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيامته فقال عبد الله : «رأيت في هذا المعسكر عبدا أظنه هو الذي تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم يتبه له احد لان الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير مرة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفة امره واتهمه بالجاسوسية» •

فقال حسن : «يمني امر هذا العبد ، فاستقدمه الي على عجل» .
فخرج عبد الله فرأى بلالا فاعتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى
السجن متظاهرا بأنه يحمل له طعاما ، فقال بلال لحسن : «لقد بحثت
عنك حتى يئست من لقاءك وكدت أرجع خائبا . فالحمد لله على انسي
رأيتك ولو في السجن ...»

فقال حسن : «وماذا وراءك ؟»

قال : «جئت اليك في مهمة مستعجلة وأخشى ان يكون قد فات
أوانها » .

قال : «وما هي ؟»

قال : «استدعاني ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير في مكة
وسألني عنك ، فلما اجبته بأنك لم تعد بعد قال : (ان امير المؤمنين
عبد الله بن الزبير يجب ان يراك لامر ذي بال خاطبه في شأنه منذ بضعة
وعشرين يوما ، وهو يريد الان ان يعهد اليه في امر مهم) . فجت على
عجل وقد قضيت ثلاثة ايام في البحث عنك حتى جاءني عبد الله
كما رأيت » .

فقال حسن : «ابن الزبير يطلب ان يراني في مكة ؟»

فقال : «نعم يا مولاي وقد ألح علي كثيرا ، وقال ان الوقت ضيق» .
فأطرق حسن وأعمل فكرته فتبين له ان ابن الزبير انما طلبه في شأن
خطبة اخته رمة لخالد بن يزيد ، وتذكر انه انما جاء الحجاز لاجل هذا
الامر ، ولكنه لم يدر كيف يجيب الدعوة وهو سجين ، فالتفت الى
عبد الله وقال : «انك عرضت علي منذ ايام ان تخرجني من هذا المعسكر،
فهل تستطيع هذا اليوم ؟»

قال : «ذلك سهل علي في اي وقت تشاء ، واني أفديك بروحي» .
فقال : «لا أبغي الفرار وانما أبغي الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم

اعود في الصباح الى محبسي» •
فأعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له : «افعل ما بدا لك فاني رهن
اشارتك» •

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال عبد الله : «تمهل قليلا حتى
يجيء الليل فأعطيك ثوبي فتلبسه وتخرج به وألبس انا ثوبك وأحل محلك
هنا ريثما تعود ، وسوف لا يشك من يراك انك من حراس الحجاج .
فتظاهر بأنك ذاهب في مهمة الى ابن الزبير ، واذا رأيت ان تبقى هناك على
ان ألحق بك ، فافعل» •

فأعجب حسن بمروءة عبد الله وتضحيته في سبيل نجاته ، فقال :
«بورك فيك من صديق صادق ، اخاف ان أصاب بسوء فلا اعود فتقع
انت تحت طائلة العقاب» •

قال : «اذا اصابك سوء ، فلن يبقى لي مأرب في الحياة • على ان
القوم يعتزمون الهجوم غدا على ابن الزبير ، فما أظنهم ينتهبون لخروجك،
ولن اجد مشقة في اطلاق نفسي من السجن» •
فقطع حسن كلامه وقال : «أما رجوعي فلا بد منه لاني لا استطيع ان
اترك سمية» • قال ذلك وصمت بغتة كأن فكرا جديدا طرق ذهنه ثم
قال : «لا بد لي من الانتقام من ايها الخائن» • ثم التفت الى بلال
وقال له : «أتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد في فسطاط
محمد بن الحنفية؟»

قال : «أتعني حكاية عرفة والكرسي؟»
قال : «اياها أعني ، فهل تستطيع الحصول على كتاب من محمد بن
الحنفية الى الحجاج يشهد فيه بأن عرفة جاء بذلك الكرسي وعرض
عليه ان يدعو الى بيعته اهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان»
قال بلال : «ذلك شيء يسير ، فاني صديق قديم لسعيد ، ولهذا

• دالة عليه»

فقال حسن : «اذن اذهب الان الى شعب علي ، واسلك اقرب الطرق اليه ، فاذا حصلت على الكتاب فعجل بالعودة به الى هنا ، حيث اكون قد عدت بعد مقابلة ابن الزبير» •

فخرج بلال وسار في مهمته • وخرج عبد الله الى المعسكر فوجد القوم يتأهبون للقتال في صباح الغد ، ورأى زميله واقفا بباب الخيمة ينظر اليهم متحسرا على حرمانه من الذهاب معهم ليصيب بعض الغنيمة • فقال له : «اذا شئت اللحاق بالجند فافعل وأنا ابقي هنا لحراسة السجين» • فسر الرجل وشكره وانصرف •

ولما غابت الشمس دخل عبد الله على حسن فألبسه ثيابه وسلمه الحربه ، ثم لبس هو ثياب حسن وجلس مكانه • فخرج حسن قاصدا الى مكة ، ولم يشك فيه احد لظنهم انه من الحراس ولا نشغالهم بالتأهب للهجوم على مكة •

- ١٥ -

١٥ ابن الزبير

دخل حسن مكة دون ان يمترضه احد ، ولاحظ ان اسواقها خالية من الناس ، غير انه ما كاد يشرف على المسجد حتى وجد الناس قد ازدحموا فيه وفيما جاوره من المنازل ، فعلم انهم يتوقعون شرا ولم يفتحهم ما نواه الحجاج • فسار توا الى منزل عبد الله بن الزبير فرأى الناس

يتدافعون عند بابه ، وسأل عن ابن صفوان فعلم انه في خلوة مع ابن الزبير ، فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل ، فمل الانتظار وشق طريقه بين الناس ملتصقا بالحجرة التي فيها عبد الله ، فلما بلغها سأله الخدم عما يريد ، فذكر انه يريد مقابلة امير المؤمنين لامر ذي بال ، فأبلغوا امره الى ابن صفوان ، فخرج اليه وما كاد يراه حتى رجب به ، فسأله حسن : « اين امير المؤمنين ؟ »

قال : « تركته يصلي الفجر » .

قال : « لقد جئت لمقابلته اجابة لطلبه » .

فقال : « نعم لقد طلب ان يراك لامر يريد ان يسره اليك . وسوف أدخلك عليه » . قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن في انتظار عودته في فناء البيت وهو يتوقع ان يطول غيابه لعلمه بطول صلاة ابن الزبير منذ رآه يصلي في المسجد من عهد قريب .

على ان انتظاره لم يطل ، وسرعان ما عاد ابن صفوان وأشار اليه ان يتبعه ، فمضى وراءه حتى دخل الحجرة فوجد عبد الله واقفا وسطها وفد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز ، وتحتها سراويل ومنطقة ، وقد فاحت منه رائحة المسك . فهم حسن بتقيل يده ، فلم يمكنه من ذلك ورجب به ، ثم اشار الى ابن صفوان فخرج ، وأقفل عبد الله الباب نفسه ، فاستغرب حسن ذلك ولبث واقفا ينتظر ما يبدو منه ، فراه يتجه الى وسادة على طنفسة هناك فجلس وقد وضع سيفه مستعرضا على ركبتيه وأسند ذراعيه عليهما فوقه ، وأشار اليه ان يجلس بجانبه ، فجلس صامتا .

وظل عبد الله مطرقا وهو يلعب لحيته بين انامله ، ثم التفت الى حسن وقال له : « ما أظنك حصلت على كتاب من خالد » .

قال : « ان الرسول لم يعد بعد » .

قال : «وما أظنني اراه ولو عاد من الغد» .
فقال حسن دون ان يدرك قصده : «كيف لا وهو رهن اشارة امير المؤمنين ؟»

قال : «على اي حال ، لقد ايقنت بصدق رغبة خالد في الزواج من اختي ، وانه فيما علمت لافضل القوم ، فاذا لقيته فأوصه عني بها خيرا ، واذكر له ان مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ، ولو انه عجل بها بضعة أعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بالامر ، بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم» . قال هذا وقد ظهر التأثير في عينيه وخشن صوته ، ثم واصل كلامه قائلا : «ليت شعري كيف يسود العتاة الظلمة ؟ وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة على رجال يعبدون الله ويعملون بكتابه ؟»

فأدرك حسن انه يش من الفوز ، وأراد ان يستطلع ما اعزمه فقال :
«لا يخفى على مولاي ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . ولا عجب في ان تكون الغلبة في الدنيا لمن همهم الدنيا ، فقد كانت الغلبة لمعاوية على الامام علي صهر الرسول وابن عمه ، وقد فتك ابن زياد بالحسين وآل بيته . ذلك لان الدنيا شيء والآخرة شيء اخر ، وقد انقضى العصر الذي ساد فيه الحق والدين والتقوى ، وأصبح الحكم الان لا يتولاه غير اهل الدناء والسياسة و...» . ولما بلغ الى هنا بلغ ريقه وبدا في وجهه انه اراد التصريح بشيء ثم توقف خوفا او حياء . فنظر عبد الله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام ، فأتم حسن كلامه قائلا : «ولا اخفي على مولاي ان آل مروان ، وآل ابي سفيان قبلهم ، لم يخلص لهم الملك دون بني هاشم وغيرهم الا بالدناء والسياسة وبذلهم المال لدعاتهم وأنصارهم» . فلما ذكر المال ، بدا الانقباض في وجه عبد الله وقال : «لا تذكرني بالمال وأمره فقد كنت شحيحا به لانه مال بيت الله ، ولعلي

لو بذلته للحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دوني ، ولكنني
لا ألتمس الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال» .
فقال حسن : «لو ان مولاي اصغى لمسورة الحصين بن نمير يوم
وفاة يزيد لما صار الامر الى بني مروان ..»
فقطع عبد الله كلامه وقال : «سمعتك تذكر هذا الامر قبل اليوم ،
ولقد سمعته كذلك من كثيرين ، على اني لو اطعت الحصين ورافقته الى
دمشق لما بايعني بنو أمية . فهو لاء شق عليهم ان يبايعونا في ديارنا وبين
اهلنا . فكيف لا يكون ذلك أشق عليهم في ديارهم وبين احزابهم . ومع
ذلك فقد قضي الامر . وما بعثت اليك الا لاوليك باختي خيرا ، فأوص
بها خالدا ، وأبلغه عني اني أوصيه كذلك بأن يدع امر الخلافة فانها
شاقة على اهل الدين في هذا الزمان ، وليشتغل بما هو مشغل به من
العلم والكيمياء فذلك خير له وأجدى عليه . ولا اخفي عليك اني قطعت
الامل في الفوز بعد ان نبذني الاهل والاصدقاء خوفا من الموت ، ولو
اني طلبت الدنيا لما امتنع علي الحصول عليها . ولكنني اطلب الآخرة ،
وقد دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا ، فلم يبق الا ان اتركهم وشأنهم .
وقد انبأني الجواسيس بأن الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا فسي
الغد ، ويفعل الله ما يشاء» . قال ذلك وغص بريقه فتشاغل باصلاح غمد
حسامه ، ثم وقف وقال : «تعال معي الى امي لأخبرها بما استقر عليه
الرأي في شأن رملة» .

فوقف حسن ومشى في اثره وقد لاح ضوء الفجر ، فدخلا حجرة
رأى حسن في صدرها امرأة عجوزا عرف انها أسماء ذات النطاقين أم
عبد الله ، وهي بنت ابي بكر الصديق ، وأخت عائشة زوج النبي .
وكانت قد كف بصرها وبدا الهرم في وجهها ، فحياها عبد الله وقبل يدها،
فقبلته وتنهدت ثم قالت : «ما وراءك يا بني ؟ مالي أشم منك رائحة

«الحنوط ؟»

قال : «اني أتحنط كل يوم استعدادا للموت . وأما الان فقد جئتك بحسن الذي ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لخطبة اختي رملة وقد اخبرته بقبول الخطبة فان خالدا لاهل لذلك» .

فرفعت رأسها وهي تحيل عينيها المطبقين كأنها تحاول ان تنظر الى ابنها ، ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعين تقطرتا من جانبي انفها بغير ان يبدو للبكاء أثر في وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجملها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها . ثم قالت : «لقد صنعت خيرا يا بني» . وسكتت وكان في نفسها شيئا تكتسه ثم قالت : «في اي ساعة نحن من الليل الان ؟»

قال عبد الله : «نحن في الصباح» . وما أتم كلامه حتى سمع في الخارج دوي شديد أعقبته صيحات الاستنكار من الواقفين بالباب الخارجي للمسجد ، فأدرك حسن ان الهجوم قد بدأ ، وان ما سمعه هو صوت وقوع حجارة المنجنيقات على الكعبة . ونظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحته وبان القنوط في وجهه ثم التفت الى أمه وقال : «لقد بدأ اعداؤنا هجومهم الاخير يا أماه ، وقد آليت ألا أفعل امرا الا استشرتك ، فماذا تشيرين ؟»

فنظر حسن الى اسماء وتفرس في وجهها فاذا هي تزيح النقاب عن وجهها ، ثم قالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لا من الخوف : «انت أعلم بنفسك يا بني ، فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه اصحابك . ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، أهلك نفسك ومن قتل معك . وان قلت : (كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت) . فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين !»

فقال عبد الله : «انما اخاف ان تقتلني اهل الشام ان يمثلوا بي» •
 فقالت : «يا بني ان الشاة لا تألم بالسليخ ، فامض واستعن بالله» •
 فقبل عبد الله رأسها وقال : «هذا رأيي الذي أصر عليه حتى اليوم ،
 ووالله يا أماء ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها • وما دعاني الى
 ذلك الامر الا غضبتي للحق ولقد زدتنني برأيك هدى وبصيرة» • ثم
 سكت قليلا ، وقال : «اسمعي يا أماء ، اني اشعر بأني مقتول في يومي
 هذا ، فلا يشتد حزني ، وسلمي الامر لله ، فان ابنك لم يعتمد ايثار
 منكر ، ولا عمل بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ولم ينفدر في أمان ولم
 يعتمد ظلم مسلم او معاهد • ولم يبلغي ظلم عن عمالي فرضيت به بل
 انكرته • ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي» •
 فقالت وقد بان الجد في جبينها : «ارجو ان يكون عزائي فيك جميلا •
 ان تقدمتني احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك • فامض لشأنك ، والله
 معك ، ولئن قتلت ففي سبيل الله» •
 ثم اتجه عبد الله الى حجرة اخرى ليودع اخته ، وظل حسن واقفا
 في انتظار عودته ، فسمع اسماء تتأوه وقد رفعت وجهها وقالت :
 «اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب
 والظما في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبني • اللهم قد سلمته لامرك
 فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأنبني فيه ثواب الصابرين» •
 فاستغرب حسن صبرها وقوة ايمانها • ثم عاد عبد الله اليها وهم بتقبيل
 يدها ، فأمسكت يده وضمتها الى صدرها قائلة : «هذا وداع فلا تبع» •
 فقال : «انما جئت مودعا فكأنني بهذا اليوم اخر ايامي من الدنيا» •
 فخفق قلب حسن تأثرا ، وترقرق الدمع في عينيه ، ونظر الى اسماء
 فاذا هي لم يبد في وجهها ما يدل على التأثر ، فعلم ان ثباتها فوق ما كان
 يسمعه عنها ، ثم ما لبث ان سمعها تقول لعبد الله : «امض على بصيرتك

وإذن مني حتى أودعك» • فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديها
بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وقالت : «ما هذا صنيع
من يريد ما تريد !» • فقال عبد الله وقد بدا الخجل في وجهه : «ما لبسته
إلا لأشد به متني» • فقالت : «انه لا يشد متنا • البس ثيابك مشمرة» •
فمد عبد الله يده الى الدرع ونزعها ، ودرج كمي ، وشد أسفل قميصه
وجبته تحت ثنيات سراويله وأدخل أسفلها تحت المنطقة ، ثم خرج •

- ١٦ -

مقتل ابن الزبير

خرج حسن في أثر عبد الله بن الزبير وقد عزم على البقاء معه حتى
النهاية • وشعر عبد الله بذلك ، فالتفت اليه وقال : «ناشدتك الله ألا
تعرض نفسك للقتل» •

وكان حسن على يقين من فوز جند بني أمية ، لكثرتهم واتحادهم ،
ولكنه ظل سائرا في أثره حتى خرجا من المنزل ، فلما وقع نظر عبد الله
على المنتظرين هناك وقد تهيأوا للقتال وغطت الدروع أبدانهم ، قال لهم :
«اكشفوا وجوهكم حتى انظر اليكم» • ولما كشفوها علم انهم بقية اهله
فقال : «يا آل الزبير لو طبتهم بي نفسا عن انفسكم كنا اهل بيت من العرب
اصطلحنا في الله • فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح
أشد من ألم وقعها • صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضوا
أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا تسألوا عني فسن كان

سائلا غني فاني في الرعيل الاول • احملوا على بركة الله » •
 وبقي حسن حائرا لا يستطيع الاشتراك في القتال ، نزولا على رغبة
 ابن الزبير • وحتى لا يراه الحجاج او بعض رجاله فيثبت لديهم ما اتهمه
 به عرقجة • فآثر الالتجاء الى المسجد حتى تنتهي المعركة • فلما مضى
 عبد الله ومن معه الى القتال التفت فرأى اعلام بني أمية قد مسلات
 الطرقات ، فسارع الى المسجد الحرام ، ولكنه لم يستطع الدخول ، لان
 الحجاج كان قد اوقف ببابه اناسا ليمنعوا الناس من دخوله ، فدخل منزلا
 الى جوار المسجد وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة
 الاسود ، ويتنقل في المعصة من جهة الى اخرى ، وبجانبه ابن صفوان
 يدافع عنه : ثم سمع عبد الله يقول : «ويلمه فتحا لو كان له رجال» •
 فقال له ابن صفوان : «اي والله وألف» • فحدثت حسن نفسه بأن يمضي
 اليهما ويقا تل معهما ، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الحجاج قد ترجل
 وأقبل يسوق الناس الى مقاتلة ابن الزبير بعد ان رآهم لا يقوون على
 الوقوف بين يديه ، وكان حامل علم ابن الزبير يقف بباب شبية من ابواب
 المسجد ، فهجم الحجاج عليه بمن معه ، فرآهم ابن الزبير فسارع الى
 صدهم عنه ، واستمر القتال على أشده بباب المسجد ، ثم دخله الفريقان،
 ولم يفض قليل حتى استطاع الحجاج ورجاله قتل صاحب العلم وأخذه
 منه : فتفرق رجال ابن الزبير من حوله ، ولكنه ظل يقاتل حتى قتل هو
 وابن صفوان ، ثم رأى حسن رجلا أسرع الى جثة عبد الله وحز رأسه
 وحمله الى الحجاج ، فلما رأى الحجاج الرأس سجد وأكرم صاحب
 البشارة • ثم أمر بأن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة:
 وبأن تصلب جثة ابن الزبير في الحجون — وقد صلبوها اياما — وهكذا
 ايقن حسن بانتصار الحجاج ، وتذكر ان سمية عنده في المعسكر ، فرأى
 ان يسارع اليها فيه ، فاما نجا بها ، واما عاد الى محبسه ، وسرعان ما

نسلل الى المعسكر ، وهو يحاذر ان يراه احد ممن يعرفونه فيجبط مسعاه ؛ وقال في نفسه : «لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان وأصبحت الخلافة لا ينازعه فيها منازع» . وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هينة فمشى وهو لا يزال بلباس الحرس والحربة يمينه فلا ينك الذي يراه عن بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفرا قليلا من الحامية . فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . فبينما هو يرجو السعادة بالفرار بسمية كان يعد الفرار عاراً ، ولكنه هونه على نفسه لانه لا يرى غير الفرار سبيلا الى نجاته والا فانه سيكون سببا لتعامه سمية او قتلها . فمشى في طريقه الى المعسكر ، وهو في ملابس الحراس التي اخذها من خادمه ، فلما بلغه رأى ان يذهب اولاً الى خيمة السجن ليرى ما تم في امر خادمه الامين وليستعين به على انقاذ سمية ، فلما بلغ الخيمة رآها خالية ، فوقف برهة يفكر في الامر ، ثم رأى ان يعجل بالذهاب الى سمية في الخباء لئلا تفوت الفرصة . وفيما هو سائر وقد أوشك ان يبلغ الخباء سمع صوت ابواق ، فالتفت فرأى جماعة من الفرسان عائدين من مكة ، فأسرع في مشيته ليبتعد عنهم . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله احداً ، وخشي ان تحول بفته سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها ، لانها لم تره منذ خروجه من المدينة ، فتمهل في سيره ، وأخذ يبحث لمعرفة مدخل الخباء ومخرجه ، وهل سمية وحدها ، ام عندها احد من النساء او الخدم او غيرهم . وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه ، فأصاخ بسمعه فرأى شبعا خارجاً ، وما تفرس فيه حتى أدرك انه امة الله جارية سمية، ولم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع بأوصافها اما هي فكانت قد رآته في دار عرفة بالمدينة ، فلما رآته والحربة في يمينه وعليه ثياب حراس

الحجاج ، استعاذت بالله ، ثم ما لبثت ان تفرست فيه فرعته وقالت :
« حسن ؟ »

قال : « نعم • اين مولائك ؟ »

قالت : « هنا » • وأشارت الى الخباء الذي خرجت منه •

قال : « وكيف حالها ؟ » • قالت : « انها في حال تدعو الى الرثاء حزنا
عليك ، وخوفا من ذلك الظالم ولاسيما بعد ان فرغ من الحرب ، وقتل
ابن الزبير ، فتحلل بذلك من قسمه » •

فاضطرب حسن وهم بالدخول الى الخباء ولكنه خشي ان تسيء
البلغثة الى سمية فقال لأمة الله : « ادخلي وانبئها بقدمي لنخرج معا
من هنا الان » •

فدخلت أمة الله • ولم يصبر حسن الا قليلا ثم دخل في اثرها فوجد
سمية جالسة وهي تفرك عينها بأفاملها وتنظر الى أمة الله وتقول :
« أصحيح ما تقولين ؟ حسن هنا ؟ حسن جاء ؟! لا • لا • لا • انك
تمزحين ، او انا في حلم ! »

ولاحظ انها قد تغيرت وامتقع لونها لفرط ما قاسته ، فازداد خفقان
قلبه ، وأجابها بدلا من أمة الله فقال : « بل انت في يقظة يا حبيتي •
وها أنذا جئت لانتاذك • هلم بنا نخرج الان من هذا المعسكر • هيا يا
سمية فان الوقت ضيق والخطر قريب » •

فوقفت وركبتها تصطكان ، ولبست نعالها والتفت بعباءتها : وفالت
وهي ما زالت مذهولة : « ما احسن هذا اللقاء ، هلم بنا » •

وكانت أمة الله مشغلة بأخذ بعض الطعام للتزود به خلال الرحيل •
ولكنها كانت اكثر منهما اتبها لما حولها • فسمعت وقع حوافر خيل
قادمة من بعيد فأسرعت اليهما وهي تقول : « لقد جاء الفرسان • وأظنهم
الحراس الذين كانوا حول الخباء بالامس » •

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف :

«حسن • حسن • لا تخرج فانهم اذا رأوك خارجا اشتدت شبهتهم فيك •• لا تخرج • واذا كانوا قد جاءوا للقبض عليك فلنمت معا» •

فثارت الحمية في رأس حسن ، وهان عليه لقاء الالوف تفانيا فسي الدفاع عنها فقال : «لا عاش من يمسك بسوء وأنا حي» •

وشعروا باقتراب الخيل من الخباء : وكان الليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثر فأمسكت سمية بيد حسن ، وقالت وهي ترتعد : «اما ان نعيش معا ، واما ان نموت معا» • ولا تسل عن خفقان قلبيهما تأثرا للقاء الفجائي وما صحبه من بواعث الاضطراب لقدوم اولئك الفرسان ، فبقيا واقفين صامتين ، وقد امتنع لونهما وتصيب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما ، ومع ذلك كان حسن يشعر بأنه أشد بطشا من الاسد ، وبأنه قدير على انقاذ سمية من جيش بأكمله • وكذلك كانت سمية قد انساها اللقاء كل خوف على نفسها ، وأصبح كل هما ألا يصاب حسن بسوء ، فامسكت به وهي لا تدري أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ، ام تفر هي معه وفي فرارها خطر عليه ، ام تستيقظ في الخباء معها وفي بقائه تهمة كبرى ؟

مرت كل هذه الهواجس بهما في لحظة انتظارهما وصول الفرسان القادمين ، ومعرفة ما وراءهم ، فلما وصل الفرسان الى الخباء ، احدثوا به من جميع الجهات ولكنهم ظلوا مرابطين خارجه ، كما كانوا بالامس ، فاطمأن قلب حسن ورجح ان قدومهم ليس لشبهة او تهمة جديدة • فأخذ يهدئ روع سمية حتى سكن جأشها ، وقضيا ساعة يتبادلان الاحاديث ، وقد نسيا الحجاج وفرسانه ، وحسبا انهما في مكان غير ذلك المكان ، بل خيل لهما ان اولئك الفرسان انما هم ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما ، في تلك الساعة التي تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها •

* * *

وبينما حسن وسية سابحان في ملكوت المناجاة ، يتشاكيان ما مر بكل منهما من أحداث الفراق سمعا طنين سهم مرسل في الفضاء ، ثم سمعا صوت ارتطامه بعمود الخباء من الخارج . وكانت امة الله مشغولة ببعض الشؤون في طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت صوت وقوعه أطلت من الخباء فلم تر غير الفرسان . ثم رأت السهم يستقر في العمود ، فخفت الى مكانه وانتزعته فاذا في موضع الريش منه رق مقوي ، فعادت به مسرعة الى حسن ففتحه فاذا هو كتاب من عبد الله خادمه يقول فيه : « اطلع عرفة على مقركما فوشى بكما وأرسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين » .

فاضطرب حسن وأيقن بوقوعهما في الخطر : ولم ير بدا من تهيئة كل اسباب الاطمئنان لسية . وكانت قد قرأت الكتاب معه فامتقع لونه لما تسلكها الجزع فابتدرها قائلاً : « لا بد لي من الذهاب الى الحجاج بنفسى ، فاني لا أظنه أرسل في طلبى الا معتقدا اني فررت من مجبسى بالامس » .

فقطعت كلامه قائلة : « أنذهب الى الحجاج وأنت تدري ما يكون منه ؟ » أعوذ بالله من شر هذا الرجل . انه لا يعرف غير القتل وسفك الدماء . ولا شك في ان نقمته عليك قد اشتدت بعد ان علم بأنك عندي هنا . يا ليتني مت قبل هذا . دعني أذهب بدلا عنك فأذهب فداء لك . فاني مقنولة على اي حال » .

فوضع يده على كنفها وقال : « لا ارى الامر يقتضي كل ذلك ، ولئن قتلت فما كنت انت سبب قتلي ، وعسى ألا أقتل ، وقد كنت استطيع الفرار بنفسى من بين أيدي هؤلاء الفرسان ، ولكني لا أريد النجاة وحدي ، وأخاف اذا خرجت معي ان تقعي بين أيدي احدهم فتلحقك

أهانة ، وهي عندي شر من القتل • أما ذهابي الى الحجاج بنفسه فانه أحفظ لشرفي وشرفك ، وما يأتي به القدر لا مناص منه • هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه امير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحملوا رأسه الى المدينة ، وقد استقبل الموت باسمه وأمه تشجعه على استقباله : فلا توهني عزيزتي ، ولا تخوفيني لقاء الحجاج • ولكن اذا قدر لسي الموت فاذكري اني ذهبت شهيدا في سبيل هواك • قال ذلك واختنق صوته ، فتساقطت دموعها على خديها تأثرا ، وكانت مطرقة فرفعت وجهها ومدت يدها الى جيبيها وأخرجت لغافة السم وقالت : «ليطمئن قلبك فقد اعددت ما يلحقني بك اذا اصابك سوء • وهب انك نجوت وأراد هذا الظالم ان يتخذني زوجة له بالفعل ، فان هذا السم كليل بانقــاذي من ذلك » •

فأعجب حسن باخلاصها له وأنفتها وقال : «الحق ان مثل عواطفك النبيلة هذه لا تكافأ بأقل من الروح ، ولكن عسى الله ان يأتي بالفرج» • ثم رفع يده عن كتفها وقال : «أسودعك الله يا سمية وموعدا غدا ان شاء الله» • قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لثلا تحاول ان تشيه عن عزمه بدموعها • فلما صار خارج الخباء صاح بأعلى صوته : «ايبن عريف هذه الكوكبة ؟»

فتقدم اليه فارس منهم وقال : «وماذا تريد منه ؟»
قال : «أريد ان يهديني الى فسطاط الامير لاذهب اليه» •
فقال : «لم يأذن لنا الامير في الرجوع اليه ، وانما أمرنا ان نحرس هذا الخباء حتى يأتي هو ، ولعله آت الساعة» •
فأدرك حسن ان ذلك تدبير عرْفجة ، وانه اراد ان يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليشير غيرته ، فاعتزم ان يحيط محاولته فقال : «ولكنني في حاجة الى رؤية الامير الساعة» •

قال الفارس : «لا يمكنك الخروج من هذا المكان» •
فال : «لا بد من خروجي» • ثم هم بالعدو ليذهب توا الى خيمة
الحجاج ويحاول احباط مكيدة عرفة ، ولكن الفارس حذره قائلاً :
«خير لك ان تمكث هنا» •

فقال : «واذا لم أمكث ؟»

قال : «اننا مأمورون بابقائك هنا حيا ريشا يجيء الامير» •
فأدرك حسن ان الحجاج انما اراد الابقاء عليه ليبحث التهمة التي
وجهها الى عرفة في شأن الكرسي ، فتجلد وقال : «اقول لكم لا بد من
ذهابي الساعة الى الامير ، والا خذوني الى السجن أمكث فيه الى
الصباح» • قال ذلك ومشى فتجمعوا حوله ليمنعوه ، واذا بفارس أقبل
من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآه حراس الخباء تهامسوا فيما
بينهم ثم ترحلوا • ففهم حسن ان الحجاج وحاشيته هم القادمين • فوقف
ينتظر ما يكون •

وكان الحجاج ما زال بشيابه التي حارب فيها ابن الزبير وقد غطته
الدروع هو جواده وعليها بقع الدماء • فلما أقبل قال للفرسان : «ماذا
تفعلون هنا ؟»

فقال عريفهم : «نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج» •

قال : «ومن أمركم بذلك ؟»

قال : «أمرنا به عرفة باسم مولانا الامير» •

فأطرق الحجاج وقد ادرك ان عرفة لا هم له الا الايقاع بحسن ولم
يكن الحجاج يعلم بمجيء هذا الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفة ،
وانما جاء الى خباء نسائه لانه تحلل من قسمه بعد مقتل ابن الزبير ، فلما
علم بما أمر به عرفة ، سأل العريف : «وهل حاول احد الخروج ؟»
فقال العريف وهو يشير الى حسن : «وجدنا هذا الرجل خارجا ، وطلب

الذهاب الى الامير» .

ونظر الحجاج الى حسن ، فلما عرفه تحقق صحة ما اتهمه عرفجة به . وعظم عليه ان يراه خارجا من خباء نسائه . فهم بأن يقتله ولكنه تذكر التهمة التي وجهها الى عرفجة فرأى ان يصبر عليه الى الغد حتى يثبت التهمة على عرفجة ، ثم يقتلها معا شر قتلة .

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة ، فكظم غيظه ريثما يتحقق الامر فقال : «خذوه الى السجن وموعدا الغد» .

فسر حسن لذلك التأجيل ، ومضى مع الحراس وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية غيرة عليها منه وان كان زوجها .

- ١٧ -

محاكمة حسن وعرفجة

قضى حسن ليلته في السجن وعليه الحراس . وفي الصباح ساقوه الى فسطاط الامير باكرا وقد امر الحجاج ألا يحضر المجلس احد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف وسط الفسطاط : وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظا ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له : «لقد كنت في السجن من قبل ، فكيف خرجت منه ؟»

قال حسن : «خرجت منه لامر اقتضى هذا الخروج ، ثم عدت اليه

ملائعاً ولو انني اردت الفرار ما رجعت» .

فقطع عرفة كلامه وقال ساخراً : «ذهبت لامر ضروري ؟» أما ذهبت الى عدونا وكنت في منزله طول ليل امس ، واذا كنت قد رجعت فذلك لكي تذهب الى الخباء . لا الى الحبس» .

فالتفت الحجاج الى عرفة لفتة ظهر الغضب فيها وأدرك عرفة منها تغير الحجاج عليه فأراد تخفيف غضبه فقال : «لا أجهل اني جاوزت الحد بتكلمي في حضرة الامير ، ولكنني لم استطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه ، فهو يوهنا انه ليس من الاعداء ولا من الجواسيس ، ثم يفر من السجن ليلا ويحمل اخبارنا الى عدونا ، ويرجع بعد ذلك لكي يوهنا انه رجع الى السجن بيننا الامير قد رأى بنفسه لاي شيء رجع» .

فأدرك الحجاج ان عرفة يعرض بوجود حسن في الخباء ليشير غضبه عليه فيأمر بقتله توا قبل استكمال التحقيق ، فصر والتفت الى حسن وقال : «لا يهنا السبب الذي خرجت لاجله الى ابن الزبير ، فانك متهم عندنا في اي حال . وسنبحت امر دخولك خباء نساءنا فيما بعد . اما الان فانك اتهمت صديقنا عرفة بالامس ، ونريد ان نعلم ما حصلك على هذا الاتهام ، وأي دليل على صحته لديك ؟»

فاضطرب عرفة لعوده الحجاج الى التحقيق في تهمة . وخاف عاقبة نملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس يصغي لما سيقوله حسن ، فقال هذا : «أما كونه خائناً لدولة بني أمية فأمر لا شك فيه . وقد رأيته بعيني واقفا بين يدي محمد بن الحنفية في الشعب، ومعه الكرسي الذي كان المختار بن ابي عبيد يسيسه كرسي علي ، ويستغله في الدعوة الى بيعة ابن الحنفية . وقد سمعته يطلب من محمد امداده بالمال للخروج على بني أمية في العراق ، والدعوة الى بيعته لانه في زعمه اولى من بني أمية بهذا الامر» .

وكان الحجاج مصفيا لما يسمعه وهو يتفرس في حسن ويراقب حركاته وسكناته فرجع انه صادق في دعواه . فقال له : « ثم ماذا ؟ »
 قال : « اما ابن الحنفية فاستخف بطلب عرفة وردعه عن القيام بهذا الامر ، ثم أمر باحراق الكرسي : فأحرق بين يديه ، وأخرج عرفة من عنده مهانا » .

ورأى عرفة ان الحجاج أوشك ان يصدق دعوى حسن ضده ، فلم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالخداع والمغالطة . فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال : « اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثير في نفس مولاي فليأمر بقتلي حالا ، ولكن هذا الغلام كاذب في كل ما ادعاه ، وقد اختلق هذه التهمة ليخفف بها ذنبه الذي لم يرتكبه احد قبله » .

فقال حسن : « اما ذنبي فلا انكره ، وسأبسطه لمولاي . وله ان يحكم بعد ذلك بما يشاء ، وأما انت .. »

فقاطعه عرفة فاصدا ان يشغل الحجاج عن ذنبه هو . وقال له « ان ذنبك لا يحتمل الانكار لانه ظاهر للعيان . وأما اتهامك اياي بالمرور من دعوة بني مروان فاختلاق محض لم نسمع بمنله . وأغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة دليل عليه ، ويستحيل ذلك عليك » . قال ذلك وجلس وكأنه فاز على خصمه بالحجة والبرهان .

ولكن الحجاج لم يعبأ بذلك فالتفت الى حسن وقال : « لا تصح دعوى بلاينة ، فما هي ببنتك على ما تقول ؟ »

قال : « لقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا ولم يكن معهما ثالث » .

فصاح عرفة : « أسمعت يا مولاي ؟ أرايت تناقض اقوال المنافق الكذاب ؟ اذا كان ذلك الامر حدث سرا بين اثنين كما قال الان فماذا الذي أطلعه على هذا السر ؟ » ان جهله ابنى الا ان يوقعه في شر أعماله

لانه لم يحسن سبك أكذوبته» •

وشك الحجاج في صدق حسن فقال له : «لقد صدق عرفة ، فانك زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته على انك رأيت وسمعت ، فكيف تقول بعد هذا ان الحديث كان سرا بينهما ولم يكن معهما ثالث ؟»
فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفة ، تجلد وقال : «نعم يا مولاي كان الكلام بينهما في فسطاط مقفل ، ولكنني سمعت ورأيت خلصة !»

فقال عرفة : «لقد بدا من تناقض أقوالك انك لم تسمع ولم تر ، ولعلك تريد ان تستشهد بشريك لك في خداعك وكذبك ، ولكنني لا أقبل الا شهادة محمد بن الحنفية نفسه ، فانك اعترفت بأنه وحده الذي سمع حديثي» •

فقال الحجاج : «هذا طلب عادل ، ما في ذلك شك» •
وهنا تذكر حسن انه ارسل بلالا الى ابن الحنفية ولا يدري ماذا كان من امره معه فقال : «ان الامير أدرى مني بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة • لاننا اما ان نستقدم ابن الحنفية الى هنا ، واما ان نذهب اليه او نستكنبه •»

فقطع عرفة كلامه وقال : «لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه» •
فقال الحجاج : «ذلك شيء يسير ، وان ابن الحنفية مصدق عندنا وان لم يكن على دعوتنا» •

قال ذلك وتحرك عن ومادته كأنه يريد استئناف البحث ، ثم التفت الى حسن وقال : «بقي علينا النظر في تهتك ولكنها ليست تهمة نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه القصة ؟»

* * *

وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه ارسل من يأتي بشهادة ابن الحنفية ، فلما فاجأه بهذا السؤال ، اضطرب ولكنه تجلد وهم بأن يجب فاعترضه عرفجة قائلاً : «انا أروي لك الخبر كله يا مولاي ، فانه يخجل ان يرويه » .

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فرفع صوته وقال : «لماذا أخجل ؟» أأخجل لاني انتذتكَ من الموت انت وأهل بيتك ؟» ام أخجل لانك خدعتني بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟» اني لم أعمل عملاً أخجل من ذكره» . ثم وجه كلامه الى الحجاج وروى له باختصار قصته مع عرفجة منذ ألقاه في العراق . وكان الحجاج مصنياً الى الحديث باهتمام ، فلما بلغ حسن الى سعي عرفجة في قتله قاطعه هذا قائلاً : «لقد سعت في قتله يا مولاي لاني رأيت معه كتاباً الى عبد الله بن الزبير الذي فر اليه بالامس . وفد ابلفت امره الى طارق بن عسرو عامل المدينة فعده جاسوساً ، وأرسل من يقتله . اما اني وعدته بإبنتي فان مولانا الامير خطبها بعد ذلك فكيف أرفض شرفاً أولانيه الامير ؟» والعجب كل العجب انه بعد ان علم بأنها زفت الى الامير ما يرحى يرجو الحصول عليها . وبلغ من قبحته انه جاء الى هذا المعسكر محاولاً اغراءها بالفرار معه . ولكن الله أوقعه في أيدينا وسجنه : ففر الى عدونا ليوثق بنا ، ثم اغتتم اشتغال الامير وجنده بالقتال وعاد الى حيث رآه الامير بنفسه خارجاً من خباء سمية ، فاذا كان الامير يرى الصبر عليه حلماً ، فاني لا صبر لي على مثل هذه الخيانة» . فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب ، وثار غيرة فالتفت الى حسن وقال : «هل تنكر انك تحب سمية ؟» قال : «كلا» .

قال : «تقول ذلك بين يدي وأنت تعلم انها من نسائي ؟»
فظل حسن ساكناً ، فقال له الحجاج : «وهل هي تجبك ؟»

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على نفسه فأراد الرفق بها فقال : «لا أدري ..»

فقال عرفجة : «انها لا تحبه ، ولكنها فناة ساذجة استغل طيبة قلبها ليخدعها . ولا شك في انها تفاخر كل نساء المدينة بسا نالته من الحظوة لدى امير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامي دمار بني أمية» .
فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توييح عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزاة والتعقل : «لا أنكر ان سبية نالت احسن ما تتمناه فتاة بزواجها من مولانا الامير ، ولكنك يا عرفجة لم تترف ابنتك الى الامير الا رغبة في المال ، ولو مهرك هذا المال زنيجي لزفقتها اليه !»
فصاح عرفجة : «يا للمقحة . أتقول ذلك في حضرة الامير ونذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟!» ثم التفت الى الحجاج وقال : «لقد كفاك يا مولاي صبرا وحلما على من لا يستحق غير القتل والعذاب الاليم» .

فالتفت حسن اليه وقال : «أتعرض الامير على قتلي يا عرفجة وانك لاكثر استحقاقا للقصاص ؟ انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التي ندعي انك تدافع عنها . وأما انا فاذا قتلت فاني أذهب شهيد الامانة والحب الصحيح !»
فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال : «أسمعت يا مولاي ؟ انه ما زال يذكر الحب» .

فقال حسن : «وهل الحب عار ؟ نعم اني احب سمية حبا شديدا ، كما اني أكره أباهما كرها شديدا . ولا أبالي ان أصرح بذلك ولا ان أقتل في سبيله . اما انت فانك ستقتل لان شهادة ابن الخنفة آتية عما قليل ، وهي قاطعة بخيانتك للدولة ولامير المؤمنين» .
وحانت منه التفاتة الى باب الفسطاط ، فرأى بلالا قادما من بعيد وقد

علاه الغبار • فحقق قلبه ، والتفت الى الحجاج وقال : «ارجو ان يأذن مولاي في ادخال هذا القادم ، فهو رسولي الى ابن الحنفية ، وعسى ان يكون قد عاد من عنده بكتاب يثبت صحة دعواي» •

فقال الحجاج : «وأى رسول؟»

قال : «رسول كنت أنفذته الى ابن الحنفية في شعب علي ليستكتبه شهادة بما دار بينه وبين عرفة من حديث الكرسي • وهذا الرسول كان معي يوم حريق الكرسي ، فليأمر مولاي بادخاله لئرى ما جاء به» •

فتنادى الحجاج : «يا غلام» • فدخل احد غلمانه فقال له : «نرى رجلا قادما برسالة فأدخله علينا» •

فعاد الغلام ومعه بلال • وأخرج هذا عقدة من القصب الفليظ سلمها الى الحجاج مختومة ، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ، ثم أخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغته في وجهه ورقصت لحيته على صدره ، ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويتسم كأنه واثق بأن الكتاب يتضمن براءته • فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب التفت الى نجة وقال له : «لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة • وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان صحة ما اتهمك به هذا الشاب» • فهم عرفة بأن يتكلم ، ولكن الحجاج اتهمه وقال : «لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناه من خلطك» • ثم صفق فجاءه الغلام فقال له : «الي بالجلاد» • فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلى رأسه عمامة مستطيلة ويده سيف حاد • فأشار الحجاج بسبابته الى عرفة وحسن وقال للجلاد : «ائتني برأسيهما» • فصاح عرفة : «كيف تأمر بقتلي ولم تتحقق تهمتي؟» ان هذه الرسالة مزورة • وأخذ في الصياح حتى سمع صوته كل من في المعسكر فغضب الحجاج وصاح في الجلاد :

«هات رأس هذا اولاً» • وأشار الى عرفة •

فجره الجلاد حتى أركمه في القناء ونزع عمامته عن رأسه ، فأخذ يلتفت الى الحجاج وهذا معرض عنه ، ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه والناس ينظرون •

ووقف الجلاد بين يدي الحجاج وسيفه يقطر من دماء عرفة ، فأشار الحجاج الى حسن وقال للجلاد : «وهذا ايضا» •

فأمسك الجلاد بطوق حسن وأراد جره الى الخارج • فقال حسن للحجاج : «أنقتلني بعد ان رأيت صدفي واخلاصي؟»

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال : «أتسألني لم أقتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام ؟» انبا صبرت عليك حتى تحققت خيانة ذلك الغادر» •

فقال حسن : «اذا لم يكن بد من قتلي فاقتلوني داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس» •

فقال الحجاج : «أتشترط علينا ؟» • ثم التفت الى الجلاد وصرخ فيه قائلاً : «اقتله يا جلاد والا قتلتك !»

فعاد الجلاد الى حسن وهم بجذبه ، فقال حسن : «لا تجذبني هكذا فما انا بخائف من الموت ، رغم اني واثق ببراءتي» • قال ذلك ومشى نحو الباب •

وفيما هما يهمان بالخروج ، علا صوت قعقة وسمع الحاضرون معها قائلاً يقول : «البريد •• البريد •• بريد امير المؤمنين» •

وكانت عادة الولاة اذا جاء البريد ألا يمنعه او يؤخروه لحظة واحدة فلما سمع الحجاج بوصوله صاح قائلاً : «ادخلوه» •

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد أنهكه التعب وتعفرت نياحه ، فترامى عند قدميه وسلم اليه كتاباً مختوماً • وكان حسن مشغولاً

بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكن عينه ما كادت تقع على ذلك الكهل حتى
بغت اذ عرف انه صديقه ابو سليمان ، وتذكر انه كان قد ارسله الى
خالد بن يزيد في الشام ليأتي منه بكتاب في شأن رملة الى ابن الزبير ،
فهم باستئذان الحجاج في كلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ، ليكلفه
ابلاغ خالد رضاء ابن الزبير وان رملة في انتظاره لتزف اليه فيكون قد
أتم مهته قبل موته •

ورفع حسن وجهه الى الحجاج فرآه تناول الكتاب ونظر الى خاتم
الخلافة على ظاهره ، ثم قبله ووقف تعظيما للخلافة • ثم نظر الى الرجل
الذي حمله وقال له بعد ان تفرس فيه : «من اين لك هذا الكتاب؟» أأنت
من عمال البريد؟»

فقال ابو سليمان : «لست منهم يا مولاي . ولكنهم حللوني على
دواب البريد تعجيلا بإبلاغ هذه الرسالة» • قال ذلك وهو يلث وصوته
يقطع ويتلجلج من التعب والخوف •

ففض الحجاج خاتم الكتاب وفنحه ، وجعل يعيد قراءته وينشاءب
ويحك شفثيه بأصبعه ويبعث بشعر لحيته وقد ظهر التأثر في عينه • ثم
أخذ ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل في
ختمه ويقلبه بين يديه ، كل هذا وأبو سليمان ما زال مستلقيا عند قدميه
وهو يلث من التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر
في وجهه ، وكلهم سكوت ينظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك
الكتاب •

وأخيرا ، اشار الحجاج الى الجلال بالانصراف فانصرف ، ثم صرف
بقية الحاضرين ولم يبق في الخيمة الا هو وحسن وأبو سليمان • فالتفت
الى حسن وقال : «هذا كتاب من امير المؤمنين جاءني بها كنت تبغيه انت •
ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن في الارض من ينجيك من القتل» •

فلما سمع حسن ذلك ابرقت أسرته ولكنه لم يطمئن تماما لانه لم يفهم
فحوى هذا الكتاب ، فأطرق وظل ساكنا .
فنادى الحجاج : «يا غلام» • ولما أقبل غلامه قال له : «ادع الكاتب» •
فخرج ثم عاد بالكاتب : فدفع الحجاج اليه الكتاب وقال : «اتل هذا
علينا» • فتلاه وهذا نصه :

«من امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، الى الحجاج بن يوسف امير
جندنا في الحجاز • أما بعد فقد بلغني انك خطبت ابنة عرفة المناق ،
وهي مخطوبة لحسن ، فأخذتها وحرمتها منها • والرجل ينتمي اليها وتهنأ
رعائته ، فاذا اتاك كتابي فاحمل الفتاة الى خطيبها ، وأمهره بما يقوم
بالنقطة • ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه أهون علي من ارتكابك
هذا الامر مع رجل من صائغنا وخاصتنا • وثقتي انك فاعل ما اقول
والسلام» •

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رقص قلب حسن طربا ،
وخيل اليه انه في حلم ، فجعل ينظر الى ما حوله ليتحقق انه في يقظة ،
ثم سمع الحجاج يقول له : «لم تتل الكتاب عليك الا لتعلم اننا ما
تجاوزنا عنك الا عملا بأمر امير المؤمنين» • والتفت الى غلامه وقال :
«أعطه الف دينار • وسية طالق منذ الان • فامض الى خباء النساء
وأبئها بذلك ، لتخرج معه من هذا المعسكر قبل غروب اليوم» • قال
ذلك ووقف ، فخرج حسن والغلام ، وكان ابو سليمان قد استراح ووقف
مع الواقفين ، فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم بأن يخاطب حسنا وحسن
يهم بأن يخاطبه •

وقبل ان يتكامل خروجهم ، رأوا فارسا يسوق جواده نحو فسطاط
الحجاج والبقعة ظاهرة في وجهه فلما وصل ترجل ودخل دون ان يستأذن
وقال : «ان مصيبة حلت في خباء النساء» •

فأما سمع حسن الصوت علم انه صوت عريف الحرس ، وخفق قلبه خشية ان تكون المصيبة حلت بسمية . ثم ما لبث ان سمع العريف يقول: «ان مولانا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت سما او اصابتها الموت بغتة ! »

فأحس حسن كأن جبلا سقط على رأسه ، وكاد يفقد رشده وشغل عما كان فيه من سؤال ابي سليمان عن الطريقة التي حصل بها على ذلك الكتاب ، ثم لم يسهه الا ان يعدو نحو خباء سمية . ولم يكن ايسر سليمان أفل بغتة منه . اذ جاء ذلك الخبر صدمة قوية اطارت صوابه ، فسار في أثر حسن الى الخباء ، وسار في أثرهما بلال وعلام الحجاج . وكانت سمية قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه امام خبائها ، كما سمعته وهو يأمرهم بأخذ حسن الى السجن الى الصباح ، وأيقنت ان الحجاج قاتله لا محالة . ولكنها تعللت بالأمال البعيدة وصبرت حتى رى ما يكون في الغد ، ففقت ليلتها تفكر في مصير حسن ، وأصبحت وقد أعدت السم وجلست وراء الخباء ، تستطلع أنباء المحاكمة من الحراس . فلما جاءها احدهم بقتل ايها وأخذ حسن لقتله أغلظت الدنيا في عينيها . وكانت امة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عليها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركها وشأنها ، وبعد قليل جاءها احد الحراس نبأ قتل حسن داخل خيبة الحجاج ، فسارعت الى السم وابتلعت مرة واحدة ثم وقعت مغشيا عليها . فصاحت امة الله وولوت ، وأخبرت الحراس ان مولاتها تجرعت السم فأسرع احدهم على جواده بالنبا الى الحجاج . وظل حسن يعدو نحو الخباء ، وهو لا يكاد يرى طريقه ، ولا يبالي ما يعترضه من الاحجار او الاوتاد حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعي ما يقول : «سمية .. سمية .. انا حي يا سمية» . ولما وصل الى الخباء اراد الفرسان منعه ، ثم تركوه بعد ان اخبرهم

الغلام بأمر الحجاج فأطل من الباب فرأى سمية مستلقية وحولها نسوة
يكيين . وكأنها جثة بلا روح وقد طبقت عيناها وامتقع لونها وانحل
شعرها وابيضت شفتاها فلم يتسالك ان اندفع نحوها وفي يده خنجره
فتفرقت النساء عنها ، ثم اخذ يجس يدها ويقول : «حبيبي .. روجي ..
مني .. ماذا اصابك ؟! نجرعت السم ياسا من حياتي ؟ اني حي يا
سمية .. سمية انا ان تحيي مثلي او اموت مثلك !»

ولما ايقن بمتيها ، هم بأن يطعن نفسه بالخنجر ، ولكنه شعر بيسد
امسكت به وسع صوتا يناديه : «تسهل يا حسن : ان سمية حية لا بأس
عليها» . فالتفت فرأى ليلي الاخيلية ويدها كوب ماء جاءت لترش سمية
به . فقال لها : «ماذا تقولين ؟ كيف تحيا سمية وقد تجرعت السم ؟!»
انه كاف لقتل أشد الرجال !»

فقال ليلي : «ان الذي تجرعت ليس سنا فلا تخف !»
فوقف ذاهلا ثم قال ليلي : «لا تعليني بالاهام ، ان سببه قد ماتت
ولا بد لي من ان اموت لانها ماتت لاجلي» .
قال ذلك ورفع يده بالخنجر فصاحت فيه ليلي : «تسهل يا حسن . ان
سمية حية ولم تجرع السم ولكنها في غيوبة» .
قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به فحركت رأسها ثم
حركت شفتيها وقالت : «حسن .. حسن .. قتاك قلبهم الله ! انسي
ذاهبة اليك» .

فلما سمع صوتها جثا عند رأسها باكيا وقال لها : «سمية .. انت حية
يا حبيبي ؟ انظري الي .. انا حسن .. انا حي يا حبيبي وقد انقذني
الله .. افتحي عينيك يا سمية» .
ففتحت عينيها فلما رآته قالت : «ما هذه الاحلام ؟ حسن ؟ اين نحن
يا حسن ؟»

فأجابها : «نعم انا حسن يا سمية» •
فجلست وألقت نفسها عليه وأخذت في البكاء ، فقال لها : «لا نبكي
يا سمية انني في خير» •
فقال له ليلي : «دعها تبكي لتنفس كربتها وتصحو من سكرتها» •
نسكت وبرك سمية تبكي وتشهق ، ثم رآها ترفع رأسها وتنظر الى وجهه
وتنسيح : «حسن حبيبي •• هل انا في يقظة ام في منام ؟»
فأجلسها بجانبه وهو يقول لها : «انظري يا سمية ، ها أنذا حي ،
وهذه صديقتنا ليلي • ان اسباب تعامتنا قد زالت والحمد لله» •
فقطعت كلامه فآثالة : «والحجاج ؟» • وعادت الى البكاء •
فقال لها : «لقد جاء أمر الخليفة بأن يطلقك ، ويردك الى خطيبك ،
وسخرج اليوم من هذا المعسكر» • فحدقت بنظرها فيه كأنها تنحقق ما
يقول ، فأقسم لها بحبها انه ما قال الا الحق •
سكن روع سمية بعد ان اطمأنت الى نجاتها ونجاة حسن ، ثم التفتت
الى من حولها فرأت امة الله جاريتها ، ولىلى الاخيلية ، وهند زوجها
الحجاج ، ففالت : «ان السم تأخر فعله ، أليس كذلك ؟»
ففالت ليلي : «انك لم تنجعي الا دقيق الذرة • وأما السم الذي
ظننت انك تجرعه فهو معي» • قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقة
فتحتها وفيها السم وقالت : «ألا تذكرين اللبلة التي بت فيها عندك ؟»
انني غافلتك وأبدلت بالسم دقيق الذرة ، لانني خفت ان تعجلي بتجرعه
دون ما يدعو الى ذلك ، فالحمد لله على نجاتك» •
نهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت : «جزاك الله خيرا» • وكذلك
شكرها حسن ثم قص عليهم ما دار بينه وبين الحجاج حتى اتى على ذكر
ابي سليمان وكيف جاء في ابان الضيق فكان السبب في نجاته من الموت،

كما كانت ليلى سببا في نجاة سمية منه • وكان ابو سليمان واقفا خارج
الخباء فناداه حسن فدخل وهو يقول : «هل يدخل عبد الله ؟»
قال حسن : «اي عبد الله ؟»
قال : «خادمك» •

قال : «فليدخل • اني أعده صديقي» •
ثم دخل عبد الله وهو يقول : «لا تظن اني تخلفت عن خدمة مولاي ،
ولكنني اصبحت بعد اخراجك من السجن موضع غضب عرفة ، فلم اعد
استطيع الظهور وبقيت متخفيا أنسم الاخبار • فلما تحققت نجاتك جئت
لاكون في خدمتك» •

وكانت سمية قد صحت ونحقت انها فازت بحبيبتها وانها نجت من
ايها فثبتت بصرها في حسن ، وثبت هو بصره فيها ، واكتفيا بتفاهم
اللواحق • ثم قال لها : «الى اين تودين الذهاب ، وأين نقيم ؟»
فأجابه ابو سليمان على الفور : «تقيان عندنا بالمدينة» •
فقال حسن : «لقد أذكرتني امر رملة • هل اتييت بالكتاب من خالد الى
ابن الزير • وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك ؟»
فقص ابو سليمان قصة سعيه في ذلك الامر على يد خالد ثم قال :
«وأما ابن الزير فقد جئته بالكتاب ولكنه وأسفاه عليه قتل ولا ندري ما
تم بأهله» •

فقال : «اهله في مأمن بمكة ، وقد صرح لهم قبل موته بقبوله مصاهرة
خالد • وبعد عودتنا الى المدينة سأبعث عبد الله الى خالد بالخبر ليعت
من يحمل رملة اليه» •

ثم التفت الى ليلى وقال لها : «لن انسى لك جميلك ما حييت ، ويكفي
انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم سليمان سببا لبقائي» •

فقال ليلى : « لا فضل لي في ذلك وقد فعلته لاني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ، ولا اظن احدا من هؤلاء ادرك مسن حالكما ما ادركه » . قالت ذلك وشرقت بريقها .
فأدرك حسن انها تشير الى قصتها مع توبة ، فشكر الله وسكت حتى لا يشير عواطفها .

ثم وقف ابو سليمان وقال : « كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم ، وكل شيء يجري بقضاء من الله سبحانه وتعالى . هلم بنا الان نستمد للرحيل » .

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوجة الحجاج وقالت : « ارجو ان يوفقك الله الى سبيل تنجين به كسنا نجوت انا » .

فألآت الدموع في عيني هند ولم تجب .

* * *

وفي أصيل ذلك اليوم شدوا الرحال وساروا جميعا فاصدين المدينة، ما عدا ليلى فانها التمس وجه أخرى . ولما وصلوا ساروا توا الى بيت عرفة وقد أصبح بما فيه ارثا شرعا لسمية . وكذلك كل ما كان يملكه . وفي يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم . واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا شهدته سكينه بنت الحسين وكثير من سكان المدينة ، وأكثرهم كانوا يكرهون عرفة ، وغنى ليلتها طويس ، كما غنت عزة الميلاء ، وأجاد أشعب الطماع في المجون حتى

كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك • وبعد انتهاء العرس سار
عبد الله الى خالد في دمشق ومعه كتاب من حسن بتفصيل ما حدث في
شأن رملة وقبول عبد الله بن الزبير خطبته لها فجاء خالد وتزوج رملة كما
هو مدون في التاريخ •

سلسلة زوايا تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان



- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| ١٢ - عروس فرغانة | ١ - فتاة غسان |
| ١٣ - أحمد بن طولون | ٢ - أرمافسة المصرية |
| ١٤ - عبد الرحمن الناصر | ٣ - عذراء قرينش |
| ١٥ - فتاة القيروان | ٤ - ١٧ رمضان |
| ١٦ - صلاح الدين الأيوبي | ٥ - عادة كربلاء |
| ١٧ - شجرة الدر | ٦ - الحجاج بن يوسف |
| ١٨ - الانقلاب العثماني | ٧ - فتح الأندلس |
| ١٩ - أسير المتهدي | ٨ - شارك وعبد الرحمن |
| ٢٠ - المملوك الشارد | ٩ - أبو مسلم الخرساني |
| ٢١ - استبداد المماليك | ١٠ - العباسة أخت الرشيد |
| ٢٢ - جهاد المحبتين | ١١ - الأمين والمأمون |